

* (فهرسة الجزء الاول من تاريخ العلامة ابن خلدون) *

صحيفة

- ٧ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاهام وذكر شئ من اسبابها
- ٢٩ الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العال والاسباب (وفيه ست فصول كبار)
- ٣٤ الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات
- ٣٤ المقدمة الاولى في أن الاجتماع الانساني ضروري
- ٣٦ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم
- ٤٠ تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الارض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك
- ٤٣ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا
- ٤٤ الاقليم الاول
- ٤٨ الاقليم الثاني
- ٤٩ الاقليم الثالث
- ٥٥ الاقليم الرابع
- ٦٠ الاقليم الخامس
- ٦٥ الاقليم السادس
- ٦٧ الاقليم السابع
- ٦٩ المقدمة الثالثة في المعدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم
- ٧٢ المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر
- ٧٣ المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم
- ٧٧ المقدمة السادسة في أوصاف المدرकिन للغيب من البشر بالقطرة وبالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

صحيفة

- ٨٠ حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن العرافين وغـ بذلك من مدارك الغيب
- ١٠١ الفصل الثاني من الكتاب الاول في العمران البدوي والام الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتهميدات
- ١٠١ فصل في أن أجيال البدو والحضر طبيعية
- ١٠٢ فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي
- ١٠٣ فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية أصل العمران والامصار مدد لها
- ١٠٣ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر
- ١٠٥ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر
- ١٠٦ فصل في أن معاناة أهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم
- ١٠٧ فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصية
- ١٠٨ فصل في أن العصية انما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه
- ١٠٩ فصل في أن الصريح من النسب انما يوجد للتمتوحشين في الفقر من العرب ومن في معنائهم
- ١١٠ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع
- ١١٠ فصل في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصية
- ١١١ فصل في أن الرئاسة على أهل العصية لا تكون في غير نسبهم
- ١١٢ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصية ويكون لغيرهم بالمجاز والسبه
- ١١٣ فصل في أن البيت والشرف لاموالى وأهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بالنسب
- ١١٤ فصل في أن نهاية الحب في العقب الواحد أربعة آباء
- ١١٦ فصل في أن الام الوحشية أقدر على التغلب من سواها
- ١١٧ فصل في أن الغاية التي تجرى اليها العصية هي الملك
- ١١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم
- ١١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم
- ١١٩ فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس
- ١٢١ فصل في أنه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع

١٢٢	فصل في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته الى شعب آخر منها مادامت لهم العصية
١٢٣	فصل في أن المغلوب موانع أبدأ بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده
١٢٤	فصل في أن الأمة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء
١٢٥	فصل في أن العرب لا يتغلبون الا على البساط
١٢٥	فصل في أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب
١٢٦	فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة
١٢٧	فصل في أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك
١٢٨	فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار
١٢٩	الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومقدمات
١٢٩	فصل في أن الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصية
١٢٩	فصل في أنه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصية
١٣١	فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغنى عن العصية
١٣٢	فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين امان نبوة أو دعوة حق
١٣٢	فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصية التي كانت لها من عدد
١٣٣	فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصية لا تتم
١٣٥	فصل في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها
١٣٦	فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القاعين بها في القلة والكثرة
١٣٧	فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة
١٣٩	فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد
١٣٩	فصل في أن من طبيعة الملك الترف
١٤٠	فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

١٤٠	فصل في أنه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم
١٤٢	فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص
١٤٤	فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة
١٤٦	فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها
١٤٦	فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الاطوار
١٤٨	فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها
١٥٢	فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالي والمصطنعين
١٥٢	فصل في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول
١٥٥	فصل فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه
١٥٥	فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
١٥٦	فصل في حقيقة الملك وأصنافه
١٥٧	فصل في أن أرغاف الخدم مضر بالملك ومفسد له في الاكثر
١٥٨	فصل في معنى الخلافة والامامة
١٥٩	فصل في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه
١٦٤	فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة
١٦٨	فصل في انقلاب الخلافة الى الملك
١٧٤	فصل في معنى البيعة
١٧٥	فصل في ولاية العهد
١٨٢	فصل في الخطط الدينية الخلافة
١٨٩	فصل في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء
١٩٢	فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكهنة عند اليهود
١٩٥	فصل في مراتب الملك والسلطان والقبائل
٢٠٢	ديوان الاعمال والجبليات
٢٠٥	ديوان الرسائل والكتابة
٢١٠	قيادة الاساطيل (وهي سفائن الحرب)

صحيفة

- ٢١٤ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول
٢١٥ فصل في شارات الملك السلطان الخاصة به
٢١٧ السرير والمنبر والتخت والكرسي
٢١٧ السكة
٢٢٠ الخاتم
٢٢٢ الطراز
٢٢٣ الفساطيط والسياح
٢٢٤ المقصورة للضلالة والدعاء في الخطبة
٢٢٦ فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها
٢٢٧ فصل ومن مذاهب أهل الكفر والفرق في الحروب ضرب المصاف وراء
عسكرهم الخ
٢٢٩ فصل ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكد في قتال الكثر
والفرصار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم الخ
٢٢٩ فصل وبلغنا ان اتم الترتيب لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم
٢٢٩ فصل وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم الخ
٢٢٣ فصل في الجباية وسبب قتلها وكثرتها
٢٣٤ فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة
٢٣٤ فصل في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية
٢٣٦ فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة
٢٣٧ فصل ولما يتوقعه أهل الدولة من امثال هذه المعاطب صار الكثر منهم
ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من رتبة السلطان الخ
٢٣٩ فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
٢٣٩ فصل في ان الظلم مؤذن بخراب العمران
٢٤١ فصل ومن أشد الظلمات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال
وتسخير الرعايا بغير حق
٢٤٢ فصل وأعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال
الناس بشراء ما بين أيديهم بأجناس الاثمان
٢٤٣ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

صحيفة

- ٢٤٤ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
٢٤٥ فصل في أن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع
٢٤٦ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة
٢٤٩ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع
٢٤٩ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستوي على الدولة المستقرة بالمطابقة
لا بالمناجزة
٢٥٢ فصل في وقور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات
٢٥٣ فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة تنظم بها أمره
٢٦٠ فصل في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك
٢٧٥ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى
الحقير
٢٨٦ الفصل الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار وسائر العمران
وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق
٢٨٦ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما انما توجد ثمانية عن الملك
٢٨٧ فصل في أن الملك يدعو الى نزول الامصار
٢٨٨ فصل في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يبنيها الملك الكثير
٢٨٩ فصل في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة
٢٩٠ فصل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة
٢٩٢ فصل ومما راعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل
أو تكون بين امة من الامم الخ
٢٩٢ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم
٢٩٨ فصل في أن المدن والامصار باقرية والمغرب قليلة
٢٩٩ فصل في أن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى
من كان قبلها من الدول
٣٠٠ فصل في أن المباني التي كانت تحتطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
٣٠٠ فصل في مبادئ الخراب في الامصار
٣٠١ فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما
هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة

- ٣٠٣ فصل في أسعار المدن
- ٣٠٥ فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
- ٣٠٥ فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقير مثل الامصار
- ٣٠٧ فصل في تأمل العقار والضياح في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها
- ٣٠٨ فصل في حاجات المتقنين من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة
- ٣٠٨ فصل في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وأنهم تترسخ باتصال الدولة ورسوخها
- ٣١٠ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده
- ٣١٣ فصل في أن الامصار التي تكون كرامى للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها
- ٣١٥ فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض
- ٣١٥ فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض
- ٣١٧ فصل في لغات أهل الامصار
-
- ٣١٨ الفصل الخامس من الكتاب الاقل في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل
-
- ٣١٨ فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحه وما وأن الكسب هو قيمة الاعمال البشرية
- ٣٢٠ فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه
- ٣٢١ فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي
- ٣٢١ فصل في أن ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي
- ٣٢٥ فصل في أن الجاه مغيد للامال
- ٣٢٦ فصل في أن السعادة والكسب انما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة
- ٣٢٨ فصل في أن القائمين بأموال الدين من الغطاء والقبض والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب
- ٣٢٩ فصل في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو
- ٣٣٠ فصل في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها
- ٣٣٠ فصل في أي أصناف الناس يجتري بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها
- ٣٣١ فصل في أن خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

- ٣٣١ فصل في نقل التاجر للسلع
- ٣٣٢ فصل في الاحتكار
- ٣٣٢ فصل في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخيص
- ٣٣٣ فصل في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة
- ٣٣٤ فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم
- ٣٣٥ فصل في أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته
- ٣٣٥ فصل في أن رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمد مدتها
- ٣٣٧ فصل في أن الصنائع انما تستجد وتكثر اذا كثرت اهلها
- ٣٣٧ فصل في أن الامصار اذا قاربت الخراب انتفعت منها الصنائع
- ٣٣٧ فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع
- ٣٣٨ فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى
- ٣٣٩ فصل في الاشارة الى أمهات الصنائع
- ٣٣٩ فصل في صناعة الفلاحة
- ٣٣٩ فصل في صناعة البناء
- ٣٤٢ فصل في صناعة التجارة
- ٣٤٢ فصل في صناعة الحياكة والخياطة
- ٣٤٤ فصل في صناعة التوليد
- ٣٤٦ فصل في صناعة الطب وأنهم محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية
- ٣٤٨ فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية
- ٣٥٢ فصل في صناعة الوراقة
- ٣٥٢ فصل في صناعة الغناء
- ٣٥٨ فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب
-
- ٣٥٨ الفصل السادس من الكتاب الاقل في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق
-
- ٣٥٨ فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران لبشري
- ٣٥٩ فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع
- ٣٦٢ فصل في أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة
- ٣٦٢ فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

صفحة	
٣٦٥	علوم القرآن من التفسير والقراءات
٣٦٨	علوم الحديث
٣٧٢	علوم الفقه وما يتبعه من الفرائض
٣٧٦	علم الفرائض
٣٧٧	أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات
٣٨٢	علم الكلام
٣٩٠	علم التصوف
٣٩٦	علم تعبير الرؤيا
٣٩٩	العلوم العقلية وأصنافها
٤٠٢	العلوم العددية
٤٠٣	ومن فروع علم العدد صناعة الحساب
٤٠٣	ومن فروع علم الجبر والمقابلة
٤٠٤	ومن فروع علم أيضا المعاملات
٤٠٤	ومن فروع علم أيضا الفرائض
٤٠٥	العلوم الهندسية
٤٠٦	ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية والمخروطات
٤٠٦	المناظر من فروع الهندسة
٤٠٦	ومن فروع الهندسة المساحة
٤٠٦	علم الهيئة
٤٠٧	ومن فروع علم الازياج
٤٠٨	علم المنطق
٤١٠	الطبيعيات
٤١١	علم الطب
٤١٢	فصل في البادية من أهل العمران طب ينفونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص الخ
٤١٢	الفلاحة
٤١٣	علم الالهيات
٤١٤	علم السحر والطلسمات

صفحة	
٤٢٠	فصل ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين
٤٢٠	علم أسرار الحروف
٤٢٣	ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من الاسئلة
٤٢٥	الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكمياتها ومقادير المقابيل منها وقوة الدرجة المنيرة بالنسبة الى موضع المعلق من امتزاج طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء
٤٢٥	الطب الروحاني
٤٢٥	مطرح الشعاعات في مواليد الملوك وبنيهم
٤٢٧	الانفعال الروحاني والانقياد الرباني
٤٢٧	اتصال أنوار الكواكب
٤٢٧	مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخله دائمة
٤٢٨	فصل في المقامات والنهاية
٤٢٨	الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والابهلية
٤٢٩	كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زاوية العالم بحول الله منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها
٤٣٨	فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية
٤٤٢	فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية
٤٤٤	علم الكيمياء
٤٥٣	فصل في ابطال الفلسفة وفساد متعلقاتها
٤٥٧	فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها
٤٦٢	فصل في انكار غرر الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المقاسد عن اقتحامها
٤٦٧	فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عاتقة عن التحصيل
٤٦٨	فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم
٤٦٩	فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته
٤٧٠	واعلم أيها المتعلم الخ
٤٧٢	فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الاقطار ولا تفرغ المسائل
٤٧٣	فصل في تعاليم الولاة واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

- ٤٧٥ فصل في أن الشدة على المتعلمين مضره بهم
- ٤٧٦ فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء الشيخة من يد كمال في التعلم
- ٤٧٦ فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها
- ٤٧٧ فصل في أن حلة العلم في الاسلام أكثرهم العجم
- ٤٧٩ فصل في علم اللسان العربي
- ٤٧٩ علم النحو
- ٤٨١ علم اللغة
- ٤٨٣ علم البيان
- ٤٨٦ علم الأدب
- ٤٨٧ فصل في أن اللغة ملكة صناعية
- ٤٨٨ فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وجير
- ٤٩٠ فصل في أن لغة الحضرة والا صار قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر
- ٤٩١ فصل في تعليم اللسان المضرى
- ٤٩١ فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العريية ومستغنية عنها في التعليم
- ٤٩٣ فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم
- ٤٩٥ فصل في أن أهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر
- ٤٩٧ فصل في انقسام الكلام الى فنى النظم والنثر
- ٤٩٨ فصل في أنه لا تتفق الاجادة في فنى المنظوم والمنثور معاً الا لقل
- ٤٩٩ فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه
- ٥٠٦ فصل في أن صناعة النظم والمثرا نماهي في الالفاظ لا في المعاني
- ٥٠٦ فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بمجودة المحفوظ
- ٥٠٨ فصل في ترفع أهل المراتب عن اتحال الشعر
- ٥٠٩ فصل في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد (وفيه أشعار الهلالية والزناية)
- ٥١٨ الموشحات والازجال للاندلس (تحت فهرسة الجزء الاول)

الجزء الاول

من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب

والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوى السلطان الاكبر

وهو تاج دجيد عصره العلامة عبد الرحمن

ابن خلدون المغربي

قوله اليهوت هو
النون أى الخوت
الذى على ظهره
الارض السابعة
ويسمى أيضا لوتيا كما
في المزهر وروح البيان
واللهجة ومعلوم أن
بينه وبين زحل الذى
هو فى الفلك السابع
بونا بعيدا قال الشهاب
الخفاجى فى حاشيته على
البيضاوى فى أول
سورة نون اليهوت بفتح
المثناة التحتية وسكون
الهاء وما اشهر من
أنه بالباء الموحدة غلط
على ما ذكره الفاضل
الحشى اه ومثله
فى روح البيان قاله نصر
الهورينى أقره المصحح
الثانى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

{ يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغنى بلطفه عبد الرحمن }
{ ابن محمد بن خلدون الحضرمى وفقه الله تعالى }

الحمد لله الذى له العزة والجبروت * ويده الملك والملكوت * وله الاسماء الحسنى
والنعوت * العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوم أو يخفيه السكوت * القادر
فلا يعجزه شئ فى السموات والارض ولا يقوت * أنشأنا من الارض نسما * واستعمرنا
فيها أجيالا وأممنا * وبسر لنا منها أرزاقا وقسما * تكفينا الارحام والبيوت
* ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلىنا الايام والوقوت * ونعتورنا الآجال التى خط
علينا كتابها الموقوت * وله البقاء والنبوت * وهو الحى الذى لا يموت * والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبى الامى العربى المكتوب فى التوراة والانجيل
المنعوت * الذى تخض لفصاله الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسيوت * ويتبين
زحل واليهوت * وشهد بصدقه الحام والعنكبوت * وعلى آله وأصحابه الذين
لهم فى محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت * والشمل الجميع فى مظاهره ولعدوهم
الشمل الشيت * صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المخوت * وانقطع

بالصفر

بالصفر حبله المبتوت * وسلم كثيرا (أما بعد) فان فى التاريخ من القنوت التى
تبدأ ولها الامم والاجيال * وتشد اليه الركائب والرحال * وتسحو الى معرفته
السوقة والأغفال * وتتنافس فيه الملوك والاقبال * ويتساوى فى فهمه العلماء
والجهال * اذهو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول * والسوابق
من القرون الاول * تنمى فيها الاقوال * وتضرب فيها الامثال * وتطرف بها
الاندية اذا غصها الاحتفال * وتودى اليها شأن الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال
* واتسع للدول فيها انطاق والمجال * وعمرو الارض حتى نادى بهم الارتحال
* وحان منهم الزوال * وفى باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق
* وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق * فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق
* وجدير بأن يعتد فى علومها رخليق * وان تقول المؤرخين فى الاسلام قد استوعبوا
أخبار الايام وجعروها * وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها * وخلطوها
المطفلون بدسائس من الباطل وهو افها وأتدعوها * وزخارف من الروايات
المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتنى تلك الآثار الكثر من بعدهم واتبعوها
* وأدوها اليها كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها
* ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح فى
الغالب قليل * والغلط والوهم نسيب للاخبار خليل * والتقليد عريق فى
الآدميين وسليل * والتطفل على القنوت عريض وطويل * وحرى الجهل بين
الانام وخيم ويل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه
* والناسل انما هو عيل وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل * والعلم يجلوها
صفحات الصواب ويصقل * (هذا) وقد دون الناس فى الاخبار وأكثروا * وجعوا
تواريخ الامم والدول فى العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة
* واستفرغوا دواوين من قبلهم فى صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون
يجاوزون عددا لا نامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن اسحق والطبرى وابن
الكلى ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدى والمسعودى وغيرهم من المشاهير
* المتبرزين عن الجماهير * وان كان فى كتب المسعودى والواقدي من المطعن والمغمر
ما هو معروف عند الاثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * الا أن الكافة
اختصتهم بقبول أخبارهم * واقفاء سنهم فى التصنيف واتباع آثارهم * والناقد
البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فلعمران طبائع فى
أحواله ترجع اليها الاخبار * وتحمل عليها الروايات والآثار * ثم ان أكثر

التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين صدر الاسلام في الاتفاق
والممالك * وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتاركة ومن هؤلاء من
استوعب ما قبل الملة من الدول والامم * والامر العمم * كالمعزودي ومن نحا
منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقيد * ووقف في العموم
والاحاطة عن الشا والبعد * فقيده شوارده * واستوعب أخبار أفعه وقطره
* واقتصر على احاديث دولته ومصره * كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة
الاموية بها وابن الرقيق مؤرخ افریقیة والدول التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد
هؤلاء الا مقلد * وبلید الطبع والعقل أو مبتلد * ينسج على ذلك المنوال *
ويحتذى منه بالمثل * ويذهل عما أحاطه الايام من الاحوال * واستبدلت به من
عوائد الامم والاجيال * فيجلبون الاخبار عن الدول * وحكايات الوقائع في
العصور الاول * صوراً قد تجردت عن موادها * وصفاحا تنضيت من أعمادها
* ومعارف تستكر للجهل بطارفها وتلادها * انما هي حوادث لم تعلم أصولها *
وانواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها * يكررون في موضوعاتهم الاخبار
المتداولة بأعيانها * اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها * ويغفلون أمر الاجيال
الناشئة في ديوانها * بما أعوز عليهم من ترجمانها * تستعجم صفهم عن بيانها
* ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة تسقوا أخبارها انسقا * محافظين على نقلها وهما
أوصدا * لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتهما *
وأظهر من آيتها * ولا علل الوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر متطلعا بعد ان
افتقار أحوال مبادي الدول وممراتها * مقتشاعا عن أسباب تراجمها وتعاقبها *
باحشاش المقنع في بيانها وتناسها حسب ما يند كذا في مقدمة الكتاب *
ثم جاء آخرون بأفراط الاختصار * وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار
* مقطوعة عن الانساب والاخبار * موضوعه عليها أعداد أيامهم بحروف الجار
* كما فعله ابن رشيقي ميزان العمل * ومن اقتنى هذا الاثر من الجهل * وليس يعتبر
لهؤلاء مقال * ولا يعتد لهم بثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا
بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالعت) كتب القوم * وسبرت غور
الانس واليوم * نهت عن القريحة من سنة الغفلة والنوم * وسمت التصنيف
من نفسي وأنا المفلس أحسن النوم * فأثارت في التاريخ كتابا * رفعت
به عن أحوال الناشئة من الاجيال حجابا * وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا *
وأبدت فيه لاولية الدول والعمران عللا وأسبابا * وبنته على أخبار الامم الذين

عمروا المغرب في هذه الاعصار * وملوا كفاف النواحي منه والامصار * وما كان
لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سلف من الملوك والامصار * وهم العرب
والبربر * اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما * وطال فيه على الاحقاب
مشواهما * حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما * ولا يعرف أهلها من أجيال الآدميين
سواهما * فهذبت مناحيه تهديا * وقربت لافهام العلماء والخاصة تقرينا *
وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا * واخترعت من بين المناسخ مذهبا
عجيبا * وطريقة مبتدعة وأسلوبا * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما
يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يتعلق بعالم الكواكن وأسبابها
* ويعترف كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك *
وتقف على أحوال من قبلك من الايام والاجيال وما بعدك * (وربته) على مقدمة
وثلاثه كتب

(المقدمة) في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بمغالط المؤرخين *
(الكتاب الاول) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك
والسلطان والسكسب والمعاشر والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب
(الكتاب الثاني) في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبداء الخليقة الى هذا
العهد وفيه الاماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل البيظ
والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة
(الكتاب الثالث) في أخبار البربر ومن اليهم من زبانه وذكر أوليتهم وأجيالهم
وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء
أنواره * وقضاء القرض والسنة في مطافه ومزاره * والوقوف على آثاره
في دواوينه وأسفاره * فأقدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول
الترك بما ملكوه من الاقطار * واتعت بهما ما كتبه في تلك الاسطر * وأدرجتها
في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحي * وملوك الامصار والضواحي
* سالك سبيل الاختصار والتحصيل * مقتديا بالمرام السهل من العوينص *
داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب أخبار
الخليقة استيعابا * وذلك من الحكم النافذة صعبا * وأعطى لحوادث الدول عللا
وأسبابا * وأضج للعكمة صوانا والتاريخ حجابا * (ولما كان) مشتملا على أخبار
العرب والبربر * من أهل المدن والوزر * والاماع من عاصرهم من الدول الكبرى
وأفصح بالذكرى والعبير * في مبتدأ الاحوال وما بعد ما من الخبر (سميته) كتاب

العبر * وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من
 ذوى السلطان الاكبر * ولم أزل نشأ في أولية الاجيال والدول * وتعاصر الامم
 الاول * وأسباب التصرف والحول * في القرون الخالية والملل * وما يعرض
 في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم
 وصناعة * وكسب واضاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع
 ومنظر * الا واستوعبت جلله * وأوضحته براهينه وعالله * فجاء هذا الكتاب
 فذا بما ضمنت من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القرينة * وأنا من بعدها
 موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذه القضاء
 * راغب من أهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضا * النظر بعين الاتقاد
 لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء * فالضامعة بين
 أهل العلم من جهة * والاعتراف من اللوم من جهة * والحسن من الاخوان من جهة *
 والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل
 (وبعد) أن استوفيت علاجه * وأتت مشكاته للمستبصرين وأذ كبت سرابه
 * وأضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأزعت في فضاء المعارف نطاقه وأدريت
 سياجه * اتخفت بهذه النسخة منه (٨) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد *
 الفاتح الماهر * المحلى منذ خلع التمام * ولون العمام * بجلى القات الزاهد
 * المتوشح من زكاء المناقب والمحامد * وكرم الشمايل والشواهد * بأجل
 من القلائد * في فخور الولائد * المتناول بالعزم القوى الساعد * والجد المواتى
 المساعد * والمجد الطارف والتالد * ذواب ملكهم الراسى القواعد * الكريم
 المعالى والمساعد * جامع أشات العلوم والفوائد * وناظم شمل المعارف الشوارد
 * ومظهر الآيات الربانية * فى فضل المدارك الانسانية * بقدره الشاقب
 الناقد * ورأيه الصحيح المعاهد * النير المذهب والعقائد * نور الله الواضح
 المرشد * ونعمته العذبة الموارد * ولطفه الكامن بالمرصد للشدائد * ورحمته
 الكريمة المقاليد * التى وسعت صلاح الزمان الفاسد * واستقامة المائد من
 الاحوال والعوائد * وذهبت بالخطوب الاوابد * وخلعت على الزمان رونق
 الشباب العائد * وحجته التى لا يبطها انكار الجاحد ولا شبهات المعاند * (أمير المؤمنين)
 أبو فارس عبد العزيز بن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين *
 أبى الحسن ابن السادة الاعلام من بنى مرين * الذين جددوا الدين * ونهجوا
 السبل للمهتدين * ومحو آثار البغاة المفسدين * أفاء الله على الامة ظلاله *

(٨) قوله اتخفت بهذه
 النسخة منه الخ وجد
 فى نسخة بخط بعض
 فضلاء المغاربة زيادة قبل
 قوله اتخفت وبعد قوله
 وأدريت سياجه ونصها
 التمس له الكف الذى
 يلج بعين الاستبصار
 فتونه * ويلفظ بمداركة
 الذمينة معياره الصحيح
 وقانونه * ويميز بتمته
 فى المعارف عمادونه *
 فسرحت فكرى فى
 فضاء الوجود * وأجلت
 نظرى ليل التمام
 والوجود * بين التهام
 والنجود * فى العلماء
 الركع السجود *
 والخلفاء أهل الكرم
 والجلود * حتى وقف
 الاختار بساحة الكمال
 * وطافت الافكار
 بموقف الآمال *
 وظفرت أبهى المساعى
 والاعتمال * بمتمدى
 المعارف مشرقة فيه غرر
 الجبال * وحدائق =

وبلغه

وبلغه فى نصر دعوة الاسلام آماله * ويعتته الى خزانته الموقفة لطلبة العلم بجامع
 القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم * وكبرى سلطانهم * حيث مقر
 الهدى * ورياض المعارف خضلة الندى * وقضاء الاسرار الربانية فسيح المدى
 * والامامة الكريمة الفارسية (١) العزيرة ان شاء الله بنظرها الشريف * وفضلها
 الغنى عن التعريف * تبسطه من العناية مهادا * وتفسح له فى باب القبول
 آمادا * فتوضح بها أدلة على رسوخه واشهادا * فى سوقها تنفق بضائع الكتاب
 * وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب * ومن مدد بصائر المنيرة
 نتائج القرائح والالباب * والله يوزعنا شكر نعمتها * ويوفر لنا حظوظ المواهب
 من رحمته * ويعيننا على حقوق خدمتها * ويجعلنا من السابقين فى ميدانها *
 المحلين فى حومتها * ويضئ على أهل ايمانها * وما أوى من الاسلام الى حرم عمالتها
 * لبوس حايبتها وحرمتها * وهو سبحانه المسئول أن يجعل أعمالنا خالصة فى
 وجهتها * بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها * وهو سبحانه ونعم الوكيل

﴿ التقدمة ﴾

فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالامع لما يعرض للمؤرخين
 من المغالط والادغام وذكريات من اسبابها

(اعلم) أن فن التاريخ يخرج من عزم المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقظنا على
 أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم * والانبيا فى سيرهم * والملوك فى دولهم
 وسياساتهم * حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يروى فى أحوال الدين والدينا فهو
 محتاج الى ما خدته مددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبات يفضيان بصاحبهما
 الى الحق وينبكان به عن المزلات والمغالطات لا تخبر اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم
 تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع
 الانسانى ولا يقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور
 ومزلة القدم والجيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين
 وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا أو
 سميان لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها بأشبابها ولا سبروها بعبارة الحكمة
 والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلا عن الحق
 ونهاها فى يبداء الوهم والغلط سيما فى احصاء الاعداد من الاموال والعساكر

= العلوم الوارفة
 القلال * عن اليمن
 والشمال * فأثقت
 مطى الافكار فى
 عرصاتها * وجلوت
 محاسن الا تظار على
 منصاتنا * وأتخفت
 بدوانها * مقاصد ايوانها
 * وأطلعت كوكبا وقادا
 فى أفق خزانة رصوانها
 * ليكون آية للعقلاء
 يهتدون بناره *
 ويعرفون فضل المدارك
 الانسانية فى آثاره *
 وهى خزانة مولانا
 السلطان الامام المجاهد
 * الفاتح الماهر * الى
 آخر النعوت المذكورة
 هانم قال الخليفة أمير
 المؤمنين المتوكل على
 رب العالمين أبو العباس
 أحمد بن مولانا الأمير
 الطاهر المقدس أبى
 عبد الله محمد بن مولانا
 الخليفة المقدس أمير
 المؤمنين * أبى يحيى أبى
 بكر ابن الخلفاء

اذا عرضت في الحكايات اذهي مظنة الكذب ومطية الهذول لا بد من ردها الى
الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في
جيوش بني اسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من
يطبق حل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألفاً ويزيدون
ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها مثل هذا العدد من الجيوش لكل
مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد
بنلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا
العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعد هذا اذا اصطفت
عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً وأزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون
غلبة أحد الفريقين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك
فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم أعظم
من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهمم والتهامه بلادهم
واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض
عمال مملكة فارس يقال انه كان من زبن المغرب من تخومها وكانت ممالكهم
بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك
لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قرياً منه وأعظم ما كانت جيوعهم
بأنقادسية مائة وعشرون ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر
من مائتي ألف (وعن عائشة والزهرى) أن جوع رسم التي زحف بها السعد
بالقادسية انما كانوا اثنين ألفاً كلهم متبوع وايضا فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا
العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفتح مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على
نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما ين في فصل الممالك
من الكتاب الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد
يثرى وخير من الجاز على ما هو المعروف وايضا فالذي بين موسى واسرائيل انما هو
أربعة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث بفتح الهاء
وكسر ها بن لاوى بكسر الواو وفتحها بن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه في
التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط
وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم عصر الى أن خرجوا مع موسى
عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة قد اذولهم ملوك القبط من الفراعنة وبعد
أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش

الراشدين * من أئمة
الموحدين الذين جددوا
الدين ونهجوا السبل
للمهتدين * ومحو آثار
البغاة المنسدين * من
النجسة والمعدين *
سلالة ابي حفص
والقاروق * والنبعة
النامية على تلك المغارس
الراكية والعروق *
والثور المتلائي من تلك
الاشعة والبروق فاوردته
من مودعها العلي بحيث
مقر الهدى * ورياض
المعارف خضلة الندى
* الى آخر ما ذكرهنا
الا انه لم يقيد الامامة
بالفارسية لكن النسخة
المذكورة مختصرة عن
هذه النسخة المنقولة من
خزانة الكتب الفارسية
ولم يقل فيها ثم كانت
الرحلة الى المشرق الخ
(١) قوله في صحيفة ٧
الفارسية أي المنسوبة
الى الاميرابي فارس
المقدم ذكره

انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيداً أيضاً وليس بين سليمان واسرائيل
الا أحد عشر أباً فانه سليمان بن داود بن ايشابن عوفيد ويقال بن عوف بن باعز ويقال
بوعز بن سلون بن نحشون بن عيموذب ويقال حينئذ اب بن ريم بن حصرون ويقال
حصرون بن پارس ويقال پيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر
من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المثني والاف فر بما يكون
وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد
والقريب المأزوف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً (والذي ثبت في الاسرائيليات)
أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقر بابه كانت ألفاً وأربعمائة
فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة
منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان عنقوان دولتهم واتساع ملكهم
هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي
لعهدهم أو قرياً منهم وتقاضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين أو النصاري
أو أخذوا في احصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع
الاغنياء المومنين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس
الاغراب فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستتبحت أحوال أهل
الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار
ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة النجا وزع على اللسان والغفلة على
المتعقب والمنقذ حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا
عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفطيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه
ويتخذ آيات الله حزواً ويشتري له والحديث امض عن سبيل الله وحسبك بها صفقة
خاسرة (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة في أخبار التبايعه ملوك
اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افر يقية والبربر من بلاد
المغرب وأن افر يقس بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى
عليه السلام أو قبله بقليل غزا افر يقية وأنحن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم
حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه
لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حيرفا قاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم
صنهاجة وكامة ومن هذا ذهب الطبري وأجر جاني والمسعودي وابن الكلبي
والبيهقي الى أن صنهاجة وكامة من حير وتاباه نسبة البربر وهو الصحيح (وذكر
المسعودي أيضاً) أن ذا الازعار من ملوكهم قبيل افر يقس وكان على عهد سليمان

الاغراب بكسر
الهمزة اهـ

عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلحاً كثر الرمل فرجع وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستاسف من ملوك القرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذر بيجان واتي الترك فهزمهم وأنخن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بني بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فلك الأول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأخذ في بلاد الصين ورجعاً جميعاً بالغنائم وتركوا بلاد الصين قبائل من جيرة فهم بها الى هذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبهه بأحاديث القصص الموضوعة * وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجيزة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهات فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقاً من غير السويس والممالك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر ممر حلتين فادونهما ويعد أن يمر بهذا الملك ملك عظيم في عسائكر موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا يمنع في العادة * وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو اسراييل الشام ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيئاً من تلك الاعمال وأيضاً فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمررون عليه ولا يكتفي ذلك للازودة والعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تقي لهم الرواحل بنقله فلا بد وان يمر في طريقهم كلها بأعمال قدم ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهم هؤلاء الامم من غير أن تمجهم فحصل لهم الميرة بالمسألة فذلك أبعد وأشد استناعاً فدل على أن هذه الاخبار واهية أو موضوعة (وأما) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكره من الغرابة تتوفر الدواعي على نقله * وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وان كانت طريقه أوسع من مسالك السويس الا أن الشقة

هنا أبعد وأهم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يماربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك بين ذي الازعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الاصغر أبو كرب ويستاسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاورة أرض فارس بالغزو والى بلاد الترك والتبت وهو يمنع عادة من أجل الامم المعترضة منهم والحاجة الى الازودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر في الاخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً في كفايتها وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر يثرب والاسوس والخزرج ان تبعاً آخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرّر فلا تثقن بما يلقي اليك من ذلك وتأمل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة بقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي الى الصواب

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما تناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون لقطة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لابن من مثلهما فبنى مدينة ارم في صحارى عدن في مدة ثمان مائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانهم امدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبري والنعالي والزحشر وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابه من الصحابة انه خرج في طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معاذ بن فاضله وقص عليه فبحث عن كعب الاخبار وسأله عن ذلك فقال هي ارم ذات العماد وسيد خلهار جل من المسلمين في زمانك أحرأشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابه فقال هذا والله ذلك الرجل * وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض وصحارى عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والادلاء تقص طريقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها درست في مدارس من الآثار لكان

أشبهه إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول أنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبية وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر من أعم كلها أشبه بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة ارم وجعلوا العماد على الاساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد ارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالا قاصيص الموضوعه التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المنحكات والافالعماد هي عماد الاخبية بل الخيام وان أريد بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيفت كما في قراءة ابن الزبير على اضافة القصص إلى القبيلة كما تقول قرش كانه والياس مضرور بيعة نزار وإي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لامثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها البعدها عن الصحة (ومن الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسية أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهم من معاقرنه اياهما النحر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسية تحببت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا في حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب وهيئات ذلك من منصب العباسية في دينها وأبوابها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظماء الملة من بعده * والعباسية بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريية عهدية يد اوة العروية وسداجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراقع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها لعربي بمولى من موالى العجم بملكة جدته من الفرس أو بولاء جدته من عمومة الرسول وأشرف قرش وغايته أن جذبت دولتهم بضيعه وضيع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الاشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الاعاجم على بعد همتهم وعظم آباءه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المصنف وقاس

العباسية بآبنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكروا بلج في تكذيبه وأين قدر العباسية والرشيد من الناس وانما انكسب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمر وأمراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكاتبه وقيادة وحجابه وسيف وقلم يقال انه كان يدار الرشيد من ولده يحيى بن خالد خذعة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يابا فتوجه إلى أبنار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبط الجاه عندهم وانصرف نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هذا ايا الملوك وتحف الامراء وسيرت إلى خرائثهم في سبيل الترف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء وطوقوهم المن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يدح به خليفتهم وأسئوا لعفائهم الجوائز والصلوات واستولوا على القرى والضباع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحققوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قطيبة اخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما قر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أو اصر القراية وقارن ذلك عند محمد ومهمن نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجز والانفة وكامن الحقود التي بعثت منهم صغار الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم إلى كبار المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزل الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره فحبسه مدة ثم حمله الدالة على تحلية سيده والاستبداد بجعل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه * وسأله الرشيد عنه لما وشى به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأمرها في نفسه فأوجد السيل بذلك على نفسه وقومه

حتى نزل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبادرهم وذهبت
سلاطهم مثل اللآثرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم
وجد ذلك محققا لآثارهم هذا الأسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد رب في مفاضة الرشيد
عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في
محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تفهم أنه إنما قتلهم للغيرة والمنافسة
في الاستبداد من الخليفة فن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه
للمغنين من الشعر احتياالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفاظهم لهم وهو قوله
ليت هذا أنجزنا ما تعد * وشفت أنفسنا عما نجد
واستبدت مرة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد
وأن الرشيد لما سمعها قال أي والله أني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كما من غيرته
وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال (وأما) ما توفه
به الحكاية من معاورة الرشيد النجر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما عانا عليه
من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة
وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السمال
والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بحكمة في طوافه وما
كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لا قول وقتها
(حكى) الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحج
عاما ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكة في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه
يقترأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فاعمالك الرشيد أن ضحك ثم
التفت اليه مغضبا وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا انك يا ابنك والقرآن والدين
ولك ماشئت بعدهما وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه
المتحليين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد من انما خلفه غلاما وقد كان
أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لما لك حين أشار
عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله أنه لم يبق علي وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد
شغلني الخلافة فضع أنت للناس كتابا يتفقهون به تجنب فيه رخص ابن عباس
وشدا أن ابن عمرو طمأن للناس بوطئة قال مالك فوالله لقد علي التصنيف يومئذ
ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت
المال ودخل عليه يوما وهو يجلسه يباشر الخياطين في ارتفاع الخلقان من ثياب عياله
فاستكف المهدي من ذلك وقال يا أمير المؤمنين علي كسوة العيال عامنا هذا من

عطائي فقال له لك ذلك ولم يصدمه عنه ولا سمح بالاتفاق من أموال المسلمين فكيف
يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتيه وما ربي عليه من أمثال هذه
السيرة في أهل بيته والتحاق بها أن يعاقر النجر أو يجاهرهم أو قد كانت حالة الاشراف
من العرب الجاهلية في اجتناب النجر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها
مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآبؤه كانوا على نهي من اجتناب المذمومات في دينهم
ودنياهم والتعلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبري
والمعويدي في قصة جبريل بن مجتيشوع الطيب حين أحضر له السمك في مأثنته
فحماء عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس
خادمه حتى عاينه يتناولها فاعتاد ابن مجتيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة
أقداح خلط أحداها بالحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب
على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خراصرقا وقال في الأول والثاني هذا طعام أمير
المؤمنين ان خلط السمك بغيره أو لم يخلطه وقال في الثالث هذا طعام ابن مجتيشوع
ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا اتته الرشيد وأحضره لتوزيع أحضر الثلاثة
الاقداح فوجد صاحب النجر قد اختلط وأما ما عرفت وتفتت ووجد الاخرين قد فسدا
وتغيرت رائحتهم فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب
النجر كانت معروفة عند بطائنه وأهل مأثنته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس
لما بلغه من انهم ما كفي في المعاورة حتى تاب وأقلع وانما كان الرشيد يشرب نبيذ
التمر على مذهب أهل العراق وقتاويهم فيها معروفة وأما النجر الصنف فلا سبيل
الى اتهامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يوقع محزما
من أكابر الكبار عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم عنجاجة من ارتكاب
السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متاعهم لما كانوا عليه من خشونة
البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فاطنك بما يخرج عن الإباحة الى الحظر
وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمعويدي وغيرهم على
أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس انما كانوا يركبون بالحلية
الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف والجمع والسروج وأن أول خليفة أحدث
الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان
حالهم أيضا في ملابسهم فاطنك بمشاربهم وتبين ذلك بأنهم من هذا اذا فهمت
طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الاول
ان شاء الله والله الهادي الى الصواب (ويناسب) هذا وقرب منه ما نقلوه كافة

عن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر المأمون الخرواته سكر ليله
مع شربه فدفن في الریحان حتى أفاق وينشدون على لسانه
ياسمدي وأسير الناس كلهم * قلبا في حكمه من كان يسقيني
اني غفلت عن الساقى فصيرني * كما تراني سليب العقل والدين
وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشراهم انما كان النيزد ولم يكن
محظورا عندهم وأما السكركليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة في
الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته
انه اتبته ذات ليله عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن
أكرم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعا فأين هذا من المعافرة وأيضا فان يحيى
ابن أكرم كان من عليّة أهل الحديث وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل
القاضي وخروج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزي الحافظ أن البخاري روى
عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما يثبته المجان بالليل الى الغلمان
بهم تاعلى الله وقرية على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصاص الواهية التي
لعلها من افتراء أعدائه فانه كان محسودا في كماله وخطته للسلطان وكان مقامه من
العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان
الله سبحان الله ومن يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا وأثنى عليه اسمعيل القاضي
فقبل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد وقال
أيضا يحيى بن أكرم أبرأ الى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرى به من أمر الغلمان
ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاية
وحسن خلق فرمى بما رمى به وذكره ابن حبان في الثقات وقال لا يشغل بما يحكي
عنه لان أكثرها لا يصح عنه (ومن أمثال هذه الحكايات) ما نقله ابن عبد ربه
صاحب العقد من حديث الزبيل في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بقة
بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زبيل مدلى من بعض
السطوح بمعالق وجدل مغارة القتل من الحرير فاقعده وتناول المعالق فاهتزت
وذهب به صعدا الى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشته وتضيده أبيته وجمال
رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأه برزت له من خلل الستور في ذلك
المجلس رائقة الجمال فتأناه المحاسن فحبه ودعته الى المصادمة فلم يرل يعاقرها الخرج حتى
الصباح ورجع الى أصحابه بكنائهم من انتظاره وقد شغفته حبابعته على الاصهار الى
أبيها وأبن هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقفا فانه سنن الخلفاء

الراشدين من آباءه وأخذهم بغير الخلفاء الاربعة أركان الملة ومفاظرة العلماء وحفظه
لحدود الله تعالى في صلاته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين
في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب وأين
ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدارأيها من الصون والعفاف
وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يبعث على وضعها
والحديث بها الانهال في اللذات المحرمة وهتك قناع المحذرات ويتعللون بالتأسي
بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهمجون بأشباه هذه الاخبار
ويتقرون عنها عند تصفحهم لاوراق الدواوين ولوا تنسوا بهم في غير هذا من
أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خير الهم لو كانوا يعلمون
ولقد عدلت يوما بعض الامراء من أبناء المولود في كانه بتعلم الغناء ولوعه بالآوتار
وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي
كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا
تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف تعد ذلك يا ابراهيم عن مناصبهم فقصم عن عدلى
وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الاخبار الواهية) ما يذهب اليه الكثير من
المؤرخين والاثبات في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نقيهم عن
أهل البيت صلوات الله عليهم والطن في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق
يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ترلقا اليهم
بالقدح فيمن ناصبهم وتقتنا في السمات بعدوهم حسبا نذكر بعض هذه الاحاديث
في أخبارهم ويغفلون عن التفتل لشواهد الواقعات وأدلة الاحوال التي اقتضت
خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبداء
دولة الشيعة ان أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكامة للرضي من آل محمد واشتهر خبره
وعلم تحويجه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيما على أنفسهم ما فهر يامن
المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زى التجار ونفى
خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرّح في طلبهما الخيالة حتى
إذا أدركا خفي حالهما على تابعيهما بما يسوا به من الشارة والري فأفقتوا الى المغرب
وأن المعتضد أعز الى الاغالبية أمر اء افر يقية بالقيروان وبني مدرار أمر اء سجالما سة
بأخذ الا فاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما فعترا اليسع صاحب سجالما سة
من آل مدرار على خفي مكانهما بباديه واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر
الشيعة على الاغالبية بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب

المستهتر بالشي
بالفسخ المولع به
لا يبالى بما فعل فيه
وشتم له والذي
كثرت ابا طية له اه
قاموس

واخر يقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والجزيرة فاسموا بنى العباس في
ممالك الاسلام حتى الابله وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد
أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الامير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء
بنى العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حول
كاملها وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون
بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في القسب يكذب في اتحال الامر
واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في اتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه
وظهر سر يعا على خبثهم ومكرهم فسامت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر
العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم
فقد اتصلت دولتهم فحوام من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه السلام
ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجج ومهبط الملائكة ثم
انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب
فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا من ارا بعد
ذهاب الدولة ودرس أثر هاداعين الى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم
يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم بالوصية عن سلف قباهم من الأئمة
ولوارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الاخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة
لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يتكلمه (والعجب) من القاضي
أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين ينجح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى
هذا الرأي الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الاحاد في الدين والتعمق في
الرافضة فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس اثبات منتسبهم بالدي يغني عنهم من
الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه انه ليس من أهلك
انه عمل غير صالح فلانسان ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها
يا فاطمة اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئا ومتى عرف امر وقضية أو استيقن أمرا
وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال
الظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم
وتكرار خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون
كأقبل

قلون سأل الايام ما سمي مادرت * وأين مكاني ما عرفني مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالملكوت سمته بذلك شيعتهم
لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرهم من المتغلبين عليهم فتوصل شيعته بنى العباس بذلك
عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القاتل للمستضعفين من
خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لجروبهم مع الاعداء يدفعون
به عن أنفسهم وسلطانهم معزة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر
والجزيرة من البربر الكافرين شيعته العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضية
ببغداد بنفهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم
الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الاسفرايني
والقدوري والصيمري وابن الاكفاني والايوردي وأبو عبيد الله بن التعمان
فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الامة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة
في أيام القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس
ببغداد وغالب شيعته بنى العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما
سمعوه ورووه حسب ما عووه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى
ابن الاغلب بالقبروان وابن مدرار بسجل ماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة
نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم
تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلقس فيه ضوال الحكم وتحدي اليه وكاتب
الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل
والافن والسففة وسلكت النهج الامم ولم تجر عن قعد السبيل نفق في سوقها الا برين
الخالص واللين المصنفي وان ذهبت مع الاغراس والحقود وماجت بسعاسة البغي
والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحنه وملتصه
(ومثل هذا) وأبعد منه كثيرا ما يتباحى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد
الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد أبيه
بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحديا لتظن في الجمل الخلف عن ادريس الا كبر
أنه لا راد مولاهم فحجهم الله وأبعدهم ما أجهلهم أما يعلمون أن ادريس الاكبر كان
أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب الى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو
وأن حال البلدية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكان لهم يتأق فيها الريب وأحوال
جرمهم أجمعين عراى من جاراتهم وسمع من جيرانهم لتلاصق الجدران وتطامن
البنيان وعدم القواصل بين المساكن وقد كان راشديتولى خدمة الحرم أجمع من
بعد مولاهم بمشهد من أولياؤهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب

قوله ولم تجر عن قعد السبيل
الجيم مضارع جار
أي لم تغل اه

الاقصى عادة على بيعة ادريس الاصغر من بعده وآتوه طاعتهم عن رضا واضفاق
وبايعوه على الموت الاخر وخاضوا دونه بحجار المنيا في سربه وغزواته ولو حدثوا
أنفسهم على هذه الرية أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق من تاب لتخلف
عن ذلك ولو بعضهم كلاً والله انما صدرت هذه الكلمات من بنى العباس أقتالهم
ومن بنى الاغلب عمالهم كانوا بافر بقية وولاتهم وذلك انه لما قرأ ادريس الاكبر الى
المغرب من وقعة مج أو عز الهادي الى الاغلبية أن يقعدوا له بالمرصاد ويذكوا عليه
العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من
بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاد لهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع
للعلوية وادهاه في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى المهدي
أييه للتخيل على قتل ادريس فأظهر اللعاق به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل
عليه ادريس وخلطه بنفسه وناول الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه ووقع
خبر مهلكه من بنى العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية
بالمغرب واقتلاع جرتومتها ولما نادى اليهم خبر الحبل الخلف لادريس فلم يكن لهم
الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن
ادريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكي من وقع السهام وكان الفشل والهزم
قد نزل بدولة الغرب عن أن يسموا الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس
الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيل في اهلا كه بالسموم
فعند ذلك فرغوا الى أوليائهم من الاغلبية بافر بقية في ستة تلك الفرقة من ناحيتهم
وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم
يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الاغلبية عن برابرة المغرب
الاقصى أعجز ولعلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتراء
ممالك العجم على سدةها واستطاعتهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها
ظوع أغراضهم في رجاها وجبايتها وأهل خطتها وسائر تقضها وبراها كما قال
شاعرهم

خليفة في نقص * بين وصيف وبغا

يقول ما قاله * كما تقول البيغا

نفتى هؤلاء الامراء الاغلبية بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب
وأهله وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقاب
يخاطبونهم بتجاوزه حدود النجوم من عمله ويقذون سكرته في تحفهم وهداياهم

ومرتفع

ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحالته وهويلا باشتداد شوكرته وتعظيما للمادة فوالله
من مطالبته وممراسه وتهديدا بقلب الدعوة أن ألقوا اليه وطورا يبطعون في نسب
ادريس على ذلك الطعن الكاذب تحقضا لشأنه لا يالون بصدقه من كذبه لبعده
المسافة وأفن عقول من خلف من صبية بنى العباس ومماليكهم العجم في القبول من
كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا أدبهم حتى انقضى أمر الاغلبية فقرعت هذه
الكلمة الشنعاء أسماع لغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أنه واعتد هذا ربيعة الى
النيل من خلفهم عند المناقصة ومالهم فجههم الله والعدول عن مقاصد الشريعة
فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش أييه والولد للفراش
على أن تنزبه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فآله سبحانه قد أذهب
عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الذنس ومنزه عن الرجس
بحكم القرآن ومن اعتد خلاف هذا فقد باء بائعه وولج الكفر من بابه وانما أطنبت في
هذا الرقعة الابواب الرب ودفعنا في صدر الحاسد لما سمعته اذ نأى من قائله المعتدى
عليهم به القادح في نسبهم بفرية وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب عن انخرف
عن أهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والافالح منزعة عن ذلك معصوم منه وفي
العيب حيث يستحيل العيب عيب لى كنى جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو
أن يجادلوا عن يوم القيامة (ولتعلم) أن أكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة
لا عقاب ادريس هذا من منتم الى أهل البيت أدخل فيهم فان ادعاء هذا النسب
الكريم دعوى شرف عريض على الامم والاجيال من أهل الآفاق فتعرض التهمة
فيه ولما كان نسب بنى ادريس هؤلاء بمواطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ
من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه اذ هو نقل الامة
والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدتهم ادريس محط فاس
ومؤسسها بين يوتهم ومسجده لصق محلتهم ودرجهم وسيفه منتضى برأس المأذنة
العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر
مرات وكادت تلحق بالعيان فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من
أمثالها وما عذ شرفهم النبوى من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن
أنه بعزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مدأ حدتهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المنتمين الى البيت
الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون
في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص
بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند أنفسهم

فيرجعون الى العناد وارتكاب الجراح والبهت بمثل هذا الطعن القائل والقول
 المتكذب تغللا بالمساواة في الظنة والمساوية في طرق الاحتمال وهيئات لهم ذلك
 فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه
 ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبرائهم لهذا العهد
 بنو عمران بن قاس من ولد يحيى الحوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن ادريس
 ابن ادريس وهم نقباء أهل البيت هنالك والساكنون بيت جدتهم ادريس ولهم
 السيادة على أهل المغرب كافة حسبانهم عند ذكر الادارة ان شاء الله تعالى
 (ولحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب القائلة ما يتناولها ضعفه الرأي من فقهاء
 المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة
 والتلبس فيما ناه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم
 لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من اتسابه في أهل البيت
 وانما جعل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا
 من أنفسهم مناهضة في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتار عنهم بأنه متبعوع الرأي
 مسموع القول موطأ العقب نفوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه
 والتكذيب لمدعياته وأيضاف كانوا يؤنسونه من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن
 لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة واتحال الديانة فكان لجملة العلم بدولتهم
 مكان من الوجاعة والاتصاف للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا
 بذلك شيعه لهم وحر بالعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتربس
 عليهم والمناسبة لهم تشيعا لادعائه وتعمد الدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله
 عني غير معتداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف
 اجتهاده فقهاءهم فنادى في قومه ودعا الى جهادهم بهذه فاقبلت الدولة من أصولها
 وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية وتساقت
 في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها الا خلقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم
 من الهلكة وتقرّبوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب
 لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من
 التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على
 شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد الذي رجمت به النفوس وتخادع عن
 غيبه فليت شعري ما الذي قصده بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من
 الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله

التي قد خلت في عبادته (وأما) انكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع
 انه ان ثبت أنه اقدم راتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس مصدقون
 في أنفسهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح
 حجابا في الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قدر رأس سائر المضامدة ودانوا
 باتباعه والانقياد اليه والى عصايته من هرقة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا
 النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وانما كان
 اتباعهم له بعصية الهرقية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك
 النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم
 فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره
 الانتساب الاول في عصيته اذ هو مجهول عند أهل العصاية ومثل هذا واقع كثيرا اذ
 كان النسب الاول خفيا (وانظر) قصة عرفة وجرير في رياسة بجيلة وكيف كان
 عرفة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضي الله عنه
 كما هو مذكور فتفهم منه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن نخرج عن
 غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين
 الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكفاية من
 ضعفه النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية
 واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتسكا وعده
 من مناحي العامة فاذا احتاج صاحب هذا الفن الى تعلم قواعد السياسة وطبائع
 الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل
 والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب
 من الوفاق أو يوبن ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على
 أصول الدول والممل والمبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال
 لقائهم بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصول كل
 خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها
 وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا ريفه واستغنى عنه وما استكبر القديما علم
 التاريخ الا لذلك حتى اتجمله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما وأمثالهم من
 علماء الامم وقد ذهل الكثير عن هذا السرفيه حتى صار اتجمله مجمله واستحق
 العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه
 فاخطلط المرعى بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور

(ومن الغلط) الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال
بتبدل الأعصار ومرار الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب
متطاولة فلا يكاد يتقطن له الا الاحاد من أهل الخليفة (وذلك) ان أحوال العالم
والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف
على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات
والامصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد دخلت
في عبادته وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسرانيون والتبط والتبابعة
وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياساتهم
وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال
اعتمادهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب
فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها ويشابهها والى ما يلائمها
أو يباينها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فأنقلبت تلك الأحوال أجمع انقلاباً أخرى
وصارت الى ما أكثر متعارف لهذا العهد ياخذ الخلف عن السلف ثم درست
دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار
الامر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالشرق والبربر بالمغرب والفرنجية بالشمال
فذهبت بندها بهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها واغفل أمرها (والسبب)
الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال
في الأمثال الحكيمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على
الدولة والامر فلا بد وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم وبأخذوا الكثير منها
ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل
الاول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومنزجت من عوائدهم وعوائد خالفت
أيضا بعض الشيء وكانت الاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى
ينتهي الى المباينة بالجملة فمادت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان
لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة
معروفة ومن الغلط غير ما مونة تخبر به مع الذهول والغفلة عن قصده وتغويج به عن
مراهه فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتقطن لما وقع من تغير
الأحوال وانقلابها فيجربها الاول وهلة على ما عرف ويقسمها بما شهد وقد يكون
الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط (في هذا الباب) ما يثقله المؤرخون
من أحوال الججاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع

الجذم الاصل
قاموس

المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم المستضعف مسكين منقطع الجذم
فيستوفى الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية الى نيل الرتب التي
ليسوا لها بأهل ويعتدون بها من الممكات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع
حبها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم
وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك
ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعلماً لما جهل من
الدين على جهة البلاغ فكان أهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالله هم الذين
يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه
التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هداياتهم والاسلام دينهم
قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرمون على تبليغ ذلك
وتفهيمه للأمة لاتصدهم عنه لائحة الكبر ولا يزعمهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث
النبي صلى الله عليه وسلم كباراً أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به
من شرائع الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام
وروي عروق الله حتى تناولها الامم البعيدة من أيدي أهلها واستألت بمرور الأيام
أحوالها وكثرت استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها
فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فأصبح من
جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية
بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش
وشغلت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص اتحاله
بالمستضعفين وصار من جملة محقرات عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان
أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في
الشرف ما علمت ولم يكن تعليم القرآن على ما هو الامر عليه لهذا العهد من أنه حرفة
للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام (ومن هذا الباب)
أيضا ما يتوهمه المتصفحون لكسب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه
من الرياسة في الحروب وقود العاص كزفتراحي بهم وساوس الهيم الى مثل تلك
الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل
ويظنون بأن أي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف
بشميلية اذا سمعوا أن أباهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتقطنون لما
وقع في رتبة القضاة من مخالفة العوائد كما بينته في فصل القضاء من الكتاب الاول

وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القاطنين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل
عصيتهم وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن يلبسهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء
كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء في الامر القديم لاهل العصية من قبيل الدولة
ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف
وتقليدهم عظام الامور التي لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصية فيغلط السامع في
ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي وأكثرا يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من
أهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب
ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصيات من البربر بقيت أنسابهم العربية
محفوفة والذريعة الى العزم بالعصية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا
المتخاذلين الذين تعبدتهم القهرو ورغوا للمذلة يحسبون ان أنسابهم مع مخالطة الدولة
هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين
لذلك ساعين في نيله فأما من باشر أحوال القبائل والعصية ودولهم بالعدوة الغربية
وكيف يكون التغلب بين الامم والعشائر فقلما يغلبون في ذلك ويخطئون في اعتباره
(ومن هذا الباب) أيضا ما ينسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكر
اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد
لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون
تواريخهم لاهل الدولة وأبناؤهم امتدقون في سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقفوا
آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط
والمراتب لآبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصية الدولة وفي
عداد الوزراء كما ذكرناه فيحتاجون الى ذلك كذكر ذلك كله وأما حين تبانت الدول
وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول
بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يباغضها من الامم أو يقصر عنها في الفائدة
للمصنف في هذا العهد في ذكر الآباء والنساء ونسب الخاتم واللقب والقاضي والوزير
والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما جعلهم على
ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين والذهول عن تحرى الاغراض
من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم
كالخارج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوح وكافور الاخشيدى وابن أبي عامر
وأما الهم فغير نكير الاماع بآبائهم والاشارة الى أحوالهم لا يتظامهم في عداد الملوك
(ولند ذكر) هنا قاعدة نختتم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ انما هو ذكر

الاخبار الخاصة بعصر أو جيل (فاما) ذكر الاحوال العامة للاتفاق والاجيال
والاعصار فهو أس للمؤرخ تبني عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس
يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الامم
والافاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم
ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار
امام للمؤرخين يرجعون اليه وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم
عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها
من الاحوال لان الامم والاجيال لعهد لم يقع فيها كثيرا انتقال ولا عظيم تغير وأما هذا
العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهده وتبدلت
بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهل على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة
من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم واتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيها
بقي من البلدان ملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة
الثامنة من الطاعون الجارف الذي تخيف الامم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من
محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلغ الغاية من مداها فقلص
من ظلالها وقل من حدها وأهين من سلطانها وتداغت الى التلاشي والاضمحلال
أحوالها وانقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست
السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن
وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالتحول والانتقاض فبادر بالاجابة والله وارث
الارض ومن عليها واذ تبدلت الاحوال جملة فكانت تبدل الخلق من أصله وتحول
العالم بأسره وكان له خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من
يدون أحوال الخليفة والاتفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفوا
مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده
(وأنا ذا كر في كتابي) هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا أو مندرجا في
أخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذكر
ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه وان
الاخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك بعد رحلته
وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل
ذي علم عليه وحذر العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن

=العصية بمعنى قوم
الرجل الذين
يتعصبون له ولو
من غير أقاربه
فلما كان أو
مطلوما وفي
القتاوى الحربية
من موانع قبول
الشهادة العصية
وهي أن ينقض
الرجل الرجل لانه
من بني فلان أو
من قبيلة كذا
والوجه في ذلك
ظاهر وهو ان كتاب
الحجزم في الحديث
ليس منا من دعا
الى عصية وهو
موجب للفسق
ولاشهادة لم تركه
قاله الاستاذ أبو
الوفاء اهـ معجزة

العصية بفتح
التعصب وهو أن
يذب الرجل عن
حريم صاحبه
ويشمر عن ساق
الجد في نصره
منسوبة الى
العصبة محركة وهم
أقارب الرجل من
قبل أبيه لانهم هم
الذابون عن حريم
من هو منها هم
وهي بهذا المعنى
ممدوحة وأما
العصية المذمومة
في حديث الجامع
الصغير ليس منا
من دعا الى عصية
وليس منا من
قاتل على عصية
وليس منا من مات
على عصية فهي
تعصب رجال
لقبيلة على رجال
قبيلة اخرى لغير
ديانة كما كان يقع
من قيام سعد على
حرام نسبة الى =

كان الله في عونه تسيرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب (ونحن)
أخذون بعون الله فيما رماه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان
(وقد) بقى علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات
العرب إذا عرضت في كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد
هي كيفية الاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة
وأطراف اللسان مع الحنك والخلق والاذراس أو بقرع الشفتين أيضا فتغير
كيفية الاصوات بتغير ذلك القرع وتجي الحروف متميزة في السمع وتتركب
منها الكلمات الدالة على ما في الضمان وليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك
الحروف فقد يكون لامة من الحروف ليس لامة أخرى والحروف التي نطق بها
العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا وفي
لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من
العجم ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطالحوا في الدلالة على حروفهم المجموعة بأوضاع
حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر
الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقى مهملًا عن
الدلالة الكتابية مفضلًا عن البيان وربما رسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي
يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للجرف من أصله
(ولما) كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم
أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابنا ولا اصطلاح أو ضاعنا اضطررنا الى بيانها
ولم نكتب برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غرواف بالدلالة عليه
فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بمائيل على الحرفين اللذين
يكشفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذين الحرفين فيحصل تأديته وانما
اقتبس ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاثمام كالصراط في قراءة خلف فان
النطق بصاد فيه العجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد وسموا في داخلها
شكل الزاي ودل ذلك عندهم على المتوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل
حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسط عند البربر بين الكاف
الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم الكين فأضعها كافا وأقطعها بنقطة الجيم
واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو بفتحة فيدل ذلك على أنه متوسط
بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من
غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين مع العلم

القاري أنه متوسط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف
الواحد عن جانيه لكافا لضرر قناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا
لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بعنه وفضله

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخلقة وما تعرض فيه من البعد والمخبر والتغلب
والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران
العالم وما تعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنيش
والعصيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك
والدول وممراتها وما يتكلمه البشر باعمالهم ومساعيمهم من الكسب والمعاش
والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (ولما كان)
الكذب من طرق الخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ففهم التشيعات والآراء والمذاهب
فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التحصيل
والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأى أو تخلف قبلت ما يوافقها
من الاخبار لا قول وهله وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن
الاتقاد والتحصيل فتقع في قبول الكذب ونقله (ومن الاسباب) المقتضية للكذب
في الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتحميص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها)
الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على
ما في ظنه وتحمينه فيقع في الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما
يجيء في الاكتر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على
الوقائع لاجل ما بداخلها من التلبس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على
غير الحق في نفسه (ومنها) تقرب الناس في الاكتر لاصحاب التهمة والراتب
بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بهما على غير
حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه
أو ثروة وليسوا في الاكتر راغبين في الفضائل ولا متناسفين في أهلهما (ومن الاسباب)
المقتضية له أيضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران
فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما
يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في
الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تحصيل الخبر على غير الصدق من الكذب وهذا

أبلغ في التجميع من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وعاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان فقرت تلك الدواب حين خرجت وعمايتها وتم له بناءؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأما وجه مجرعه ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفسهم على مثل هذا الغرور ومن اعتمد منهم فقد عرّض نفسه للهلكة واتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفه عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لأنه حقيقة (وهذه) كلها فادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو ان المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيّق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة تغلبه فينقصد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات اذا اُطبقت عليهم عن الهواء البارد والتدليل في الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تدخلها الرياح فتخلطها فان المتدلى فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رتبه اذ هو حار بافراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولى الحار على ووجه الحيوان ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المستحيلة ما نقله المسعودي أيضا في شمال الرز ووالذي برومة تجتمع اليه الرزازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظروا ما بعد ذلك عن المجري الطبيعي في اتخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتغل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضا في حديث مدينة النحاس وانما مدينة كل بناءها نحاس بحجارة مجلدة ماسة نظيرها موسى بن نصير في غزوة الى المغرب وانما معلقة الابواب وان الصاعد اليها من أسوارها اذا أشرف على الخائط صفق ورعى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصص وصحرا عجا ماسة قد نقصها

الخبر في بالضم اثبات البيت اه فاموس

الركاب والادلاء ولم يقفوا هذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التي ذكرنا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخيرى وأما تشييد مدينة منها فكأثر من الاستحالة والمبعد وأمثال ذلك كثير وتجميعه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تجميع الاخبار وتغيير صدقها من كذبها وهو سابق على التجميع بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن أو متمنع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله أن يؤول بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعترف في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط (وأما الاخبار) عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن يتطرق في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون في تميز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن تتطرق في الاجتماع البشري الذي هو العمران وغير ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له واذا قلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تميز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا (واعلم) ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أغثر عليه البحث وأدى اليه القروص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استئالة الجمهور الى رأي أو صدقهم عنه ولا هو أياض من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين

ربما يشبهانه وكأنه علم مستتبب النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في مناهه لاحد من الخليفة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أولعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل اليها العلوم كثيرة والحكمة في أمم النوع الانساني متعددون ومالم يصل اليها من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها وتساخها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل اليها علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف على شيء من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعلقة بطبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه العلم الحكمة لتعلم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا الغرض في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائل في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحح الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجره والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاح اننا نظرق فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائل بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبين عبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المقضى لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلة (وكذلك) أيضا يقع البناء القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة لكنهم لم يستوفوه (فن كلام) المؤيدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ونصبه الرب وجعل له قوما وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بغية الملك بالجنود والجنود بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال

واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل باقية اذ الملك حال رعيته بنفسه واقداره على تأديتها حتى يحكمها ولا تخلفه (وفي الكتاب) المنسوب لارسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه الا أنه غير مستوفي ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن المؤيدان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريسة التي أعظم القول فيها وهو قوله العالم بستان سياحه الدولة الدولة سلطان تحياه السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمععه الرعية الرعية عبيد يكفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع الى أول الكلام فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها على صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها غير بعثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثناءه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفي بينا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة مؤيدان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه انما يحلها في الذكر على منحنى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوتم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة انما يقرب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار في نقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والمؤيدان وحكماء الهند والمؤيدان عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكار الخليفة ولا يستكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواظع وكاله حوتم على الغرض ولم يصادف ولا يحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهامنا وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهيته خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاء فتوفيق من الله وهداية وان فاتني شيء في احصائه واشتمت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لاني نهجت له السبيل وأوضحته الطريق والله يهدي بنوره من يشاء (ونحن) الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع

بها الاوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان متميزا عن سائر الحيوانات
بخواص اختص بها اخفاها العلوم والصناعات التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن
الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان
القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النمل
والجراد وهذه وان كان لهما مثل ذلك فبطريق الهامى لا يفكر وروية ومنها السعي
في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من
الاقتدار الى الغذاء في حياته وبقائه وهذا الى التماسه وطلبه قال تعالى أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للانس
بالعشيرة واقضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه ومن هذا
العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة
في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن
والمدائر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال أمور تعرض
من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلا جرم ان نحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة
فصول (الاول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض
(والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية (والثالث) في
الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (الرابع) في العمران الحضري
والبلدان والامصار (والخامس) في الصناعات والمعاش والكسب ووجوهه
(والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها (وقد) قدمت العمران البدوي لانه
سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقدم الملك على البلدان والامصار وأما تقديم
المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمال أو حاجي والطبيعي أقدم
من الكمال وجعلت الصناعات مع الكسب لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث
العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه

(الفصل الاول من الكتاب الاول)

(في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات)

(الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكاء عن هذا بقولهم الانسان
مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى
العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان ورأسه على صورة لا يصح حيايتها
وبقاؤها الا بالغذاء وهذا الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله

الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له
بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلا فلا
يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة
يحتاج الى مواعين والآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفخوري
هب أنه يأكله جبان غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله أيضا جبا الى أعمال أخرى
أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل
ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصناعات كثيرة أكثر من الاولى بكثير
ويستحيل أن توفي بذلك كله أو يعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر
الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من
الحاجة لا أكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه
الى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم
القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان
فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة
الاسد والذئب أضعاف من قدرته ولما كان العدو ان طبيعيا في الحيوان جعل
لكل واحد منها عضوا يختص بدفاعته ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان
عوضا من ذلك كله الفم كرو اليد فاليد مهيأة للصناعات بخدمة الفكر والصناعات
تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المععدة في سائر الحيوانات للدفاع
مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النابتة عن المخالب الجارحة
والتراس النابتة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب
منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم
سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تنفي قدرته أيضا باستعمال الآلات
المعدة للمدافعة لكثرة الصناعات والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من
التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم
حياته لما ركب الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا
دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن
مدى حياته ويبتل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح
للمدافعة وقت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع
الانساني والالم يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم
وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات

للموضوع في قته الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما
تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس
أيضا من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضلته ثم إن
هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناهم وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع
بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي
جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها
موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من
غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهامة فيكون ذلك الوازع واحدا
منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان
وهذا هو معنى الملك وقد بين لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها
وقد يوحى في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما
استقرى فيها من الحكم والانتقاد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه
وجسمانه الآن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة
والساسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث
يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة بطبيعة الانسان فيقررون هذا
البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم
يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا
عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم
الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير رهاية كما تراها إذا
الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي
يقتدر بها على قهرهم وجلهم على جأته فأهل الكتاب والمبعوثون للانبياء قليلون
بالنسبة إلى الجيوش الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت
لهم الدول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة
في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانه يتبع
وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وإنما مدركه الشرع
كما هو مذهب السلف من الأمة والله ولي التوفيق والهداية

(المقدمة الثانية)

(في قسط العمران من الارض والمناظر إلى بعض ما في من الاشجار والانهار والاقاليم)

(اعلم)

(اعلم) أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الارض
كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كلها غنية طافية عليه فأنحسر الماء عن بعض جوانبها
لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة
على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الارض وليس بصحيح وإنما تحت
الطبيعي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل
وما عد ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الارض وإن قيل في شيء منها
انه تحت الارض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه وأما الذي انحسر عنه الماء من
الارض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع
جهات البحر يسمى البحر المحيط ويسمى أيضا بالسلاية بتفخيم اللام الثانية ويسمى
أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الاخضر والاسود ثم إن هذا المنكشف
من الارض للعمارة فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانها والخال من جهة الجنوب
منها أكثر من جهة الشمال وإنما المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالي على
شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى
خط كروي ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سديا جوج
وما جوج وهذا الجبال مائلة إلى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب إلى
عنصر الماء أيضا قطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا
هو مقدار النصف من الكرة وأقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم
بالأقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب إلى المشرق
وهو طول الارض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار
أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة والدرجة من
مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال
لأن الميل أربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعًا والأصبع ست حبات
شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهرا لبطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم
الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون
درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة
والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء
كلها لشدة الحر كما بين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم إن الخبرين عن هذا المعمور
وحيدوده وما فيه من الامصار والمدن والجبال والبحار والانهار والقفار والرمال
مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجارج من بعده قسموا هذا المعمور

بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بمقدود وهمة بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالأقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحناء الماء من كوة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه (وذكرنا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الأقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضيق في عرض اثني عشر ميلاً ونحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينقسم إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقاليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم إفريقية ثم قرقة إلى الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجية ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل إفريطس وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما سميت بالقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضيقاً في عرض مائة السهم ويمر ثلاثة بحار في متصل بالقسطنطينية ثم ينقسم في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمتد بحر ينطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمتد بأرض هريقلية وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أهم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل المنحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد انكلية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أهم ويسمى خليج البنادقة (قالوا) وينحرف من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق على ثلاث عشرة درجة في الشعاع من خط الاستواء بحراً عظيماً متسع يمتد إلى الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الأقليم الأول ثم يمر قسماً مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر

الذين هم قبائل المغرب ثم بلاد مقدشون ثم بلاد سفالة وأرض الواق واق وأهم آخريس بعدهم إلا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزيد وغيرهما ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران (أحدهما) يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضيقاً ثم يمر مستجراً إلى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الأقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وبقية ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسميت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبله من سواحل البصرة في الجزء السادس من الأقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبله عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كما أنها دخلت من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وایوان كسرى والحيرة ووراء ذلك أهم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحلها على البحر الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا (قالوا) وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فأما النيل) فيبداً من

جبل عظيم وراء خط الاستواء بـت عشرة درجات على سمت الجزء الرابع من الاقليم
الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الارض جبل أعلى منه يخرج منه عيون كثيرة
فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم يخرج أنهار من البحيرتين فتصب
كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج من
هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمت ويمر ببلاد النوبة
ثم بلاد مصر فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب
كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه
والواحات من غربيته ويذهب الآخر منعطفًا إلى المغرب ثم يمر على سمت إلى أن يصب
في البحر المحيط وهو نهر السودان وأسمهم كلهم على ضفتيه (وأما الفرات) فيدور من
بلاد أرمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوبًا في أرض الروم
ومطية إلى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقعة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين
البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحبشي وتجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة
ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة (وأما دجلة) فيسودها عين ببلاد
خياط من أرمينية أيضا وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى
واسط فتتفرق إلى خيطان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي إلى بحر فارس وهو في
الشرق على عين الفرات وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين
الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوى الفرات وقبالة
أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فيسود من بلخ في الجزء الثامن
من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجلب إليه أنهار عظام ويذهب من
الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن
من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في
مثله واليه يصب نهر قرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون
بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمز وسمرقند ومن هنالك إلى
ما وراء بلاد الترك وقرغانة والخزلية وأهم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه
والشريف في كتاب زجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال
والبحار والودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لشأبه لطوله ولأن عنايتنا في الأكثر
انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر والاطنان التي للعرب من المشرق والله الموفق

تكملة هذه المقدمة الثانية

(في أن الربع الشمالي من الأرض أكبر من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك)

وهو

ونحن نرى بالمشاهدة والاختبار المتواترة أن الأول والثاني من الاقليم المعمورة أقل
عمرًا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيقتضيه الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي
الذي في الشرق منهما وأما هذين الاقليمين وأناسيهما ليست لهما الكثرة البالغة
وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقارون فيهما قليلة
والرمال كذلك أو معدومة وأما أناسيهما تجوزا لخدمته الكثرة وأمصاره ومدنها
تجاوزا لخدمته والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله
وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لا فراط الحز وقله ميل الشمس فيها عن سمت
الرؤس فلتوضح ذلك ببرهانه ويبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع
من جانب الشمال إلى الخامس والسابع (فقول) أن قطبي القلوك الجنوبي والشمالي
إذا كانا على الافق فهناك دائرة عظيمة تقسم القلوك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من
المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد بين في موضعه من الهيئة أن القلوك
الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية يتحرك بها سائر الافلاك التي فيها جوفه
قهر وهذه الحركة محسوسة وكذلك بين أن الكواكب في أفلاكها حركة مخالفة
لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق ويختلف مؤداها باختلاف حركة الكواكب
في السرعة والبطء وعمرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من
القلوك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة قلك البروج منقسمة بأربع عشر برجا وهي على
ماتين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما
أول الحمل وأول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل
النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة ونصف مائل عنه إلى الجنوب
وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت وإذا وقع القطبان على الافق في جميع نواحي
الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسمت دائرة معدل النهار يمر من المغرب
إلى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الاقليم
الاول من الاقليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي
يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة
وهناك يتقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع وإذا ارتفع على الافق تسعين
درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت
دائرة معدل النهار على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الافق وهي الشمالية
وسبعة تحت الافق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين
ممتلئة لأن الحز والبرد حينئذ لا يحصلان مما ترجح بعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين

خلد

فاذا الشمس تسامت الرأس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامته الى رأس السرطان ورأس الجدى ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالي عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرأس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرأس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الافق كذلك الى رأس الجدى لانحرافها الى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرأس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الجواز وما يليه وهذا هو الميل الذي اذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامياً فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامته ولا تزال في الانخفاض الى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامته كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الافق مثلاً فينبطع التكوين لافراط البرد والجد وطول زمانه غير معتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامته وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامته على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامته وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين * ثم ان المسامته في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صعدت الى المسامته فتبقى الاشعة القائمة الزوايا تلج على ذلك الافق ويطول مكثها ويديم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق في ذلك بقرب من الجاحها في خط الاستواء وافرط الحري فعل في الهواء تجفيفاً ويساكن من التكوين لانه اذا فرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات اذا التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرأس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامته فصير الحر الى الاعتدال أو تميل عنه قليلاً فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى أن يفرط

البرد في شدته لقله الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الآن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر أرفع تأثيراً في التجفيف من تأثير البرد في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلاً وفي الثالث والرابع والخامس متوسطاً لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثير النقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تجفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم * ومن هنا أخذ الحكماء خلاصة خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معصور بالمساهدة والاعتماد المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية انما أداهم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو ممكن أقل وهو كذلك فان خط الاستواء والذي وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً (وقد زعم) ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي تغمر وجه الارض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لان العمران متدرج ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فبرده النقل المتواتر والله أعلم * ولترسم بعده هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجارتهم ناخذ في تفصيل الكلام عليها الخ

﴿تقسيم العالم على هذه الجغرافيا﴾

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليماً فانقسم المعمور من الارض كله على هذه السبعة الاقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله * فالاول منها ما در من المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بحد من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان سميت فهي كلاعماره ويليها من جهة شمالية الاقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط

كلحال فيما وراء الاقليم الاول في جهة الجنوب الا ان الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب * ثم ان ازمة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها في تفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم الاول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصغرى الى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشوى برأس الجدي ويبقى للاقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دوة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك ينقطع العمل ان فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الأطول من ليالها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد * وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن افق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل * والمتمكمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طولها من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادويسي الجودي ملك صقلية من الافرنج وهو زجاري بن زجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من امارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتابا للمسعودي وابن خرداذبة والحواري والقدرى وابن اسحق النخعي وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا عنه وفضله

(الاقليم الاول) وفيه من جهة غربه الجزائر والاندلس التي منها بدأ بطليموس

بأخذ أطوال البلاد وليست في بساط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائريهم وأنهم يحتقرون الارض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وما شئتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم المجدود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينها ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهاجها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في حوزة ذلك المهبط واذا اختلف المهبط وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوزة به القلع محاذة بحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواية والملاحين الذي هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفا في البحر الرومي وفي عدونه مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وعمراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جوه هذا البحر وعلى سطح مائه من الابحرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها * وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الاتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اوليك وعلى هذا النيل مدينة سلاوة وكرور وعانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالى من امم السودان والى بلادهم تسافر تجارا المغرب الاقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد ملتونة وسائر طوائف الملثمين ومقاويز يجولون فيها وفي جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لم وهم كفار ويكتنون في وجوههم وأصداعهم وأهل غانة والتكروور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا أناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفياق والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربعايا كل بعضهم بعضا وليسوا في عداا البشر وقواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدراين ووركلان

فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة تقوم من العلويين يعرفون ببنى صالح وقال صاحب كتاب زجاراته صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هناك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني * وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في ملكه وخربت لهذا العهد من أجل قسنة وقعت هناك كرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من احم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال * ويخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قر السعالة لشدته بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشرق لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينها ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بضيعة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمايط ويصب واحد في بحيرة ملحمة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول * وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاد في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهي يبعد مهابم ولا فلاح يمكن أن تسلك المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة والواحات في غربها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة * وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس من بلاد الحبشة على وادي أبي من

وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وطلحيوس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل * والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي ممتدة يقال تنتهي الى ألب جزيرة أو فيما على سواحل الجنوب وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحل من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الا اول الاطراف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن * وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما ذكره في الاقليم الثاني وما بعده فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه قبل ذلك من أطراف بلاد الحبشة ومجالات الجبة في شمال الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد ذراع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هناك بزاوية جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي تمتد مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وبقا لته من غربيه بمجالات البحر من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحل بلد على بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلاد ذراع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قري بربر يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليهما هناك من جهة شرقها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحل الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرقي بلاد سفالة من ساحل الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط * وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة * ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة كثيرا الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويخفف بها في هذا البحر من جنوبها جزائر الواق واق ومن شرقها جزائر السيلان الى جزائر

البحيرة بضم الباء
وفتح الجيم ويقال
أيضا البحارة وأما
زراع فهي زبلع اه

آخر في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرّد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعدّدون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها في جهة بحر القلزم بلديسد والمهمج وتهامة اليمن وبعدها بلاد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدها إلى المشرق أرض الاحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس * وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خاتكو وقبالتان من جهة الشرق جزائر سيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بحنه وفضله

(الاقليم الثاني) * وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاهلي منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الاسفل منهما صحراء يسر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات المثلثين من صنماجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة وملتونة ومسراتة ولطمة ووريككة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل اله برذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض الباجوين وفي أسفل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقا أرض سسترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجوين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حقا في النيل المذهب من مبدئه في الاقليم الاول إلى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلاد اسنا وأرمنت ويتصل كذلك حقا في أسبوط وقوص ثم إلى صول * ويفترق النيل هناك على شعبين ينتهي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون واليسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن

تنتهي إلى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلم إلى بلاد يثرب وفي وسط الحجاز مكة شرقها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلدة عيذاب في العدو والغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبا ومأرب ثم أرض الشحر وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء بالتحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهاة وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الاخرى في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هناك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوران وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويرفيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم إلى أسفل من السند ثم إلى أعالي بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الاسفل أرض كابل وبعدها شرقا إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمر الداخلة وقشمر الخارجة عند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيهما مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه والتوفيق وهو ولي الفضل والكرام

(الاقليم الثالث) هو متصل بالثاني من جهة الشمال في الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة

من صحراء نيسر المقارة التي ذكرناها في الاقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه
البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى
أن يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم
المصامدة ثم هنتانة ثم تيملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل
صنهاكة وهم منها جة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك
من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة ثم كرههم
في أمم اكهم * ثم أن جبل درن هذا من جهة غربية مطل على بلاد المغرب الاقصى
وهي في جوفيه في الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش وانغيات وتادالا وعلى
البحر المحيط منها رباط اسفي ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس
ومكاسة وتازا وقصر كامة وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف أهلها وعلى
ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد
المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هين ووهران
والجزائر لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية
الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج
المتصايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان
على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من
شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق منها وفي آخر الجزء الاول
وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد وممراتها الى جنوب المغرب
الاوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بكرة تحت جبل أوراس المتصل
بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم
على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب
الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية
عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا
أرض ودان التي بقيتها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه
وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والابيس وعلى ساحل البحر
بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم
سوسة ثم المهديّة وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة
ونقراوة وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة وعلى
سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل

دمر ونقرة من قبائل هوارية متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في
آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي
جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم غمر أيضا فيه
جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في
البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أو ثان والبحر الرومي من شماله غمر طائفة منه الى
أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية
أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء
في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد ممرت على البحر ثم خلا وقفار تجول
فيها العرب ثم اجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلعة على البحر هنالك ثم في شرق
المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحه الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا
الاقليم وفي الاعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحه ثم يدخل
البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يراحم طرفه الاعلى ويبقى
بينه وبين آخر الجزء وقفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد القيوم وهي على مصب
أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من
الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على
الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق
هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطونف وزققي
وينقسم الايمن منهما من قرط بشعين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى
مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى
مصب الشرقي بلد ديباط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل
الديار المصرية كلها محشوة عمراناً ونجلاً وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد
الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه
عند السويس لانه في عمره مبتدئ من البحر الهندي الى الشمال ينعطف أخذا الى
جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف
الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم
أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض
الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا
الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثير من غربيه عليها القرما والعريش وقارب
طرفها بلاد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك ويبقى شبه الباب مفضيا الى أرض الشام

وفي غربي هذا الباب حص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد
خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه
القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرس وبقيتها في الاقليم
الرابع كما ذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضيق لبحر السويس بلد
العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تحط هذه
القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي
البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام ففي شرقه
عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلدة قيسارية ثم كذلك بلدة عكا ثم صور ثم
صيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد
الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القلزم
ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل
اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها
الحجاج من مصر الى مكة ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة
والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام انذاك كور من شمال العقبة ذاهبا
على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه عنالك بلد الحرج وديار غوث وديار دومة
الجندل وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها
وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبول وفي شمال جبل السراة مدينة القدس
عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها بلاد الغور الى أذرعاء وفي سمتها شرقا
دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز * وعند منعطف جبل اللكام الى
الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية
وجبل اللكام يعترض بينهما وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة
حاص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن بعلبك
وحص بلدة تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه
مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين
وهجر على بحر فارس وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلاد الحيرة والقادسية
ومغايض الفرات * وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر
فارس عند عبادان والابله من أسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر
دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع
كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر تسعة في أعلاه

الابله بضم الهمزة
والباء وتشديد اللام
اه

متضايقة في آخره في شرقه وضيقة عند منتهى مضايقة للحد الشمالي منه وعلى
عدوته الغربية منه أسافل البحرين وهجر والاحسا وفي غربها أخطب والصمان
وبقية أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند
آخر الجزء من الشرق على طرف قدامته من هذا البحر مشرقا ورواء الى الجنوب في
هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمن على الساحل بلد سيرا ف ونجهرم على
ساحل هذا البحر * وفي شرقه الى آخر الجزء وتحت هرمن بلاد فارس مثل صابور
وداراجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس
الى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وصدى وصابور
والسوس ورام هرمن وغيرها وأرجان وهي حتما بين فارس وخوزستان وفي شرق
بلاد خوزستان جبال الاكراد متصلة الى نواحي اصبهان وبها مساكنتهم ومجالاتهم
وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم وفي الجزء السابع في الاعلى منه من المغرب
بقية جبال القفص ويلها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها
الرودان والشيرجان وجيرفت ويزدشير والهرج وتحت أرض كرمان الى الشمال
بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه
وشماله ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان في
الجنوب وأرض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان
وكوهستان في وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن
سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها
سرخس وقوهستان آخر الجزء * وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات
البلخ من أم التركة متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من
جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة
الهند وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد
هراة وأوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومر والروذ والطالقان والجزجان
وتنتهي خراسان هنالك الى نهر جيحون * وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من
غربيه مدينة بلخ وفي شرقه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك وهذا النهر
نهر جيحون يخرج من بلاد وبار في حدود دبخشان مما يلي الهند ويخرج من
جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء
ويسمى هنالك نهر خراب ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمت
الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما ذكره ويمتد عند انعطافه في وسط

الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أشهر عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه
وأشهر أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضا وجوف الجبل حتى يتسع ويعظم بما
لا كفا له ومن هذه الانهار الخمسة المدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي
بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا نحو ارف الى الشمال الى أن يخرج الى
الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط
الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقا نحو ارف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء
التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من
هذا الجزء ويجول بين الترت وبين بلاد الختل وليس فيه الامسالك واحد في وسط الشرق
من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبني فيه بابا كسد يا جوج وما جوج فاذا
خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى
أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر هابطا الى الترمذ في
الشمال الى بلاد الخوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد
الناسان من خراسان وفي العدة والشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها
جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم يخرج من طرف
خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي
خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه في متصل به عند باب الفضل بن
يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأشهر أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش
يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم
من مبدئه عند الخوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد
من خراسان وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسر وشنة من بلاد الترت وفي
شرقيها أرض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترت تحوزها جبال البتم
الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد
الهند وفي شرقيها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت
بلاد الخزر لحيمة من بلاد الترت الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها أرض
فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا ومن شرقيها أرض التغرغر من الترت الى آخر الجزء
شرقاً وشمالاً * وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأساقله وفي
الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقاً منهم بلاد خرخيز من الترت أيضا الى آخر الجزء شرقاً
وفي الشمال من أرض خرخيز بلاد كتمان من الترت وقبلتها في البحر المحيط جزيرة
الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسالك وانصعود الى أعلاه من

خارجة صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتمل
أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلزمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء
التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها محالات للترك أم لا تحصى وهم
نوع من رحالة أهل ابل وشاء وبقر وخيل للتساج والركوب والاكل وطوائفهم
كثيرة لا يحصى منهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون
الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يلبسهم ويخرجون الى بلاد
خراسان والهند والعراق

(الاقليم الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال * والجزء الاول منه في غربيه
قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب
مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج
متضيق بمقدار اثني عشر ميلا بين طرف الجزيرة الخضراء شمالا وقصر البحار
وسبته جنوبا ويذهب مشرقا الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم
وينفص في ذهابه بتدرج الى أن يغمر الاربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن
جانبه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي
أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة ثم منركة ثم سردانية ثم
صقلية وهي أعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما ذكرها كلها في أجزاءها
التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء
الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم يعطف عند
وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج
منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يعرف
الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يقضي الى الجزء الرابع
من الاقليم السادس وينعطف الى بحر بطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس
كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما ذكر ذلك في أماكنه وعند ما يخرج هذا
البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفص الى الاقليم الثالث يبق في الجنوب
عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعددها
مدينة سبته على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء
شرقاً ويخرج الى الثالث وأكثر العمار في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي
كلها بلاد الاندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طرف عند مجمع
البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب

ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مغربه منه شريس ثم لبله وقبلتها فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريس ولبله اشيلية ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبنة ثم وادياش وبسطة وتحت هذه شنترية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما بطليموس وماردة ويايرة ثم غافق وبرزجالة ثم قلعة رياح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها شترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماله فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طليعة في الشرق من فورة ثم طليطة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلريه هذه غربي الاندلس * وأما شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لفته ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخجان بسطة وقلعة رياح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا أرض منبالة وريدة متاخجان لشقورة وطليلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا * والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الاقطعة من غربيته في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الشايات والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الأول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويتفرع في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تنضى شياها الى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء الأكبر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغر هافي غربيته جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبع مائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاعيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازروميني وهذه الجزيرة تقابل أرض افرريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر الاثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض ابي كبره والشرقية من بلاد البنادقة * والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر

وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه * والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلث من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمال منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخرا الى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال شيايات تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الارمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد أنطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخجة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أنطرطوس جبله ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفافيه فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيته حصن الحواني وهو للحشيشة الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالقداوية ويسمى الحصن مصبات وهو قبالة أنطرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حصن وفي الشمال عن مصبات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال انطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام * وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا * وأما بلاد الارمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد ممرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالي ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بهما جيحان جنوبا حتى تتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا

حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر ثم سيمحان مواز بالنهر جحمان فيمأذي
 المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن
 نهر جحمان ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جحمان عند المصبة ومن غربها
 * وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها
 بلاد الرافضة والرقعة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وأمد تحت جبل
 السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه
 القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن
 جنوبا الى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج
 وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقعة ويخرج الى الجزء السادس * وفي
 في شرق أمد وتنعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس * وفي
 الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق
 متصلة بهم تنتهي في الشرق الى قرب آخر الجزء ويترص من آخر العراق هنالك جبل
 اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره
 في الشمال يذهب مغربا الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على ستمه بجبل
 السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففي
 الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس وفي شمالها يخرج دجلة منه أما
 الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقريسيان ويخرج من هنالك جدول الى
 الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قريسيان غير بعيد ثم
 ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور الى غرب الرخبة ويخرج منه جدول من هنالك
 يمر جنوبا ويبقى صفيين في غربيه ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة
 وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعا في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث
 فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على
 ستمه الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصب في دجلة عند
 بغداد * وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقا على
 ستمه ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على ستمه فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها
 ثم بالموصل كذلك وتكثر وتنتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في
 شرقيه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على ستمه جنوبا وفي غرب القادسية الى أن
 ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجان الى أن يخرج من الجزء
 الى الاقليم الثالث فتستشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس

عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجعها ما يغداد هي بلاد الجزيرة
 ويختلط بنهر دجلة بعلم فارقته يغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه
 وينتهي الى بلاد النهر وان قبالة يغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه
 الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلاد جلولا وفي
 شرقها عند الجبل بلد جلوان وصيرة * وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل
 يبدأ من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين
 وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خوجان في الغرب والشمال عن اصبهان
 وتسمى هذه القطعة بلاد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور وعند
 ملتقى الجبلين والدي نور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد
 ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مسكن
 للكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من
 جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز والسيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من
 هذا الجزء قطعة من بحر ينطش وهو بحر الخزر * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من
 غربيه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث
 وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم
 الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه
 الذي مر ذكره هنالك وأنه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط
 هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء
 السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب
 النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا
 الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد
 الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه من
 هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا الى الشرق
 والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال
 وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف
 من غربيه الى شرقيه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل
 يمر على ستمه مشرقا وانحرفا قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربيه
 ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدا بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها
 بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المقارة التي بين فارس وخراسان

وهي في شرق قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلاد استراباذ وحق في هذا الجبل من
 شرقه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان في جنوب الجبل وشرق المغارة بلاد
 نيسابور ثم مر والشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرق تهرجان بلدهمهرجان وخازرون
 وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها
 عند زاوية الجزأين الشمال والشرق مضار ومظلة * وفي الجزء الثامن من هذا
 الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال في عدونه الغربية ثم
 وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية
 الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا
 الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث
 بين هراة والجوزجان حتى يصل بجبل البتم كما ذكرناه هناك وفي شرق نهر جيحون
 من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخاري ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد
 أسروسنة ومنها نخجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند وأسروسنة أرض يلاق
 ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش الى آخر الجزء شرقا وبأخذ قطعة من الجزء التاسع
 في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع
 نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من
 هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض يلاق نهر يأتي
 من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من
 الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم
 الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا
 بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه
 فدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد
 فاراب وبينه وبين أرض بخاري وخوارزم مضار ومظلة وفي زاوية هذا الجزء من
 الشمال والشرق أرض نخجندة وفيها بلاد السجاب وطراز * وفي الجزء التاسع من هذا
 الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخليلجية في الجنوب وأرض
 الخليلجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيماسكية ويتصل في الجزء العاشر
 كله الى جبل قوقند آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هناك وهو جبل
 بأجوج ومأجوج وهذه الامم كلها من شعوب التبت انتهى
 * (الاقليم الخامس) * الجزء الاول منه أسروسنة مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه
 وشرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس

في المستر الاقليم
 ايلاق متصل
 بأقليم الشاش
 لا فصل بينهما وهو
 بكسر الهمزة
 وسكون الباء
 بعدها اه

والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث
 متصلة من هناك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كما أنهما
 ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول
 الجزء من الجنوب والغرب وسلكة شرقا عنها وفي جنوبها هورة وفي الشرق عن سلكة
 ايله آخر الجنوب وأرض قسبالية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض
 ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر
 المحيط في آخر الضلع الغربي بلاد شنتياقو ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس
 مدينة شطاية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقها عن قسبالية وفي شمالها وشرقها
 وشقة وينبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفي غرب ينبلونة قسبالية ثم ناجرة فيما بينها وبين
 برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر والضلع الشمالي الشرقي
 منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من
 قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الاندلس
 من جهة الشرق وشبابه أبواب لها تقضي الى بلاد غشكونية من امم القربى فمنها من
 الاقليم الرابع برشلونة واربلونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراعهما
 في الشمال ومنهما من الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة * وأما المنكشف
 في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء
 البرنات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات
 بلديونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية لشمالية من الجزء أرض بنطومن
 القربى الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي
 شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما في شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة
 أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا
 وصارت بلاد غشكونية في غربها داخله في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالا
 بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة
 وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يقي بينهما
 جون داخل من البر في البحر في غربيه يش وفي شرقه مدينة رومة العظمى كرسى ملك
 الافرنجة وممكن البابا بتركهم الاعظم وفيها من المباني الضخمة والهيكل
 المهولة والكاثوليك العبادية ما هو معروف الاخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها
 من المشرق الى المغرب مفروش قاعه بسلط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من
 الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنجية الى آخر الجزء

وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد بابل في الجانب الشرق منه متصلة ببلد قلورية من بلاد القريخ وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغز باو محاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلانية في الاقليم السادس * وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بهما من شرقيه يوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرق بلاد قلورية بلاد انكبيد في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمت من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى أن ينتهي قبالة خليج في شماله في بلاد انكلانية من أم اللمايين كما ذكرنا وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل مادام اذاهين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهب الى المغرب فينهما بلاد حروا يانم بلاد اللمايين عند طرف الخليج * وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مفرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطنش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما ذكرنا وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسى القباصرة وبها من آثار البناء والخرابة ما كثر عنه الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظن هذا العهد محالات للترك كان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بهار صرة وكانت من قبلهم للروم وغلهم عليها الامم الى أن صارت للترك كان * وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قبايق الذي يمتد القرات يخرج من

جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يحاط القرات قبل وصوله من هذا الجزء الى عموره في الاقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في صيدان نهر سيجان ثم نهر جيجان غربيه الذاهين على سمتهم وقدمر ذكرهما وفي شرقيه هنالك مبدأ نهر الدجلة الذي يمتد على سمتهم وفي موازاته حتى يحاطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة ببلد ميافارقين ونهر قبايق الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قبايق أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ الدجلة والقرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قبايق وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ القرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطنش الذي يمتد خليج القسطنطينية * وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلاد اردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تقيس وديبل وفي شرق اردن مدينة خلط ثم بردعة وفي جنوبها باخراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك يخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الاكراد المسمى يارمي وقدمر ذكره في الجزء السادس منه ويتأخم بلاد ارمينية في هذا الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد اذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمت فيه منعطفة ومحطة ببلد ميافارقين ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل الكام كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانيا كالأبواب تفضي من الجانبين في جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد ارمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السمرق في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كلة قطعة أيضا من بحر نيطنش الذي يمتد خليج القسطنطينية وقدمر ذكره ويحفر هذه القطعة من نيطنش بلاد

السيرير وعليها منها بلد أطرابريدة وتمتد بلاد السيرير بين جبل الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى أن ينتهي شرقا الى جبل حاجز بينهما وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجر قطعة من أرض الخزر تنتهي الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا * والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور بحر طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوین وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بهما من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاوية الشمالية الغربية يصب فيها نهر اثل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى أن يلاقى بحر طبرستان فيحذف به ذاهبا معه الى بقيته في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياد ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السيرير وأرض الخزر واتصلت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع حفا في هذا الجبل المسمى جبل سياد كما ساقى * والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون ودورها ثلثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربع مائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الجبال الصلدا لا ينبت شيئا يسمى عرعون وبه سميت البحيرة وينجليب منه ومن جبل مرغار شمالا البحيرة أنها لا تنحصر عتتها فتصب فيها من الجانبين * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيما كية ويحذف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا بلاد

الكيما كية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيما كية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقه وفي الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سبته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما ذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يا جوج وماجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يا جوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا في شرقه من جنوبه الى شماله والا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مرت فيه وما سوى ذلك فأرض يا جوج وماجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

• (الاقليم السادس) • فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فأنكشفت قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخله بين طرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالبحون فيه وينفصح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانية وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس

• والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانقسمت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكاطرة وهي جزيرة عظيمة متسعة مستقلة على مدن وبها ملك فخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمندية وبلاد افلاش متصلين بها ثم بلاد افرسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها الامم الافرنجية وبلاد اللامانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض افريرة وكلها الامم اللامانيين • وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مراثيه في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء الرابع ويمر مغربا نحو ارف الى الشمال الى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي

• وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثوليه وتحتها في الشمال بلاد الروسية

من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغموراً كثرة بالبحر الاقطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض قانونية التي مذكروها في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يقضي الى بلاد قانونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق * والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمانك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائرة الثلاث وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه * وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمائية التي على قطعة بحري طست من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركان الى آخره * وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمائية وفي وسط الناحية بحيرة عمور عذبة تجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائماً شدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمائية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغا والتي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغا منعطف نهر اثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض يحنالك من أم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر ب ثم بقية الأرض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه * وفي الجزء

الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض المنتنة وفي شرقها الأرض المحفورة وهي من الهجاب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيج الاقطار تمتع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتختفي وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشناخ وهم قفق يمجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سديا جوج وما جوج وقد ذكرناه وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يا جوج وراا جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله * والجزء العاشر غمر بالبحر جميعه * هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لايات للعالمين

*(المقدمة السادسة) *

(في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في احوال البشر والكثير من احوالهم)

(قدينا) أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض انما هو وسطه لا فراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال * ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي خفا فيه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذي يليهما والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والقوا كدبل والحوانات وجميع ما يتكئون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فأنما توجد في الاقاليم التي كثرت فيها ولم تنقص على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسل انما يختص بهم أكل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك لاتباعكم القبول لما ياتهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكل لوجود الاعتدال لهم فجددهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصناعاتهم يتخذون البيوت

المنجدة بالحجارة المنقطة بالصناعة ويتناغون في استجداء الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقددين العزيرين ويعبدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ومن قرب منها من القرنجة والخلقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة وهذا كان العراق والشام أعذل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات * وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبنائهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخففونها عليهم وأجلود وأكثرتهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفيين من نحاس أو حديد أو جلود يقتدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالب والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويعبدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوارب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور والمجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال أنهم دانوا به في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والافرنجة والترن من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الاناسي قريبة من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود الدين وحضرموت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الأقاليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لوطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحار وصار فيها بعض الاعتماد بسبب رطوبة البحر * وقد توهم بعض النساين ممن لا علم لديهم بظائع

الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة سكانات عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وتقلون في ذلك حكاية من خرافات القصص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وانما دعاه عليه بأن يكون ولده عبيدا لولده أخوته لا غيره وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقاليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة احدهما من الأخرى فتطول المساماة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها وبلغ القبط الشديد عليهم وتسود جلودهم لاقراط الحر وتظير هذين الأقليمين عما يقابلها من الشمال الأقليم السابع والسادس شمل سكانها أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لاتزال بأفقهم في دائرة مرق العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المساماة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويستبدل البرد عامة الفصول تبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعורה ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسط بينهما الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لهما في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حفظ وافر والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في المتوسط كما قدمناه فكان لاهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهم لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الأقليم الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم عن تجاه مكة واليمن والزنج عن تجاه بحر الهند وليست هذه الأسماء لهم من أجل اتساعهم إلى آدمي أسود لاحام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب تسود ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطب

بالزنج حر غير الاجساد * حتى كسا جلودها سوادا

والقلب اكتسب البياضا * حتى غدت جلودها بياضا
وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لولا أهل تلك اللغة
الواضحة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده
ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغ والخزروالان والكثير من الأفرنجية
ويأجوج وماجوج أسماء متفرقة وأجبالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل
الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال
الطبيعية لا اعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك
فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمباني
والقراية والصنائع الفاتحة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا
على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنو اسرائيل واليونان وأهل الهند
والهند والصين * ولما رأى التسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حسبوا
ذلك لاجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في
ألوانهم فتكفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أروا أكثرهم
من ولد يافث وأكثر الامم المعتدلة وأهل الوسط المتحليين للعلوم والصنائع والملل
والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق في انتساب
هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب
بالسودان والجنشان من أجل اتساعهم إلى حام الاسود وما ذاهم إلى هذا الغلط
الاعتقاد هم ان التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجبل
أو الامة يكون بالنسب في بعضهم كاللحم وبنو اسرائيل والفرس ويكون بالجهة
والسمة كالزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب
كالعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الامم وخواصهم وميزاتهم فتعميم القول في
أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من فجلة
أولون أو سمة وجدت لذلك الالب انما هو من الاغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع
الأكوان والجهات وأن هذه كلها تبدل في الاعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في
عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم وهو المولى المنعم
الرؤوف الرحيم

*(المقدمة الرابعة) *

(في اثر الهواء في اخلاق البشر)

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجددهم

مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه
تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني
وتفسيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفشية
للهماء والبخار مخفلة لهزائده في كيمته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور
ملا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها
سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتنفش الروح وتجي طبيعة الفرح وكذلك نجد
المتنعمين بالجامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخت
لذلك حدث لهم فرح ورجاء تبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور * ولما كان
السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمتهم وفي أصل تكوینهم
كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم واقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس
إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر نفثا فتكون أسرع فرحا
وسرورا وأكثر انبساطا وبجي الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد
البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما يعكس عليه من أضواء بسيط البحر
وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد
التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الاقليم
الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي عوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول
واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف
غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون أقوات سنهم ولا
شهرهم وعنتهم ما كلهم من أسواقهم * ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها
في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقي أطراق الحزن وكيف أفرطوا
في نظار العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الخنطة ويأكر
الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره وتبع ذلك في الاقاليم
والبلدان تجدي في الاخلاق اثر من كيميات الهواء والله الخلاق العليم * وقد تعرض
المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول
تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي
أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا
برهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

*(المقدمة الخامسة) *

في اختلاف احوال العمران في النصب والجوح وما نشأ من ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

(اعلم) أن هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد فيها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء النبات واعتدال الطبيعة ووفور العمران وفيها الارض الخرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فكانها في شطف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من التلول الا أن ذلك في الاحياء وتحت ربة من حاميتها وعلى الاقلال لقله وجددهم فلا يتوصلون منه الى سد الخلة أو دونه فاضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الالبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجبد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألوانهم أصنى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين المثلثين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الاغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطار في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الازدهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أجغرتها الرديئة فتحيى بالادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهي والزرافة والحمار الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والارياف والمرعى الخصبة كيف تجبد بينها بوابع في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها ووحدة مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينهما ما رأيت وما ذاك الا لاجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك في الادميين أيضاً فانا نجد أهل الاقاليم المخصبة العيش الكثير الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الادم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقصرين على الشعير والذرة

مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الادم والبر مع أهل الاندلس المفقود بأرضهم السخنة جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضرة والامصار فإن أهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين في العيش الا أن استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظتها ويرق قوامها وعاقة ما كلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويحتف ما تولد به الى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجبد جسوم أهل الامصار اللطيف من جسوم البادية المخشنين في العيش وكذلك تجبد المعودين بالجوع من أهل البادية لافضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة * واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وأقبلاً على العبادة من أهل الترف والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والامصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاصكثار من اللحمان والادم ولباب البر ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طبيعته من أهل البادية وأهل الحواضر والامصار اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم الجماعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يغنوا لا مثل العرب أهل القفر والبحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وان أخذتهم السنون والجماعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثرون فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الخصب المتعودين للادم والسمن خصوصاً تكتسب من ذلك أضراراً وهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدّها فاذا خولف بها العادة بقله الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع الى المعى اليس والانكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل قاله الصكون في الجماعات انما قتلهم الشبع المعتاد

السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون لقلة الأدم والسمين فلا تزال وطوبيتهم الأصلية واقعة عند حدتها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معامهم تبدل الأغذية ينس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المأكول وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية والتلافها أو تركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولا ممة تناولها كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داءا لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسوم واليتوع وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التغذية والملاءمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فأناسم عنهم في ذلك أخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها انما كثره التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والريضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه الا اذا جلت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعنى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما اذا كان ذلك القدر تدريجا وريضة باقلال الغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو معزل عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه اذا رجع به الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كابدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصلاوا أكثر * وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع اليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورودة حسنا أنفسهما عن الأكل جملة من سنين وشاع أمرهما ووقع اختيارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما الى أن ماتتا ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم نديها في بعض النهار وعند الإفطار ويكون ذلك غذاء واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك * واعلم أن الجوع أصلح للبدن من كثرة الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وأن له أثرا في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بأثر الأغذية التي تحصل عنها في الجسم فقد رأينا المتغذين بالهجوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجسمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا

قال في القاموس
اليتوع كصور أو
توركل نبات له لبن
دار سهل محرق
مقطع والمشهور
منه سبعة الشبرم
واللاعية
والعسرطنشا
والمهود انه
والمازيون
والفجلشت
والعشر وكل
اليتوعات اذا
استعمات في غير
وجهها أهلك

المتغذون بألبان الابل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الابل في الصحة والغلظ فلا يطررها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كلحتظ قبل طبعه والدياس والفريبون ولا ينال أمعاؤهم منها ضرر وهي لتناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بمناشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفساحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ يصحها ثم حضنت عليه جاء النسل منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحض فيجىء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن الجوع أيضا آثارا في الأبدان لأن الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة الخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

﴿المقدمة السادسة﴾

﴿في أمانات المدرسين للغييب من البشر بالفطرة او بالرياضة وتقدم الكلام في الوحي والرؤيا﴾

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عبادته يعرفونهم بمصالحهم ويحترضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقى اليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والاخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بعلم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم ألا واني لأعلم الاما على الله واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصديق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنهم اغشى أو اغماء في رأى العين وليست منهم في شيء وانما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بأدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتزل الى المدارك البشرية اما بسمع دوى من الكلام فينتهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تعجب غمته تلك الحال وقد وعى ما ألقى اليه قال صلى الله

عليه وسلم وقد سئل عن الوحي أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم
عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يثقلي لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ويدركه أثناء
ذلك من الشدة والغطى ما لا يعبر عنه في الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة
وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جنيته
ليتفصد عرقا وقال تعالى أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ولاجل هذه الحالة في تنزل الوحي
كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له رقى أو تابع من الجن وانما البسر
عليهم بما شاهدوه من ظاهرتك الأحوال ومن يضل الله فله من هاد * ومن
علاماتهم أيضاً أنه يوجب لهم قبل الوحي خالق الخير والركاء ومحاربة المذمومات
والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه منطور على التنزه عن المذمومات
والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته وفي الصحيح أنه حل الجارة وهو غلام مع عمه العباس
لبناء الكعبة فجعلها في آزاره فانكشف فمقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره ودعى
إلى مجتمع وليلة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر
شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه يجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهه
فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقل له في ذلك فقال اني أنا جى
من لاتناجون (وانظر) لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها بحال
الوحي أول ما لجأه وأرادت اختياره فقالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك
ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سأله عن
أحب الثياب اليه أن يأتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعنى أن
البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين
وأتمثال ذلك * ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة
والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك
أبو بكر ولم يحتاج إلى دليل خارج عن حاله وخلقته وفي الصحيح أن هرقل حين
جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الاسلام أحضر من وجد يبلده من قريش
وفيه أبو سفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قال بم يأمركم فقال أبو سفيان
بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يكن ما تقول
حقاً فهو نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين والعفاف الذي أشار اليه هرقل هو العصمة
فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته ولم يحج
إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) أيضاً أن يكونوا
ذوي حسب في قومهم وفي الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه وفي رواية أخرى

قوله الذي أشار
إليه هرقل الظاهر
أبو سفيان اه

في ثروة من قومه استدركه الحاكم علي الصحيحين وفي مسأله هرقل لابي سفيان كما هو في
الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسول تبعث
في أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصمة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى
يلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من أكمال دينه وملته (ومن علاماتهم) أيضاً وقوع
الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة
وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع في غير محل قدرتهم وللناس في كسيفيه
وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف فالتكلمون بناء على القول بالفاعل
المختار قائلون بأنهم واقعة بقدره الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة
صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر
المتكلمين إلا التحدي بها بآذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل
وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه
صادق وتكون دلالة لها حينئذ على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق
والتحدي ولذلك كان التحدي جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لانه
معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر إذا لا حاجة فيهما
إلى التصديق فلا وجود للتحدي إلا أن وجد اتفاقاً وان وقع التحدي في الكرامة عند
من يجيزها وكانت لها دلالة فأنما هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هذا منع الاستاذ
أبو إسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرار من الالتباس بالنبوة عند التحدي
بالولاية وقد أرينا في المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا لبس على أن
النقل عن الاستاذ في ذلك ليس صريحاً وبما حل على انكار أن تقع خوارق الأنبياء
لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه * وأما المعتزلة فالمانع من وقوع
الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق
وأما وقوعها على يد الكاذب تليسا فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس
المعجزة التصديق والهداية فلورقت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة
والتصديق كذب واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه
المحال لا يكون ممكناً وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح
فلا يقع من الله * وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل
القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض
متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات
لألا اختيار وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق

بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف في
الاكوان مهما توجه اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع
لنبي كان للتحدى أو لم يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي
فما الاكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بانه يتنزل منزلة القول الصريح
بالصدق فلذلك لا تكون دلالاتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون
التحدى جزأ من المعجزة ولم يصح فارقها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن
السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر
بخوارقه والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة
أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود الى السماء والتفوذ في الاجسام الكشفة
واحياء الموتي وتسليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولى دون ذلك كتكثير
القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصرف الانبياء ويأتى
النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك المتصوفة
فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عن اخبرهم واذا تقر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات
وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فان
الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبي ويأتى بالمعجزة شاهدة
بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه
ولا يقتصر الى دليل مغايرة كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل
والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الانبياء الا وأوتي من
الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الى فأنا
أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة
في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر وضوحها فكثر
المصدق المؤمن وهو التابع والامة

ولسنا ذكر الآن تقسيم حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرضا ثم شأن المعارض وغير ذلك من مدارك الفهم فنقول

(اعلم) أرشدنا الله وإياك أنا شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسيبات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تقتضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجفماني وأول عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا ببعضها ببعض وكل واحد منها

مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الاوقات والصاعد
منها أطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الافلاك وهو أطف من الكل على طبقات
اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم
إلى معرفه مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار
فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة
بديعة من التدرج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر
له وأخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون
والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكنونات أن آخر
أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم
الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الانسان صاحب الفكر
والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته إلى الروية
والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم اننا نجد في
العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر
وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها مؤثرات ما بين الاجسام
فهو ركني ويتصل بالمكنونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس
المدركة والحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها
أيضاً ويكون ذاته ادراكاً كصرفا وتعلقاً محضاً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك
ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالنعلم من جنس
الملائكة وقتاً من الاوقات في لمح من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية
بالفعل كما ندكر مبعد ويكون لها اتصال بالافق الذي بعده شأن الموجودات المرتبة
كما قدمنا قلها في الاتصال جهتها العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها
ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعدها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من
جهة الاعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فان عالم الحوادث
موجود في تعلقاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود
باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان
وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجيع أجرائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها
أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية
بالبدن متداقفاً وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتبة إلى القوة
العلمية منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بالآلة من

السمع والبصر وسائر هارتي الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك
المحسوسات مبصرة ومسموعة وملوسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة
الحس الظاهر لان المحسوسات لاتزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤدى به الحس
المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجزء عن المواد
الخارجة فقط وآلهاتين القوتين في تصرفيهما البطن الاول من الدماغ مقدمه
للاولى ومؤخره لثانية ثم يرتقى الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لادراك
المعاني المتعلقة بالخصائص كعداوة زيد وصدقة عمرو ورحمة الاب واقتراس الذئب
والحافظة لا يداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالخزانة تحفظها الوقت
الحاجة اليها وآلهاتين القوتين في تصرفيهما البطن المؤخر من الدماغ آوله الاولى
ومؤخره لآخرى ثم ترتقى جميعها الى قوة الفكر وآته البطن الاوسط من الدماغ وهي
القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو العقل فتحرك النفس بهادئ الماركة
فيها من التزوع لتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج الى الفعل
في تعقلها تشبهة بالملا الاعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في
ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائماً متوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ
بالكلية من البشرية وروحانياتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب
بل بما جعل الله فيها من الجملة والفطرة الاولى في ذلك (والنفوس البشرية) على ثلاثة
أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فينقطع بالحركة الى
الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة
على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي
للفكر في البدن وكلها خيالي منحصرة نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهي الى الاوليات
ولا يتجاوزها وان فسد ما بعدها وهذا هو الغلب نطاق الادراك البشري
الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف متوجه بتلك
الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يقتصر الى الآلات البدنية
بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات التي هي نطاق
الادراك الاول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها
لانطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاولياء أهل العلوم
اللدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة في البرزخ وصنف
مفطور على الانسلاخ من البشرية بجملة جسمانياتها وروحانياتها الى الملائكة من
الافق الاعلى ليصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملا الاعلى

في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللحظة وهؤلاء الانبياء
صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة وهي
حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة تصورهم فيها ونزولهم عن موانع البدن
وعوائقه ماداموا ملاسين لها بالبشرية بتماركة في غمراهم من القصد والاستقامة
التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة
وتسبغ بنحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا
بتلك الفطرة التي فطرها عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن
بشريةهم وتلقوا في ذلك الملا الاعلى ما يتفقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلة
في قواها الحكمة التبليغ للعبادة فتارة يسمع دويًا كأنه رمن من الكلام يأخذ منه المعنى
الذي ألقى اليه فلا يتقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي اليه
رجلا فيكلمه ويبي ما يقوله والتاقي من الملك والر جوع الى المدارك البشرية وفهمه
ما ألقى عليه كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها
تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيالات الوحي في اللغة الاسراع (واعلم)
أن الاولى وهي حالة الدوى هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية
وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت أكمل من
الاولى وهذا معنى الحديث الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله
الحريث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو
أشد عليّ ثم يصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي
ما يقول وانما كانت الاولى أشد لانها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة الى
الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع
وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج
الى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفي
العبارة عن الوحي في الاولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطبيعة من
البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالات الوحي فمثل الحالة الاولى بالدوى
الذي هو في المعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غيب انقضائه فناسب عند
تصوير انقضائه وانقضاه العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع
ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب
العبارة بالمضارع المقضى للتجدد واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة
قد أشار اليها القرآن قال تعالى اناس لن يثق عليك قولنا ثقيلًا وقالت عائشة كان

مما يعاني من التزليل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيصم عنه وان جبينه ليقصد عرفا ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك ان الوحي كما قررناه مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من ألقها الى ذلك الافق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبداء الوحي في قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يقضى الاعتبار بالتدريج فيه شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وانما نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والنجم والقلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا حصل أمر النبوة (وأما الكهانة) فهي أيضا من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الانسانية استعداد الانسلاخ من البشرية الى الروحية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الانبياء بما فطر واعليه من ذلك وتقرأ أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما أو حركة ولا بأمر من الامور انما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا في الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلي أن هنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة في ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يعينها التزويج لذلك وهي ناقصة عنه بالجبله فيكون لها بالجبله عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وجميع الكلام وما سخر من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعين به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيعة له وهذه القوة التي فهم مبداء ذلك الادراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان

ادراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نقودا تاما في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عديدة تحضرها الخيلة وتكون لها كالمرة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليستغل به عن الخواص ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيجس في قلبه عن تلك الحركية والذي يشبهها من ذلك الاجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة وبما ين لها غير ملام ثم يعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفرع الى الظنون والتخمينات حرصا على النظر بالادراك البرزخي وتمويهها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم أرفع سائر اصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الاضافة وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الامر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بجمال لانها اتصال من ذات النبي بالمالا الاعلى من غير مشيعة ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الاجنبية فكانت داخله في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصارت مختلطا بهم او طرقه الكذب من هذه الجهة فامنع أن تكون نبوة وانما قلنا ان أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر الغيبات من المراتب والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان انما يعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين كما تكون من نفوسهم أيضا كما قررناه وأيضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرير عند وجود الشمس لان النبوة هي النور الاعظم الذي يحرق معه كل نور ويذهب

وقد زعم بعض الحكماء أنها انما توجد بين يدي النبوة ثم تقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن اما واحدا أو متعددا فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئا لأنه يقتضي ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجود ان من أمر النبوة كالحال انما من أمر اليوم ومعقولة تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للناس ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الاقوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية بن أبي الصلت فانه كان يطمع أن يتبأ وكذا وقع لابن صباد ولمسيلة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن ايمان كما وقع لطيحة الاسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان * (وأما الرؤيا) فحقيقته مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمح من صور الواقعات فانما عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودا بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمح بسبب النوم كما نذكره فتنبس بها علم ما تشوف اليه من الامور المستقبلية وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقباس ضعيفا وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقباس قويا يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير خلاصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه المصلحة للنفس أن ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تامة لا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية الآن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى على الذين لم يستكملوا ذاتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا * وأما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية

المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عند ما يخرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراكات شبيهها بحال النوم شبيهها ببناء وان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبيه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها سنة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع أن ذلك انما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتهما من حقيقة النبوة واذن لا هذا مما ذكرناه أولا ولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاميا في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الخواص الظاهرة فقطر الله البشر على ارتفاع حجاب الخواص بالنوم الذي هو جلي لهم فتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الاحيان منه لمح يكون فيها الظفر بالمطالوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما سبب ارتفاع حجاب الخواص) بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة انما ادراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الايسر من القلب على ما في كتب التشریح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده ويتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلا لا تار الذات المباشرة في جسمانية وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطة وقد كما قدمنا أن ادراكها على نوعين ادراكا بالظاهر وهو بالخواص الحس وادراكا بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الادراك كله صارف لها عن

ادراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت
الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسوس والفشل بما يدركها من التعب
والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الادراك
على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانحناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة
كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل
قطب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشبعة
مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل
فاذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس
شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب
والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاضدة
قريباً ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء
الحواس الحس الظاهرة وربما التفتت النفس انفة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها
القوى الباطنية فتدرك باذراكها الروحاني لانها مقطورة عليه وتهيئ من صور
الاشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حيث تدغم بأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها
بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير
وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللوحة ما تدركه
هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا
من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلى
من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لانها
كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم
وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يختص بها أحد منهم
بل كل واحد من الانساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مما راى غير واحدة وحصل
له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا يتدركها اذا جاز ذلك في عالم النوم
فلا يتبع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عاتمة في كل حال
والله الهادي الى الحق بمنه وفضله

(فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالباً انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما
تكون النفس متشوقة لذلك الشيء فيقع لها تلك اللوحة في النوم لأنها تقصد الى ذلك
فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند
النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يشوف اليه ويسمونها الحالومية وذكر منها مسلة في

كتاب الغاية خالوة سماها حالومية الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ
السر وصحة التوجه هذه الكلمات الانجمية وهي تمنع عن بعدان بسواد وغداس
نوفنا غادس ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكى)
أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليل في مأكله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طباغك
التام فسأله وأخبره عما كان يشوف اليه وقد وقع لي أنا بهذه الاسماء مما رأت في عجيبة
واطلعت بها على أمور كنت أتشوف اليها من أحوالي وليس ذلك بدليل على أن القصد
للرؤيا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوى
الاستعداد كان أقرب الى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد
ما أحب ولا يكون دليلاً على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة
على الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما يجدر من أمثاله والله الحكيم الخبير

(فصل) ثم انما نجد في النوع الانساني أشخاص يخبرون بالكائنات قبل وقوعها
بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن مائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا
يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم
التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الاحسام الشفافة كالمرايا
وظساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأبصارها وعظامها وأهل الزجر في
الطيور والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها
موجودة في عالم الانسان لا يبع أحد اجدها ولا انكارها وكذلك المجانين يلقى على
ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لا قول موته أو نومه
يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل
الكرامة معروفة ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها
بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس
الانسانية كيف تستعد للادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك أنها
ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما يخرج من
القوة الى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة
وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد
أولاً بالقوة مستعدة للادراك وقبل الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشوؤها ووجودها
بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها ويرود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنزع من تلك
الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الادراك
والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهوى في الصور متعاقبة عليها بالادراك

واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الادراك الذي لها من ذاتها لانوم ولا يكشف ولا يغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك الادراك بالآلات الجسم توذيه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل القوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياسة مثل أهل الكشف من الصوفية فملتفت حينئذ الى الذوات التي فوقها من الملا الاعلى لما بين أفعها وأفقههم من الاتصال في الوجود كما قرناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما تر في تجلي فيها شيء من تلك الصور وتقبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتجربته * هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي * ولترجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فاما) الناظرون في الاجسام الشداقة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادهما وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهو لا يعاونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرافها البصر فيعكف على المرقى البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يجربه عنه وربما ينظر أن مشاهدة هؤلاء المايرونه هو في سطح المرأة وليس كذلك بل لا يزالون يتطرون في سطح المرأة الى أن يغيب عن البصر ويبدو فيها بينهم وبين سطح المرأة حجاب كأنه غمام تمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من قبي أو اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه وأما المرأة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الاخر من الادراك وهو نفسي ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسي للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادهما والناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك * وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ويرعون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال

والاشارة وغيبه هؤلاء عن الحس أخف من الاولين والعالم أبو الغرائب * وأما الزحر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سحر طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الخرص والفكر فيما زجر فيه من مرقى أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك الى ادراك لما كما تفعله القوة المخيلة في النوم وعند وكود الحواس توسط بين المحسوس المرقى في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا * وأما المجانين فتفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لقساد أفرجحتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تثبت به وتضعف هذه عن مما تفتها فيكون عنه التخييل فاذا أصابه ذلك التخييل أما لقساد مزاجه من فساد في ذاتها ولزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه حله فادرك الحقة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قرناه ومن ذلك يجي الكذب في هذه المدارك * وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الامور) وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فاصادف تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يقزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليغرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من انمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة ابن مضر وما أخبرا به من ملك الحبشة للين وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش ورؤيا الموبدان التي أولها سطح لما بعث اليه بكسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوود * فأتاك ان داوود بنى لطيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجدان هما شفياني

فقالا شفاك الله والله مالنا * بما جلت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الابلق الاسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة البقطة والنباهة بالنوم من الكلام على الشيء الذي يشوق اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادى النوم عند مفارقة البقطة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم ككاه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام يمثل ذلك * ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستشع * وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دق مملوء بدهن الجسم ومكث فيه أربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤون رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يحف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني * ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرس الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعا بامانة جميع القوى البدنية ثم يحو آناها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكور لترداد قوة في نشأتها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليتق لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاحبار عنهم في ذلك غريبة * وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أدواق أهل العرفان والتوحيد ويريدون في رياضتهم الى الجمع والجوع والتغذية بالذكور فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكركانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكركانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف

لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغیر الله وانما هي لتقصده التصرف والاطلاع على الغيب وأخسرهم صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لأشياء سواها واذا حصل أثناء ذلك ما يحصل في العرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يقر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لانه لا غيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسه وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بشكر في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو الحق الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرار من التباس المعجزة بغيرها والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتميز فهو ككاف * وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عرو وقد وقع للصباية من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زعيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات ولورط مع المشركين في معتزلهم بالانزمام وكان بقرية جبل يتجهز اليه فزفع له مرد ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هناك والقصة معروفة ووقع مثله أيضا لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديثه ثم نبهها على جذاده لتخوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما أخوال وأختان فقالت انما هي أسماء فن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطا في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولكن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء الآن أهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى انهم يقولون ان المرید اذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقها الهداية ويرشدنا الى الحق

(فصل) ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم به النحل معنوهون أشبهه بالمجاهدين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فان فضل الله بوتيته من

يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالتعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما فقد لهم العقل الذى يشاط به التكليف وهى صفة خاصة للنفس وهى علوم ضرورية للانسان يشتهىها فطره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه اذا برأحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر فى قبول التكليف لاصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بقا قد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفى الذى هو معرفة المعاش ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله بعباده للمعرفة على شئ من التكليف واذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتصقون بالبهائم ولك فى تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البله من أقول نسايتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم ذلك وفست نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخبية ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف فى حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد للصواب

(فصل) وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك الغيب من دون غيبة عن الحس فثمهم المنجمون القائلون بالدالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج الى الهوام وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شئ انما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التناظر النجومية وحصول المزاج منه للهوام مع مز يدحدث يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيات فى العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك فى محله ان شاء الله وهو لو ثبت فغايبه حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شئ * ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التى يضعون فيها عملهم ومحصل هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكال ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجية والفردية واستوائها فهم ما كانت ستة عشر شكلا لانها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلا وان كان الفرد فيها فى مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان الفرد فى مرتبتين فثمانة أشكال وان كان فى ثلاثة مراتب فأربعة أشكال جاءت

سنة عشر شكلا ميزوها كلها باسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكما قسمها البروج الاثنا عشر التى للفلك والاوراد الاربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه الآن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذا انما مستندها أوضاع تخمينية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شئ منها ويرى عن أن أصل ذلك من النبوة القديمة فى العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يتبعون مشروعيتهما ويحبون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبي يخطفن وافق خطه فذاك وليس فى الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان نبي يخط فباتية الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فن وافق خطه ذلك النبي فهو ذلك أى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذى كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما اذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم * فاذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتبي ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا فى مرتبة على الترتيب فتبي أربعة أشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلهما من الشكل الذى بازائه وما يجمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة فى سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك فكما غرينا وكثرت هذه الصناعة فى العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الإعلام من المتقدمين والمتأخرين وهى كما رأيت فحكم وهوى والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكره أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر المقطوعين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا

المصنف كلهم بالزهرين نسبة إلى ما يقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل ما يبدى عليهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي يتطرق فيها من النقط أو العظام أو غيرها اشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالخصي والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنما تفيد ذلك فهدى من القول والعمل والله يهدي من يشاء * والعلامة لهذه القطرة التي فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجههم إلى تعترف الكائنات بغيرهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالشأوب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هو ساع في تنقيح كذبه

(فضل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من القلق والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة وليست أدرك من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولج به الخواص * فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذکور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتضاربين من الملوک وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المضطلع عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الالف آحادا وعشرات ومئين وألوف فإذا حسب الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذه ابقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددين مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجاً والاخر فرداً فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالملطوب هو الغالب وان كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشترابين الناس وهما

أرى الزوج والافراد يسعوا قلها * وأكبرها عند الخالف غالب
ويطلب مطلوب اذا الزوج يستوى * وعند استواء الفرد يغلب طالب
ثم وضعوا المعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع وهي

الدالة على الواحد و ي الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و ق الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و ش الدالة على الالف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد و ل الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و ر الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فتشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنت وصح زعد حقف طضع مرتبة على نوالى الاعداد ولكل كلمة منها عدد الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طضع فتكون لها التسعة فاذا أرادوا طرح الاسم تسعة نظروا كل حرف منه في أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عدد ما كانه ثم جمعوا الاعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها والاخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الاخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسرفى هذا القانون بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الاعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين وكما الاثنان وكذلك الثلاثة والثلثون والثلثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف وصار عدد الكلمة الموضوع عليها ناتجاً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد والعشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامم القديمة وكان بعض من لقبناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالآخرى سواء هي هذه أرب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ تظظ تسع كلمات على نوالى العدد

قوله والالوف فيه
نظر لان الحروف
ليس فيها ما يزيد عن
الالف كما سبق في
كلامه اه

ولكل كلمة منها عدد الذي في مرتبة فيها الثلاثي والرابعي والثلاثي وليست
جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلون عن شيخ المغرب
في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والتجامة وهو أبو العباس بن البناء
ويقولون عنه أن العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل
بكلمات يقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان
ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزى إلى ارسطو وعند المحققين
لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد بذلك تصفحه أن كنت
من أهل الرسوخ اه ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون
الزايحة المسماة بزايحة العالم المعزوة إلى أبي العباس سيدي أحمد السبتي من
أعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة عمرا كش ولعهدي أبي يعقوب
المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يولعون
بإفادة الغيب منها بعملها المعروف بالمغوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف
غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية
للافلالك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم
وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها أما البروج وأما العناصر أو غيرهما وخطوط
كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة
فنها برشوم الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب
لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايحة وبين الدوائر أسماء
العلوم وموضع الأكوام وعلى ظاهرها دوائر جدول متكثرة البيوت المتقاطعة
طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا في العرض ومائة واحد وثلاثين في الطول
جوانب منها معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية
البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامة
من الخالية وحفا في الزايحة آيات من عروض الطويل على روى اللام المتصوبة
تتضمن صورة العمل في استخراج المطالب من تلك الزايحة لأنهم من قبيل
الانغاز في عدم الوضوح والجلاء وفي بعض جوانب الزايحة بيت من الشعر
منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشيلية
كان في الدولة الممتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزن فغن انن * غرائب شك ضبطه الخدم مثلا
وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه

قوله برشوم أي
موضوعة برشوم بنم
الراء جمع رشم بالشين
المجعة اه

يياض بالاصل

الزايحة وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا
ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها
وعندوا إلى الزايحة ثم إلى الوتر المكتشف فيها بالبرج الطالع من أوله مارة إلى المركز
ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى
آخره والاعداد المرسومة بينهم ما يصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون أحادها
إلى العشرات وعشراتهم إلى المئين وبالعكس فيهم ما كما يقتضيه قانون العمل عندهم
ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج
الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى
المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم
يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب
المقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسسه عندهم
هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب
فانه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر
والدور الأصلي ويدخلون بما تجميع لهم من ذلك في بيوت الجدول عن قوانين معروفة
وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا وينسقطون أخرى
ويقابلون بما عندهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال
وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون في
كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور يعاودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم
لذلك فيخرج آخر حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في
بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب
المقدم حسبان ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايحة *
وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهاقنون على استخراج الغيب منها تلك الأعمال
ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة
الواقع وليس ذلك بصحيح لانه قد مر أن الغيب لا يدرك بأمر صناعة البتة وإنما
المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام والتوافق في الخطاب حتى
يكون الجواب مستقيما وموافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تفسير
الحروف المجمعة من السؤال والاوتار والدخول في الجدول بالاعداد المجمعة من
ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى
ومعاودة ذلك في الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي وغير

مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الاشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فانها تقيّد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مرّ تعليل ذلك غير مرّة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسبقي ولقد وقعت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله وعمري انها من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسرفي خروجه منظوما يظهر لي أنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويندل عليه أنا وجدنا أعمالا أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراهم عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذهم الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والايهامات وأن صاحب العمل بهما ثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والاوتارو يفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجيى بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولا يمكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوقه ادراكه ويكفي في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا امرية فيه عند من يباشر ذلك من له ذكاء وحدس وإذا كان كثير من المعايير في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعده النسبة فيه وخفائها فإظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسألة من المعايير يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتري بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم بجوابه أن تقول هي تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة منها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فاذا جمعت الثمن من الدراهم الى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين اعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي اليك هذه وأمثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين

الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو في الوقائع الحاصلة
في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلية اذ لم تعلم أسباب وقوعها ولا ثبت
لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة في
الزايحة كلها انما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لانها كما رأيت
استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو
من تناسب بينهما يطالع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تسر عليه
استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع
ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من ثبوت أو اثبات وليس هذا من المقام
الاول بل انما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه
الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأنتم لا تعلمون

❖ (الفصل الثاني) ❖

في عمران البديوي واللام الحشية والمقابل وما عرض في ذلك
من الاحوال وفيه اصول وتمديدات

﴿فصل في ان احيال البسود والمطر طيبة﴾

• (اعلم) • أن اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو باختلاف محلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشط قبل الحاجة واليكلى فتم من يستعمل الفلح من الغرسة والزراعة ومنهم من يتحلل القيام على الحيوان من الغنم والبقرة والمعز والنحل والدود لتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدولانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امر ضروري اليهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفا انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم اذا اتسعت أحوال هؤلاء المتحايين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنيق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للخصر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فحصى عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنيق في علاج

القوت واستجدادة المطابخ واتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والدياج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح واحكام وضعها في تحييدها والانتفاء في الصنائع في الخروج من القوة الى القبل الى غاياتها فيتحذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تحييدها ويحتفون في استجدادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ما غنوا به وهو لا هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتكفل في معاشه الصنائع ومنهم من يتكفل التجارة وتكون مكاسبهم أنى وأرفع من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة زجدهم فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه

٢ (فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي)

قد قد منافي الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقديماً وون الى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة الامامسته التارفين كان معاشهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الطعن وهو لا سكن المداشر والقرى والجبال وهم عاتة البربر والاعاجم ومن كان معاشه في الساعة مثل الغنم والبقر فهم طعن في الاغلب لا رتياد المسارح والمياه الحيواناتهم فالتقلب في الارض أصلح بهم ويسمون شايوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدها المسارح الطبية وهو لا مثل البربر والترلو واخوانهم من التركمان والصقالبة وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر طعننا وأبعد في القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحقة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرا من أذى البرد الى دفاء هوائه وطلباً لما خض الساج في رماله اذا الابل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحوالها في ذلك الى الدفاء فاضطروا الى ابعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً وغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الخواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمقتصر من الحيوان العجم وهو لا هم

العرب وفي معناتهم ظمعون البربر وزيانة بالمغرب والاكراد والتركمان والترلو بالمشرق الا أن العرب أبعد نجعة وأشد بدابة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهو لا يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ (فصل في أن البدو أقدم من الحضرة سابق عليه وان البادية أصل العمران والامصار مدوله)

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضرة المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليه ما لان أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى السكالك والترف الا اذا كان الضروري حاصل لا فحشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدو ويجري اليها وينتهي بسعيه الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبذبة كلهم والحضرى لا يتشوق الى أحوال البادية الا للضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدنته ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا اذا اقتسنا أهل مصر من الامصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو والذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أبسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضرة وذلك يدل على أن أحوال الحضرة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فنفهمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حى أعظم من حى وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمراناً من مدينة فقد تبين أن وجود البدو ومتقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم

٤ (فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة)

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى وكانت متبذبة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خيراً وشرّاً قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأنواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدرا ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعه عن الآخر ويصعب عليها كسبها فصاحب الخير اذا سبق الى نفسه عوائد

الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر
إذا سبقت إليه أيضا عوائده وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد
الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهوراتهم منها قد تلونت أنفسهم بكثير
من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم
من ذلك حتى لقد ذهب عنهم مذهب الحشمة في أحوالهم فجد الكثير منهم يقدعون
في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصددهم عنه وازع
الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولوا وعلا وأهل البدو
وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء
من أسباب الشهوات والذوات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها
وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل
بكثير فهم أقرب إلى النظرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة
العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر وقد توضح فيما
بعد أن الحضرة هي نهاية العمران ونزول وجهه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن
الخير فقتدين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة والله يحب المتقين
ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحاج لسلمة بن الأكوع وقد
بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو فأعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام
على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه
ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية لأن أهل
مكة يحسهم من عصية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يحس غيرهم
من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية
حيث لا يحب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند
مرضه بكة اللهم أمض لا يحياي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم
للازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأ بها وهو من
باب الرجوع عن العقب في السعي إلى وجهه من الوجوه وقيل إن ذلك كان خاصا
بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقله المسلمين وأما بعد الفتح وحين
كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ
لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشأها عن يسلم بعد الفتح
وقيل سقط وجوبها عن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنه بعد الوفاة

ساقطة لأن الصحابة أفتروا من يومئذ في الاتفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى
بالمدينة وهو هجرة فقول الحاج لسلمة حين سكنى البادية ارتددت على عقبيك
تعربت نعي عليه في ترك السكنى بالمدينة بالاشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو
قوله ولا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت اشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين
لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما أزمه من الأمرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم
أذن له في البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمه وعناق أبي بردة أو يكون الحاج
انما نعي عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعله يسقط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بأن
اعتنا به لأن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل فما آثره به واختصه إلا لنعني
عليه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو والذي عبر عنه بالتعرب لأن
مشروعية الهجرة إنما كانت كما عرفت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة
البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله
سبحانه أعلم وبه التوفيق

❦ (فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة) ❦

والسبب في ذلك أن أهل الحضرة القوا جنوبهم على مهال الراحة والدعة وانغمسوا
في النعيم والترف ووسكوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم
والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي
تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهمجهم هبة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون
آمنون قد ألقوا السلاح وقاتل على ذلك منهم الأجيال وتزلوا بمنزلة النساء والولدان
الذين هم عيال على أبي منواهم حتى صار ذلك خلقا يتزل بمنزلة الطبيعية وأهل
البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وابتادهم
عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلون بها إلى سواهم
ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفون عن كل جانب في الطرق
ويتحافون عن المجموع الأعرار في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقباب ويتوجسون
للنبات والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مدينين بأسهم واثقين بأنفسهم قد صار
لهم البأس خلقا والشجاعة محبة يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ
وأهل الحضرة مهملون في البادية أو صاجبونهم في السفر عيال عليهم لا يملكون
معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة التواحي والجهات
وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرعناه وأصله أن الإنسان ابن عوائده

ومألوفه لا ابن طبيعته ومن اجبه فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقا وملاكمة
وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجملة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق
ما يشاء

٦ * (فصل في ان معاناة اهل المحر للامكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم) *

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس
قليل بالنسبة الى غيرهم في الغالب أن يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت
الملكة رفيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصدد كان من تحت يدها مدلين
بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جلبة
لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاختافة فتكسر
حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنفعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس
المضطهدة كما بينه وقد نهى عمر سعد ارضى الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن
جوبة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع
الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانترعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في
اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر نعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما
صلى به وبقى عليك ما بقى من حزنك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما
اذا كانت الاحكام بالعقاب فذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم
يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت
الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لم يره على
الخافة والانقياد فلا يكون مد لا بأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو
أشد بأسا من تأخذه الاحكام ونجد أيضا الذين يعاونون الاحكام وملكتهما من لدن
مراباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم
كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبية
العلم المتبحرين للقراءة والاخذ عن المشايخ والائمة الممارسين للتعليم والتأديب في
مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الاحوال وذهابها بالمنفعة والبأس ولا تستتكر
ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعية ولم ينقص ذلك من بأسهم
بل كانوا أشد الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم
كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن تعليم
صناعي ولا تأديب تعليمي انما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة تقلايا أخذون أنفسهم

بها بما رشح فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت
ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه
الله حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح
العباد ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما
وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ويرجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى
الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين أن الاحكام السلطانية والتعليمية
مفسدة للبأس لان الوازع فيها أجنى وأما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها
ذاتى ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الخواضر في
ضعف نفوسهم وخضد الشوك منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم والبدو بعزل عن
هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زيد
في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان
في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شرح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث
بده الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط
أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ * (فصل في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل امس العصبية) *

* (اعلم) أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه
النجدين وقال فآلهما فجورا وحقواها والشر أقرب الخلال اليه اذا أهمل في مربي
عوائده ولم يهذب الاقضاء بالدين وعلى ذلك الجرم الغفير الامن وفقه الله ومن أخلاق
البشر فيهم الظلم والعدوان وبعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت
يده الى أخذه الا أن يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجدد * ذاعفة فلعله لا ينظم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الاحكام والدولة بما قبضوا على
أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبوحون
بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان
الذي من خارج المدينة فمدفعه سياج الاسوار عند الغفلة أو الغفلة لبلا أو العجز عن
المقاومة نهارا أو يدفعه ذباد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة
وأما أحياء البدو فبعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما قر في نفوس الكافة
لهم من الوقار والجملة وأما حلالهم فاعما يذود عنها من خارج حامية الحى من انجنادهم

قوله بحكمة بدو
الحاء والكاف

وقبائهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وديادهم الا اذا كانوا عصية
وأهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نغرة كل أحد على
نسبه وعصيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنغرة على ذوى أرحامهم
وقربائهم موجودة في طبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رغبة
العدولهم ويعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا
لا يه لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا الخاسرون والمعنى أنه لا يتوهم الغدوان
على أحد مع وجود العسبة له وأما المتفردون في انسابهم فغفل أن نصيب أحد منهم
نغرة على صاحبه فاذا أظلم الجحيم بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة
لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرين من أجل ذلك على سكوني القفر
لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتمهم من الامم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي
محتاج للمدافعة والحماية فمثله يبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة
ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من
الاستعصاء ولا بد في القتال من العصية كما ذكرناه انفا فالتحذير اما ما تقتدى به فيما
نورده عليك بعد والله الموفق للصواب

٨ (فصل في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه)

وذلك أن صلة الرحم طبعية في البشر الا في الاقل ومن صلته النغرة على ذوى القربى
وأهل الارحام أن ينالهم ضيم أو تصيمهم هلكة فان القريب يجدي نفسه غضاضة
من ظلم قريبه أو العدا عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة
طبيعية في البشر منذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المناصرين قريبا جدا
بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها
ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء قرب بما يتوسى بعضها ويبقى منها شهرة فتعمل
على النصرة لذوى نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه
من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والخلق اذ نغرة كل أحد على
أهل ولأه وحليفه لللفة التي تلحق النفس من اهتمام جاراتها وقربائها ونسبها بوجه
من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قربا
منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به
أرحامكم يعني أن النسب انما فائدة هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع
المناصرة والنغرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب أمر وهمي لاحقة حقيقة له

ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا خجل النفوس على
طبيعتها من النغرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم
وذهبت فائدة وصار الشغل به مجانا ومن أعمال اللهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار
معنى قولهم النسب علم لا يتقنع وجهاله لا تضر بمعنى أن النسب اذا خرج عن الوضوح
وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانفتحت النغرة التي تحمل
عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

٩ فصل في ان الصرح من النسب انما يوجد للثنتين في القفر من العرب ومن في معناه

وذلك لما اختصوا به من كد العيش وشطف الاحوال وسوء المواطن جعلتهم عليها
الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل
وتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجرة وتجاهها في
رماله كما تقدم والقفر مكان الشطف والسغب فصار لهم القفا وعادة وريت فيه أجيالهم
حتى عكست خلقا وجبله فلا ينزع اليهم أحد من الامم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس
بهم أحد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل الى القرار من حاله وأمكنه ذلك
لماتركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم
محفوطة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكثانة وثقيف وبنو أسد وهذيل ومن
جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شطف ومواطن غردات زرع ولا ضرع وبغدوا من
أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة
محفوطة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالتلول
وفي معادن الحصب المراعي والعيش من خير وكهلان مثل لحم وجذام وغسان وطبي
وقضاة واباد فاختلطت انسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من
الخلاف عند الناس ما تعرف وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخاطبتهم وهم لا يعتبرون
المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا العرب فقط * قال عمر رضي الله
تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذ اسئل أحدكم عن أصله قال من
قربة كذا هذا أي ما لحق هؤلاء العرب أهل الارياق من الازدحام مع الناس على البلد
الطيب والمراعي الحسنة فكثير الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر
الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل
ذلك الى الاندلس ولم يكن لا طراح العرب أمر النسب وانما كان لاختصاصهم

بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في المحواض مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجلالة وقدسدت غيرهما من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودرثت فدرثت العصبية بدورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

١٠ (فصل في اختلاط الانساب كيف يقع)

* (اعلم) * أنه من البين أن بعضا من أهل الانساب يسقط الى أهل نسب آخر بقراءة اليهم أو حلف أو ولاء أو لفرا من قومه بجناية أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعتد منهم في غراته من الثغرة والقود وجل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت غرات النسب فكأنه وجدلانه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بأخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يبين لك شي من ذلك ومنه شأن بجيلة في عرجة بن هرثة لما ولده عمر عليهم فسأله الاعفاء منه وقالوا هو فينا زريق أي دخيل واصيق وطلبوا أن يولي عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرجة صدقوا يا أمير المؤمنين ان ارجل من الازد أصبت دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرجة ببجيلة وليس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسى بالجيلة وعد منهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر برسر الله في خلقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود والله الموفق للصواب بعنه وفضله وكرمه

١١ (فصل في ان الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية)

* (اعلم) * أن كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة تنسبهم العام فقيهم أيضا عصابات أخرى لانساب خاصة هي أشد التماسا من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بنى أب واحد لا مثل بنى العم الاقربين أو الابعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصابات في النسب العام والثغرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام الا أنها في النسب الخاص أشد تقرب اللحمة والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصابات ليقيم الغلب

(١١) هذا الفصل
ساقط من النسخ
الفاصلة وموجود
في النسخة
التونسية واثباته
أولى لطابق كلامه
أول الفصل ١٢
٥١

بها وتمت الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصابة الأخرى النازلة عن عصابهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الأقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها والاليم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استقرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

١٢ (فصل في ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم)

وذلك أن الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقرت وبالاذعان والاتساع والساقط في نسبهم بالجلالة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة واذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الاول من الالتصاق وليس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أو لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالاولية التي كانت لهذا المصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حيث قد فكيف تنقلت عنه وهو على حال الالتصاق والرياسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يشوف ككثير من الرؤساء على القبائل والعصابات الى انساب يلحقون بها انما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فيزعمون الى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدر في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناة بجيلة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالجزائريين من بنى عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بنى سليم ثم من الشريد منهم لحق جدتهم بنى عامر فجاءوا يصنع الحرجان واختلط بهم والتحتم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي * ومن ذلك ادعاء بنى عبد القوي بن العباس بن فوجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلط باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الادارة والعبيدين فكيف يسقط العباس الى أحد من شعبة

قوله الحرجان
بكسر الحاء جمع
خرج بفتحين
نفس الموقى ٥١

وذلك أنا قد مدنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصية فاذا اصطنع
 اهل العصية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتموا به كما قلناه
 ضرب معهم أولئك الموالى والمعتنعون بنسبهم في تلك العصية ولبسوا جلدها كأنها
 عصيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى
 عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحاف وليس
 نسب ولادته ينفع له في تلك العصية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصية ذلك النسب
 مفقودة لذهاب سرها عند التمام بهذا النسب الآخر وفقدانه اهل عصيته فيصير
 من هؤلاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصية كان له منهم شرف وبيت
 على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يباوذه الى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل
 حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدعة كلهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء
 الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى انى موالى الاترالى في دولة بنى العباس
 والى بنى برمك من قباهم وبني نوبخت كيف أدرى كوكا البيت والشرف وبنوا الحمد
 والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتا
 وشرفا بالنسب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالنسب الى الفرس وكذا موالى كل دولة
 وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها
 ويضمحل نسبها الاقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده وانما المعتبر
 نسبة ولادته واصطناعه اذ فيه سر العصية التى بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا
 من شرف مواليه وبنائهم فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجده نسب الولاء
 في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسب الاول في لحمة عصيته ودولته
 فاذا ذهب وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الاولى لذهاب عصيتها وانقطع
 بالثانية لوجودها وهذا حال بنى برمك اذا المنقول أنهم كانوا اهل بيت في الفرس من
 سدة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بنى العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما
 كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فهو توسوس به
 النفوس الجاحدة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله أتقاكم
 والله ورسوله أعلم

١٠ (فصل في ان نهاية الحسب في العقب الاحد اربعة آباء)

* (اعلم) * أن العالم العنصرى بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله
 فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنه فاسدة

بالمعاني وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ
 ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التى تعرض للادميين
 فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليفة شرف متصل في آباءه من لدن
 آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السرفيه
 وأول شكل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة
 والابتدال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل
 محدث ثم ان نهايته في أربعة آباء وذلك ان بنى الحمد عالم بما عاناه في بنيائه ومحافظ على
 الخلال التى هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لآبائه قد سمع منه ذلك وأخذ
 عنه الا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاني له ثم اذا جاء الثالث كان
 خطه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثانى تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع
 قصر عن طريقته جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن
 ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد
 انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان
 حدوثها ولا سيما يتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصيته ويرى الفضل
 له عليهم وثوقا بما يرى فيه من استباعتهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستباعت من الخلال
 التى منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه
 ويحتقرونه ويديلون منه سواء من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب
 للاذعان لعصيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمى فروع هذا وتذوى
 فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا فى المولود وهو كذا فى بيوت القبائل والامراء
 وأهل العصية أجمع ثم فى بيوت أهل الإمصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى
 من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشترط
 الاربعة فى الاحساب انما هو فى الغالب والافقديد ثلث البيوت من دون الاربعة ويتلاشى
 وينهدم وقد يتصل أمرها الى الخامس والسادس الا أنه فى الخطاط وذهاب واعتبار
 الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن
 وقد اعتبرت الاربعة فى نهاية الحسب فى باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم
 انما الكرم ابن الكرم ابن الكرم يوسف بن يعقوب بن امحق بن ابراهيم
 اشارة الى أنه بلغ الغاية من الحمد وفى التوراة ما معناه أنا الله ربك طائق غير معطاب
 بذنوب الآباء للذين على الثواب وعلى الروابع وهذا يدل على أن الاربعة لعقاب غاية
 فى الانساب والحسب * ومن كتاب الاغانى فى أخبار عزيز الغواني أن كسرى

قال للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال بأي شيء قال من كان له ثلاثة آباء متواليه رؤساء ثم اتصل ذلك بكل الرابع فالييت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل ذي الجدين بيت شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم المنقري من بني عيم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم وأقعد لهم الحكام والعدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقربائهم من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الذبيان من بني الحرث بن كعب بيت النبي وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ (فصل في ان الامم اسمية تقدر على التغلب من سواها)

(اعلم) * أنه لما كانت البداوة سدا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لاجرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد يختلف أحواله في ذلك باختلاف الاعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفكوا النعيم وألقوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدائتهم واعتبر ذلك في الحيوانات الهجم بدواجن الطير والبقر الوحشية والجر اذا زان توحشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الاتهاض والشد حتى في مشيتها وحسن أدبها وكذلك الأدي المتوحش اذا أنس وألف وبيبه أن تكون السجاياء والطباع انما هو عن المألوفات والعوائد اذا كان الغلب للام انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب الى التغلب على سواها اذا تقارب في العدد وتكافأ في القوة والعصية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حبر و كهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طي وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصيتهم ولم تخلفها مذهب الترف حتى صاروا أغلب على الامر منهم وكذا

كل شيء من العرب يلب نعيمًا وعيشًا خصبًا دون الحي الآخر فان الحي البدي يكون أغلب له وأقدر عليه اذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ (فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك)

وذلك لاننا قد علمنا أن العصبية هي ان تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجمع عليه وقد علمنا أن الأدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزعهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية والالم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لان الرياسة انما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السوود والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها فتغلبها وتستهيبها وتلجم جميع العصيات فيها وتصور كأنها عصبية واحدة ككبرى والواقع الاقتراق المنطوق الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فان كافأتها أو مانعتها كانوا اقنالا وانظارا لكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم المتفرقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادت قوتها في التغلب الى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة فان أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصيات انظمتها الدولة في أولياتها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس واصنهاجة وزناتة مع كامة ولبني جمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنما اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك أما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسهل الوقت المقارن لذلك وان عاقبها عن بلوغ الغاية عوائق كما نيتته وقتت في مقامها الى أن يقضى الله بأمره

١٨ فصل في ان من عواقب الملك حصول الترف والنفاس القليل في التوسيم

وببذلك ان القبيل اذا غلبت بعصيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقدارها وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تنسب آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه انما همتهم النعم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والاخذ بعد اذهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتمذهب خشونة البداوة وتضعف العصية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستكفون عن سائر الامور الضرورية في العصية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم يتعاقبوا إلى أن تنقرض العصية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اثر افهم على القضاء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعم كسر من سورة العصية التي بها التغلب واذا انقرضت العصية قصر التنبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهتمهم الامم سواهم فمقتبين أن الترف من عواقب الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

١٩ (فصل في ان من عواقب الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم)

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كسر ان لسورة العصية وشدة هاتها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فخار عوا للمذلة حتى يحجزوا عن المدافعة ومن يحجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف يحجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين واننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها يضرب من قدرته غير عصيتنا تكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لحوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما أنسو من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رعو من الذل للقبط أحقابا حتى ذهبت العصية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من

أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأرضهم قريب منهم يحكمهم من الله قدر لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا وتوا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله باليه وهو أنهم تاهوا في قفر من الارض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصر او لا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغظة العمالة بالشام وانقلب يصصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كازعموه ويظهر من مساق الآية ومنه هو ما أن حكمه ذلك التهمة مصادرة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتحلقوا به وأفسدوا من عصيتهم حتى نشأ في ذلك التهمة جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فتشأت لهم بذلك عصية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الاربعين سنة أقل مما يأتي فيها فناء جيل ونشأ جيل آخر سيجان الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصية وأنها هي التي تكون بها المذانة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقد هاهنا عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تقتسم لها النفوس الآية الا اذا استوتتته عن القتل والتلف وان عصيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عاتقة كما قدمناه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم الذل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القبيل بالمغارم في ربة من الذل فلا تلمع لها بل بالآخر الدهر ومن هنا تبين لك غلط من يزعم أن زناته بالمغرب كانوا شايبة يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر فيما قاله شهر براز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهر براز أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر اليكم والقيام بما تحبون ولا تذلو بنا بالجزية فتوهنوا بالعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

٢٠ (فصل في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس)

لما كان الملك طبعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان اقرب الى الخلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان فاذا كان خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذا الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينشئ عليه ويتحقق به حقيقة وهو العصية والعشيرة ورفع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصية فهو غاية لقرونها ومتماتها وهي الخلال لان وجوده دون متماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء أو ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصية نقط من غير اتصال الخلال الجيدة نقصا في أهل البيوت والاحساب فاعلمت بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كفالة الخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا وقد رهما اذا فاعل سواء فمن حصلت له العصية الكفيلة بالقدرة وأرست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تم بالخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أو ثبوت من الاول وأصح مبني فقد بين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصية فاذا نظرنا في أهل العصية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فوجدناهم يتنافون في الخير وخلاله من الكرم والعفوع والزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في سبيل الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايع وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا اساسا لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم مناسب لعصيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم

ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعبادة من ذلك اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة جلهم على ارتكاب المذمومات واتعمال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعياع عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير واذا أردنا أن نعلم ذلك فربما نرى ما ترفينا ففسقوا فيها حتى عليها القول فدمرتاها تدميرا واستقر ذلك وتبعه في الامم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أو لولا العصية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف وأهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصيات والعشائر لمن بناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبيل العشيرة والعصية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء من ليس لهم عصية تتق ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتحعض القصد فيهم أنه للمجد واتعمال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرانه واکرام الطارين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجهل اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجارة للترغيب حتى تتم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصيته انما وهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك اذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيتهم قد ذهب من أمة من الامم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له والله تعالى أعلم

(فصل في انه اذا كانت الامم وحشية كان ملكها اوسع)

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المقترين من الحيوانات العجم وهو لا يمثل العرب وزناتة ومن في معناتهم من الاكراد والتركمان وأهل الشام من

صنهاجة وأيضاً فهو لا المتوحشون ليس لهم وطن يرتاقون منه ولا بلد يجفون
اليه فتنسب الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطره
وما جاورهم من البلاد ولا يبقون عند حدود أفقهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة
ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكي في ذلك عن عمر رضى الله عنه لما بويع
وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الاعلى النجعة ولا يقوى
عليه اهله الا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا في الارض التي وعدكم
الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر
ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وجير كيف كانوا يخطون من
اليمين الى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم
وكذا حال الملمثين من المغرب لما نزعوا الى الملك طفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه
في جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس في عمالك الاندلس من غير واسطة
وهذا شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكرها
نهيائهم والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من
عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الامم
سواهم فيتعين منهم المباشرون للامور الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم
لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي يجدها أنوف كثير
من المتطاولين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في
بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة
ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الامر وكجوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي
شاركوها بنسبهم ونجابتهم من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على
الاولين الايام وأباد غصراءهم الهرم فطجنتهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بها
أرغف النعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة
المقدن الانساني والتغلب السياسي (شعر)

كدود القز ينسج ثم يقني * بمركر نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الاخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر مخفوظة وشارتهم
في الغلب معلومة فتسرعوا الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من

جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم
وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً منتبذاً عنه من عشائرتهم فلا يزال الملك ملجأ في
الامة الا أن تنكسر سورة العصبية منها أو يقني سائر عشائرها سنة الله في الحياة
الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك
عاد قام به من بعدهم اخوانهم من ثود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم
اخوانهم من جبر ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير أيضاً ومن بعدهم الاذواء
كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض آخر الكينية ملك من بعدهم
الساسانية حتى تأذن الله بانقرضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم
وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكامة
الملوك الاول منهم رجع الى صنهاجة ثم الملمثين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من
شعوب زناتة وهكذا سنة الله في عبادته وخلقه وأصل هذا كله انما يكون بالعصبية
وهي متفاوتة في الاجيال والملك يخلق الترف ويذهب به كما سذكره بعد فاذا انقرضت
دولة فأنما يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم
والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يوجب جد في النسب القريب
منهم لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى اذا
وقع في العالم تبدل كبير من تحويل مله أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته فيئخذ
يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبدل كما وقع لمضر حين
غلبوا على الامم والدول وأخذوا الامر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين
عنه أحقاباً

٢٣ فصل في ان المغلوب مولع أبداً بالاقامة بالغالب في شعاره وزيه
ونخلته وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما النظره
بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي
انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فالتحلت جميع
مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء ولما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب
له ليس بعصبية ولا قوة بأس وانما هو بما التحلت من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً
بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه
ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر احواله وانظر ذلك في

الانسان مع آياتهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان في الأكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت أمة تتجاوز أخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبه والاعتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أمة الخلافة فانك تجدهم يشبهون بهم في ملابستهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم الثياب في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله * وتأمل في هذا سر قولهم العاتية على دين الملك فانه من بابه اذا الملك غالب لمن تحت يده والبيعة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الانبياء بآياتهم والمتعلمين بعلمهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ (فصل في ان الامم اذا غلبت وصارت في ملك غير باسرع اليها الفناء)

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آله لسواها وعالة عليهم فيقصرا الامل ويضعف التناسل والاعتقاد انما هو عن جذوة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيمهم وعجزوا عن المداخلة عن أنفسهم بما خضع الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين اسكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حاصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شعب بطنه وري كبدته وهذا موجود في أخلاق الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وانها لا تساقدا اذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة القرص كيف كانت قدملاآت العالم كثرة ولما فئت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثيراً كثيراً من الكثير يقال ان بعدا أحصى من وراء المداش فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة وثلاثون ألفاً قرب بيت ولما حصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فلكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على أمره

وصار آله لغيره ولهذا انما تدعى للرق في الغالب أمة السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من رجوبان نظامه في ربة الرق محصول رتبة أو افادة مال أو عز كما يقع لمالك الترتل بالشرق والغلو ج من الخلافة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٥ (فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط)

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدر واعليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويقرون الى متبعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة والمخاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل المستعنة عليهم بأوعار الجبال بمنحاة من عينهم وفيادهم لانهم لا يتسمنون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متى اقتدروا عليها بقصدان الحامية وضعف الدولة فهمي نهب لهم وطعمة لا كلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولة عليهم الى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة الى أن ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

٢٦ (فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها العرب)

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبله وكان عندهم منذ ذوالما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية لل عمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالجزم مثلاً انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدري في قلوبهم من المباني ويخربونها عليه ويعتونه لذلك والخشب أيضاً انما حاجتهم اليه ليغمر وابه خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حتى ينتهون اليه بل كلما تمتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضاً فلانهم

يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من
الاجر والثمن والأعمال ككاسد كره هي أصل المكاسب وحقيقتها وإذا فسد
الأعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل
وابتعد الساكن وفسد العمران وأيضا فانهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس
عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما هم بما يأخذونه من أموال الناس خبا
أو مغرما فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم
والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وبعثوا القروض والعقوبات
في الأموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك
ليس بمنع في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم
فإن جانب حصول الغرض قبيح الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والقوضى
مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعة للانسان
لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضا فهم متناقضون
في الرئاسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته
الافي الأقل وعلى كره من أجل الحياة فيتعذر الأحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدي
على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقض قال الأعرابي الوافد على
عبد الملك لما سأله عن الخجاج وأراد الثناء عليه عند مجلس السياسة والغمران فقال
تركته يظلم وحده وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة
كيف تقوض عمرانه وأقصر ساكنه وبدات الأرض فيه غير الأرض فالين قرارهم
خراب الأقبلا من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس
أجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز إليها يثوه لال وبنو سليم
منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها الثلثائة وخمسين من السنين قد خلق بها عادات
بساطه خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك
أما زالعمران فيه من المعالم وقماثيل البناء وشواهد القرى والمد اشروا لله يرث الأرض
ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ فصل في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة من نبوة

او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقياد بعضهم لبعض
للغلظة والانفة وبعد الهمة والمناقسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان

الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمناقسة
منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة
الوازع عن التماسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام
بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم
لاظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس
قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتهم من ذمير الأخلاق
الاما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المنتهي لقبول الخير يبقائه على الفطرة
الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فان كل مولود
يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ (فصل في ان العرب ابرار الامم عن سياسة الملك)

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداءة من سائر الامم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن
حاجات التول وجوبها لاعتبادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم
فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يلا فاهم ذلك وللتوحش ورئسهم محتاج اليهم غالبا
للعصية التي بها المداقة فكان مضطرا إلى احسان ملكتهم وتركة مرانهم لئلا يحتل
عليه شأن عصيته فيكون فيها هلا كهولا كههم وسياسة الملك والسلطان تقتضي
أن يكون الساتس وأزعا بالقهر والام تستقيم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كما
قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع
بعضهم عن بعض فإذا ملكوا أمة من الامم جعلوا غاية ملكهم الاتقاء بأخذ ما في
أيديهم وتركة ما سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في
الأموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وأزعا وربما يكون
باعتنا بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب غرضه
فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران قبيح تلك الامة كأنها فوضى مستطيلة
أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمناه
فبعثت طباع العرب لذلك ككراهة عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب
طبائعهم وتبدلها بصيغة دينية تخوذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم
وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدوانهم في الملة لما
شيد لهم الدين أمر السياسة بالسرعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا
وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رسم اذار أي

المساكين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين ففسدوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يبعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وانمحق رسمها انقطع الامر بجله من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قديجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الامم في الخليفة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وعود والعمالقة وحمير والتابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الاسلام بن أمية وبن العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ما له وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء

٢٦ (فصل في ان البداوى من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار)

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما وجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالسكينة من نجار وخباط وحذاء وما ل ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وانما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً واوراراً وأشعاراً واهاباً مما يحتاج اليه أهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا أن حاجتهم الى الامصار في الضرورى وحاجة أهل الامصار اليهم في الحاجى والكالى فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم فناداموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون الى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم الى ذلك وطالبوهم به وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض أهلها على الباقيين والاتقص عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعى في مصالحه اما طوعاً وبذل المال لهم ثم يبدى لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين

فيضطر الباقيين الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم ورجعوا الى سبهم مفارقة تلك التواحي الى جهات أخرى لان كل الجهات معمور بالبدو والذين غلبوا عليها ومنعواهم من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الاول
في الدول العامة والملك والخلافة والمرتبة السلطانية وما يعرض
في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

١ (فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبة)

وذلك أنا قرنا في الفصل الاول أن المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبة لما فيها من النغرة والتذامر واستقامة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع اغريات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذات النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فققع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصبة كما ذكرناه آنفاً وهذا الامر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تهديد الدولة منذ أولها وطال أمدهم باهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة انما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبة في تهديد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من أوله ومالقي أولهم من المتعاقب دونه وخصوصاً أهل الاندلس في نسيان هذه العصبة وأثرها الطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبة بما تلاشى وطنهم وخلان من العصاب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شئ عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ (فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تنفنى عن العصبة)

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغلبة وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب الخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسبت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقابل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصاية بل كان طاعتها

كتاب الله لا يستدل ولا يعلم خلافه ولا أمر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كانه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بالموالي من العجم والترک والديلم والسجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقاص ظل الدولة فلم تكن تعدوا أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار الخلائق في حكمهم ثم انقض أمرهم وملك السجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو اسم الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالهدية وبجاية والقلعة وسائر تغورافريقية وربما اتت بملك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصية في المصامدة فمحو آثارهم وكذا دولة بني أمية بالاندلس لما فسدت عصيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمورها واقسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانقرض كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشيخ بأنفسه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملوك ولبسوا اشارة وأمنوا بمن ينقض ذلك عليهم أو يغيره لان الاندلس ليس يدارعصائب ولا قبائل كما سذكروا واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف بما رزقني في أرض اندلس * أسماء معتصم فيها ومعتصد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالتري يحيى اتفاقا صورة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطرائف على الاندلس من أهل العدو من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصية العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المار بطون أهل العصية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحو آثارهم ولم يقدروا على مدافعهم لفقدان العصية لديهم فهذه العصية يكون تمهيد الدولة وجايتها من أولها وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول باطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الاهله ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العائمة في أولها

وانما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انما أدرك الدولة عند هزمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلال دولة بني أمية وانقراض عصيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في ايلة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدا بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقيت العصية فهو لذلك لا ينزع فيه ويستعين على أمره بالاجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ أول الدولة وأنه لا يتم الا لاهل العصية فتفطن أنت له واقهر سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

٢ * (فصل في انه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغنى عن العصية) *

وذلك أنه اذا كان لعصية غلب كثير على الامم والاجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج واتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتهوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتساوله الامر من يد أعياضه وجزاه لهم على مظاهرتهم باصطفاهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية تغر ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليم العصية واتقياد الماستحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية استقرت في الأذعان لهم فلوراموها معه أو دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للإدارة بالمغرب الأقصى والعبيدين بأفريقية ومصر لما اتبذ الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسماوا الى طلبها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني أمية أو لآلهم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للإدارة وكأمة وصنهاجة وهوارة للعبيدين فسيّدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم واقطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيدين يمتد الى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الاسلامية شق الابله وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيدين أمرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا يتنافسون

في الرتبة عندهم خاصة تسليم الماحصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك في أعقابهم -م الى أن انقرضت دولة العرب بأسرها والله يحكم لامعقب لحكمه

٤ (فصل في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك صلوات الله عليه من نبوة او دعوة حق)

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصية واتفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتآلفها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى لو أنفق ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وسره أن القلوب اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعممت الدولة كجانبين لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لارب سواه

٥ (فصل في ان الدعوة الدينية تزيده الدولة في صلواتها)

قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدد

السبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتقرض الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستيتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يبقوا وموتهم وان كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم القناء بما فيه من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا في كل معسكر وجوع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجوع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزمواهم وغلبواهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصية أو يشف عليهم الا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف يتقضى الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصابات المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بضاعة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداءة واعتبر هذا في الموحدين

مع زناثة لما كانت زناثة أبدى من المصامدة وأشد توحشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصيتهم بها فغلبوا على زناثة أولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداءة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناثة من كل جانب وغلبواهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره

٦ (فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبي الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فاطنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف تار بالاندلس داعيا الى الحق وسمى أصحابه بالمرايطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بمادهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصابات ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يابث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بمصر وكش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرايطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القاعين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلك طرق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الامر ادعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتشبهون بهم من الغوغاء والاهواء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السيل مأزورين غير مأجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فلينبهه فان لم يستطع فليقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصابات وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما أجرى الامور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان من المتلبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه أمر الله لا يتم الا برضاه واعاذه والا خلاص

له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه
الزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وأباطا المأمون بجراسان عن
مقدم العراق ثم عهد لعل بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن
وجه النكير عليه وتداووا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع
ابراهيم بن المهدي فوق الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعة بها من الشطار
والخرية على أهل العافية والصون وقطعوا السبل وامتلأت أيديهم من نهاب
الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل
الدين والصلاح على منع الفساد وكف عاديهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد
الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقتل أهل
الزعة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتسكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد
أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفاني عنقه
ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى
الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فن دونهم
ونزل قصر طاهر واتخذ الدوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع
الخفارة لا وائل الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لأعيب على السلطان فقال له سهل
لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى ومائتين
وجهازله ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريرا وذهب ونجا
بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بأقامة الحق ولا
يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصية ولا يشعرون بعقبة أمرهم وما آل
أحوالهم والذي يحتاج اليه في أمر هؤلاء اما المداواة ان كانوا من أهل الجنون واما
التسكيل بالقتل أو الضرب ان أحدثوا هرجا واما اذاعة السخيرة منهم وعدهم من جملة
الصقاعين وقد يتسبب بعضهم الى الفاطمي المنتظر اما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع
ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو أو أكثر المتحايين مثل هذا تجددهم موسوس
أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلات بها جوارحهم وعجزوا عن
التوصل اليها بشئ من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم
الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما
يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة هرج بالبوس
رجل من المتوقفة يدعى التوبذري فعد الى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه
الفاطمي المنتظر تليسا على العامة هناك بما ملأ قلوبهم من الحدنان بانتظاره

هناك وان من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهاقت عليه طوائف من عامة البربر
تهافت القراش ثم خشي رؤسائهم اتساع نطاق الفتنة فسد اليه كبير المصامدة
يومئذ عمر السكسيوى من قتلته في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضا لأول هذه
المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الاوذلون من سفهاء
تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما
من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من
الغفلة عن اعتبار العصية في مثلها وأما ان كان التلييس فأخرى أن لا يتم له
أمر وأن يوءبائه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب غيره
ولا معبود سواه

٧ * (فصل في ان كل دولة لها حصه من الممالك والادوان لا تزبد عليها) *

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائلين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم
حصصا على الممالك والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحايتها من العدو وامضاء
أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصابات كلهم على الثغور
والممالك فلا بد من نقاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يصحكون ثغرا
للدولة وتحمل لوطنها ونظاما لمرکز مملكتها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على
ما يدها بقي دون حامية وكان موضع الانتهار القرصة من العدو والمجاور
ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة
وما كانت العصابة موفورة ولم تنفذ عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي
بقي في الدلة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والغلة الطبيعية
في ذلك هي قوة العصية من سائر اقوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها
فعل من الافعال فتشأنها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد عما يكون في الطرف
والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شان
الاشعة والانوار اذا انبثت من المراكز والدوائر المنقصة على سطح الماء من
النقر عليه ثم اذا أدركها الهرم والضعف فاعانتا أخذ في التناقص من جهة الاطراف
ولا يزال المركز محفوظا الى أن يتأذن الله بانقراض الامر جملة فحينئذ يكون انقراض
المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا يتفعلها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل
لوقتها فان المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وماتت انهمزم
جميع الاطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون

على المدائن انفرنس أمر فارس أجمع ولم يتفع يزجر دما بقي يسده من اطراف ممالكه
وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وعلبهم
المسلمون بالشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرتهم انتزاع الشام من أيديهم
فلم يزل ملكهم متصلا بها الى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شان العرب أول
الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق
ومصر لاسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك الى ما وراء من السند والحبشة وافريقية
والمغرب ثم الى الاندلس فلما انقرضوا حصصا على الممالك والتغور ونزلوها حامية ونفذ
عددهم في تلك التوزيعات أقصر وأعن الفتوحات بعد وانتهى أمر الاسلام ولم
يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجع الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال
الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نقاد عددهم
بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ (فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدائها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة)

والسبب في ذلك أن الملك انما يكون بالعصية وأهل العصية هم الخامة الذين ينزلون
بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها فإما كان من الدولة العاتة قبيلها وأهل
عصائنها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك
بالدولة الاسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة
تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضروحي طان
مابين فارس وراجل الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا الى ما في أيدي
الامم من الملك لم يكن دونه حتى ولا وزيراً فاستبجح فارس والروم أهل الدولتين
العظيمتين في العالم لعهدهم والترك بالشرق والافريقية والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس
وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك بأقصى الشمال واستولوا
على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيدين قبلهم لما
كان قبيل كامة القائمين بدولة العبيدين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت
دولتهم أعظم فلكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة
لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم
عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد زناتة بنى
مير بن وبنى عبد الواد لما كان عدد بنى مير بن لاقل ملكهم أكثر من بنى عبد الواد كانت
دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى * يقال ان

عدد بنى مير بن لاقل ملكهم كان ثلاثة آلاف وان بنى عبد الواد كانوا ألفاً الا أن الدولة
بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة فها عدد المتغلبين لاقل الملك
يكون اتساع الدولة وقوتها وأما طول أمدائها أيضاً فعلى تلك النسبة لأن عمر الحادث من
قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصية فإذا كانت العصية قوية كان المزاج
تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصية انما هي بكثرة العدد وفوره كإقلائه والسبب
الصحيح في ذلك أن النقص انما يبدو في الدولة من الاطراف فإذا كانت ممالكها كثيرة
كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان
النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدائها طويلاً
وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدائها أطول الدول لابن العباس
أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينقص أمر جميعهم الا بعد الاربعمائة
من الهجرة ودولة العبيدين كان أمداء قريشاً من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة
دونهم من لدن تقلد بمنعز الدولة أمر افريقية ابلكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين
وثلاثمائة الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة
ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهم كذا نسب الدول في
أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عبادته

٩ (فصل في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قران تحكم فيها دولة)

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى عصية
تمانع دونها فيكثر الالتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات
عصية لأن كل عصية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك
بافريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد فأن ساكن هذه الاوطان من
البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن ابي سرح عليهم
وعلى الافريقية شيأ وعادوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى وعظم الانحاز من
المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاختدابين
الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم
تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فابعدوه وهذا معنى ما ينقل عن
عمران افريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل
الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة
ولا الشام انما كانت حامية من فارس والروم والكافة دهماً أهل مدن وأمصار

فلما غلبهم المسلمون على الامر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر
قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصاب وعشائر وكلهم هلك
قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تهديد
الدولة بوطن أفر يقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان
فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان
والعمالقة واكر يكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا
في العصبية فصعب على بني إسرائيل تهديد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم
الملوك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه
ولم يكن لهم ملك موطن سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم
عند الجلاء والله غالب على أمره وبالعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبية
يسهل تهديد الدولة فيها ويكون سلطانها رازعا لقله الهرج والانتقاض ولا تحتاج
لدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد أذهى خلوه
من القبائل والعصبية كأن لم يكن الشام معدن لهم كقلنساه فلك مصر في غاية الدعة
والرسوخ لقله الخوارج وأهل العصاب انما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك
الترك وعصائبهم يغلبون على الامر واحدا بعد واحد ويتقل الامر فيهم من منبت
إلى منبت والخلافة مسممة للعباسي من أعقاب الخلفاء يعقوداد وكذا شأن الاندلس
لهذا العهد فان عصبية ابن الأحمر سلطانهم تكن لا تول دولتهم بقوية ولا كانت كرات
انما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن
أهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لمتونة والموحدين
سماو ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاهم وأمكن الموحدون
والسادة في آخر الدولة كثير من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم
من تلك الحضرة مرا كس فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من
بيوت العرب تجافي بهم المنبت عن الحضرة والامصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية
مثل ابن هود وابن الأجر وابن مردئش وأمثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة
الخلافة العباسية بالمشرق وحل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم
العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الأجر بالامر وخالف
ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء ابن أبي حفص صاحب أفر يقية من الموحدين وقام
بالامر وتناوله بعصاية قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحجج لا أكثر منهم لقله
العصاب بالاندلس وأنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز

إليه البحر من أعياص زنانة قصار واميعة عصبية على المتاغرة والرباط ثم سما صاحب
المغرب من ملوك زنانة أمل في الاستيلاء على الاندلس فصاروا وللك الاعياص عصابة
ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأمل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس
عن مطالبته وورثه أعقاب لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان
مبدؤه بعصاية الأناقلية وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس لقله العصاب
والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

١٠ (فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالجم)

وذلك أن الملك كما قد مناه انما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصابات كثيرة تكون
واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعا في ضمنها
وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسرته أن العصبية العامة للقبيل
هي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد بين في موضعه
أن العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد أن تكون واحدة
منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتولفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع
العصاب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت
ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالباً عليهم فيعين رئيسا للعصبيات
كلها لغلب منبته لجمعها واذا عين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والافتة
فبأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استبائهم والتحكم فيهم ويحجب خلق
التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل
باختلاف الحكام لو كان فيهم آلهة الا الله لفسدتا فتجده حينئذ أنوف العصبية
ويقلج شكائهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك
ويقرده ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامر لاناقة ولا جلا فيقدر بذلك المجد
بكلية ويدفعهم عن مساهمته وقديمت ذلك للأول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا الثاني
والثالث على قدر ممانعة العصبية وقوتها الا أنه أمر لا بد منه في الدول سنة الله
التي قد دخلت في عبادته والله تعالى أعلم

١١ (فصل في أن من طبيعة الملك الترف)

وذلك أن الأمة اذا تغلبت وملك ما بأيدي أهل الملك قبلها كثير ياشها ونعمتها
فتكرعوا نذهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشوتهم إلى نوافله ورقته وزينته
ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير تلك النوافل عوا نذ

ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتقاعسون في ذلك ويفترون فيه غيرهم من الامم في اكل الطيب ولبس الاثيق وركوب القاربه وينبغي خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

١٢ فصل في أن من طبيعة الملك الدعوة والسكون

وذلك أن الآفة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايته الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهري بيني وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فاذا حصل الملك أقصر واعن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

١٣ فصل في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الافراد بالمجرد حصول الترف

والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه * الاول أنهم اتقتضى الافراد بالمجرد كما قلناه ومهما كان المجد مشترك بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة اسوة في طموحها وقوة شكائهم ومما هم الى العز جميع وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصيتهم وكبح من أعتنتهم واستأثر بالاموال دونهم فبكاسلوا عن الغزو وقيل ربحهم ورغوا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواء وقيل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضد امن الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لقساد العصبة بذهاب البأس من أهلها * الوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قد مرناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على اعطائهم ولا يني دخلهم بخروجهم فالفقر منهم يهلك والترف يستغرق عطاءه بترفعه ثم

يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة الى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتفسهم الحاجة وتطالبهم ما لو كهم بمصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجردون وليجة عنها فوقعون بهم العقوبات ويتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضا اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة في اعطائهم حتى يستدخلهم ويزجح عليهم والحماية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الحماية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حيثئذ عما كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا رابعا الى أن يعود العسكر الى أقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كسبه على خليقته وأيضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسففة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعع أحوالها وتزل بها أمراض من منة من الهرم الى أن يقضى عليها * الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقوا صاير لهم ذلك طبيعة وجبله شأن العوائد كلها وابلها فاقربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بهم الملك من شدة البأس وتعود الافتراض وركوب البيداء وهذا يهبط القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضرة الا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتختدش شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلقون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يعدون عن البداوة والخشونة وينسجون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف الذين تجرد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غيرية وربما يحدث في الدولة اذا

طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم عن تعودا الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمر وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالى من الترك فتخير ملوكهم من أولئك الممالك المجاورة بينهم فرسانا وجندا فيكونون أجرا على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء الممالك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة الموحدين بافريقية فإن صاحبها كثيرا ما يتخذ أجناده من زناته والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجبد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم والله وارث الأرض ومن عليها

١٤ (فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كاللأشخاص)

اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأعمار الدول أيضا وإن كانت تختلف بحسب القرانات الآن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النشوء والنشوء إلى غايته قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا أن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه قتل على اعتبار الاربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإنما قلنا أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم ير الواعلي خلق البداءة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والاقتراس والاشتغال في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترف من البداءة إلى الحضارة ومن

الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتغال في المجد إلى انفراد الواحد به وكل الباقي عن السعي فيعم من عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتسكن سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداءة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملذات القهر ويبلغ فيهم الترف غاية بما تنكده من النعيم وغضارة العيش فيصرون عيال على الدولة ومن جهة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة فيموتون بها وهم في الأكثر أجن من النسوان على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا ومدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حلت فهذه كما تراها ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلقها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب انما هو في أربعة آباء وقد أتينا لقيه ببرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمل فلن تعدد وجه الحق أن كنت من أهل الانصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدد الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا أن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستويا والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء المطالب لما وجد مدافعا فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنين الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحدة في عمود النسب وإن زادت عنه فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلا لديك فتأمل تجد في الغالب صحيحا

والله يقدر الليل والنهار

١٥ (فصل في انتقال الدولة من البدو إلى الحضارة)

اعلم أن هذه الاطوار طبيعية للدول فإن الغلب الذي يكون به الملك انما هو بالعصية وبما يتبعها من شدة البأس ونعود الاقتراس ولا يكون ذلك غالبا لامع البداوة فطور الدولة من أولها بدو ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما هي تقن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجدائه والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضها وتتكرر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعيم بأحوال الترف وما تملكون به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تلبية الرفه للملك وأهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقا عا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتقن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتقن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال واستجداد المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي. وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الاعراس فانوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في اعراس المأمون بيوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها الى داره بفهم الصلح وركب اليها في السفين وما اتفق في املاكها وما تحملها المأمون واتفق في عرسها اتفق من ذلك على العجب فيه أن الحسن بن سهل نثر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنتثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملثونة على الرقاق بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده ينفع لكل واحد منهم ما أدام اليه الاتفاق والنجت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدين في كل بكرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم

كذلك

كذلك بعد أن اتفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الباقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصر منهنما منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبانواس كأنه أبصر هذا حيث يقول في عفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقعها * حصاء در على أرض من الذهب
وأعبد دار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلام مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأرسل الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس يدجمله من بغداد الى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحرافات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات بنهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مراربة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائق ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا طعموا اتبعوا أربعهم المائدة بصحافها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الآية وكذلك كان * ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فانما كان أكثرها الابل أخذها غداهب العرب وبدوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيدين من بعدهم ما عمت من أجال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بما كبرها وهكذا كان شأن كامة مع الاغالبه بأفريقية وكذلك في طنج بمصر وشان لمثونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشان زنانية مع الموحدين وهلم جرا تنقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانقلت حضارة الفرس للعرب بنى أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزنانية لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك بمصر والترك بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة اذا مور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة

قوله وثلثان الذي
في كتب اللغة
ان المتر رطل وقيل
رطلان ولم يوجد في
النسخة التونسية
الثلثان اهـ

الحرافات بالفتح
جمع حرافة سفيحة
فيها صامعي نار يرى
بها العدو وانحمار

من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحا في العمران والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٦ (فصل في ان الترف يزيد الدولة في اولها ساقية الى قوتها)

والسبب في ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر النسل والولد والعمومية فكثر العصابة واستكثروا ايضا من الموالى والصنائع وريت اجيالهم في جو ذلك النعيم والرفعة فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصابات حينئذ بكثرة العدد فاذهب الجمل الاول والثاني واخذت الدولة في الهرم لم تستقل اولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا اعمالا على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفا وما يقاربهم من مضر وقحطان وما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نعمتهم يتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذا اعتبرت حاميته في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودي أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للاتفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكران وإناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم ان سببه الرفعة والنعيم الذي حصل للدولة وورث فيه اجيالهم والاف عدد العرب لاقل الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

١٧ (فصل في احوال الدولة واختلاف احوالها خلقا لها باختلاف الاطوار)

(اعلم) ان الدولة تتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائلون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الاخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعد وفي الغالب خمسة اطوار الطور الاول طور انظر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وحماية المال والمدافعة عن الحوزة والحياة لا يفردونهم

بشي لان ذلك هو مقتضى العصية التي وقع بها القلب وهي لم تزل بعد بحالها الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد عنهم بالملك وكسبهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك ليدع أنوف أهل عصيته وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدتهم عن موارد ويرددهم على أعقابهم أن يخلصوا اليه حتى يتر الامر في نصابه ويفرد أهل بيته بما ينبغي من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون في طلب الامر أو أشد لان الاولين دافعوا لاجانب فكان ظهرا زهمهم على مدافعتهم أهل العصية بأجمعهم وهذا يدفع الاقارب لا يظاهاهم على مدافعتهم الا الاقل من الابعاد فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثا وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشديد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهيكل المرتفعة واجازة الوفود من أشرف الامم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله هذا ساع التوسعة على صنائعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادراار اوراقهم وانصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملايسهم وشكيتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر اطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم في هذه الاطوار كلها مستقلون بأرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالمه ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بين أولوه سلما لا يتطاول من الملوك واقتله مقلدا للماضين من ساقه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتني طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جع أولوه في سبل الشهوات والملاذ والكرم على بطائنه وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما بانون ويذرون منها مستفدا الكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغوا عليه ويتخذوا عن نصرته مضعا من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته ووجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهاهنا ما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن

الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معبر الى أن تنقرض كما ينه في الاحوال التي
نسردها والله خير الوارثين

١٨ (فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصليها)

والسبب في ذلك ان الآثار انما تحدث عن القوة التي بها كانت أولا وعلى قدرها
يكون الاثر في ذلك مباني الدولة وهما كلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة
في أصلها لانها لاتتم الا بكثرة الفعل واجتماع الايدي على العمل والتعاون فيه فاذا
كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرايا كان الفعل كثيرين جدا
وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله ألا ترى الى مصانع
قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهم ما وانظر بالنا هذة ايوان عسرى وما اقتدر
فيه الفرس حتى انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتمككاه عنه وشرع فيه ثم أدركه
الحجز وقصة استشارته ليجي بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف تقدر دولة على بناء
لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك
بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة
التي على واديها وكذلك بناء اخنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة
عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للامان
تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت
بالهندام واجتماع الفعل وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع
ولاتوهم ما توهمه العامة ان ذلك لعظم أجسام الاقدمين عن أجسامنا في أطرافها
وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبريون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع
القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخبارا عريقة
في الكذب من أغرب ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين قاتلهم
بنو اسرائيل في الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى
الشمس ويريدون الى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا
أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء وأن الضوء
فيما قرب من الارض أكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابله الاضواء
فتضعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر
هناك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب وان الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة
وانما هو جسم بسيط مضي لامزا له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من
العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا قريسة بني اسرائيل عند فتحهم الشام

قوله ابن عناق
الذي في القاموس
في باب الجيم عوج
ابن عوج بالواو
والشهور على
ألسنة الناس عنق
بالواو اه

واطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريسة من هياكلنا يشهد لذلك أبواب
بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل انحافطة على اشكالها ومقادير أبوابها
وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وانما مشارعنا طهم في
هذا أنهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل
بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدتها بعظم هياكلها
وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة من عمالما استدله
الا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جبهة للاجسام لمبارأ الله الخلق كانت في تمام
الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الاعمار أطول والاجسام أقوى لكمال تلك
الطبيعة فان طرق الموت انما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت
الاعمار أزبد فكان العالم في أواية نشأته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص
لنقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت
الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية
ولاسبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه
من البنين والهياكل والديار والمساكن كديار غودا المتحونة في الصلدمن الصخريوتا
صغارا وأبوابهم ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى أنها ديارهم ونهى عن
استعمال مباهمهم وطرح ما عجن به وأحرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا
أنفسهم الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام
وسائر بقاع الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حال في الاعراس
والولائم كما ذكرناه في ولية بوران وصنيع الحجاج وابن ذى النون وقدم ذلك كله ومن
آثارها أيضا عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم
فان الهمم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغايتهم للناس والهمم لا تزال
مصاحبة لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوار ابن ذى نزن لو قد قرىش كيف
أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرين من كرش
الغبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن
خاصة تحت استبداد فارس وانما حله على ذلك هممة نفسه بما كان لقومه التابعة من
الملك في الارض والغلب على الامم في العراق والهند والمغرب وكان الصنهاجيون
بأفريقية أيضا اذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الواقدين عليهم فانما يعطونهم المال
أحبالا والكساء تحوتا مملوأة والحملات جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك
أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوارهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما

فانما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بهض يوم وأخبارهم
في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر الصقلي
الكاتب قائد جيش العبيدين لما ارتحل الى فتح مصر استعظم القيروان بألف حمل
من المال ولا تنتهي اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد
الحديد عمل بما يحمل الى بيت المال بغير ادأ أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من
جرباب الدولة * (غلات السواد) * سبع وعشرون ألف درهم مرتين وثمانمائة
ألف درهم ومن الحلل النجراية ما تاحله ومن طين الختم ما تان وأربعون رطلا
* (كنكر) * أحد عشر ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم * (كوردجلة) *
عشرون ألف درهم وثمانية دراهم * (حلاوان) * أربعة آلاف ألف درهم
مرتين وثمانمائة ألف درهم * (الاهواز) * خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن
السكك ثلاثون ألف رطل * (فارس) * سبعة وعشرون ألف درهم ومن
ماء الورد ثلاثون ألف فارورة ومن الزيت الاسود عشرون ألف رطل * (كرمان) *
أربعة آلاف ألف درهم مرتين وما تان ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب
ومن القرم عشرون ألف رطل * (مكران) * أربع مائة ألف درهم مرة * (السند
وما يليه) * أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي
مائة وخمسون رطلا * (سجستان) * أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب
المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفايد عشرون رطلا * (خراسان) * ثمانية وعشرون
ألف ألف درهم مرتين ومن نقر القضة ألفانقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن
الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الاهليج ثلاثون ألف رطل
* (جرجان) * اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابرسم ألف شقة * (قوهس) *
ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر القضة * (طبرستان والرويان ونهاوند) *
ستمائة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبرى ستمائة قطعة ومن
الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلثمائة ومن الحمامات
ثلثمائة * (الري) * اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون
ألف رطل * (همدان) * أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن
رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة)
عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم * (ماسبدان والدينار) * أربعة
آلاف ألف درهم مرتين * (شهرزور) * ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة
ألف درهم * (الموصل وما إليها) * أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن

قوله والد دينار
الظاهر انها الدينور
وفي الترجمة التركية
ماسبدان ورويان اه

العسل الايض عشرون ألف ألف رطل * (اذربيجان) * أربعة آلاف ألف
درهم مرتين * (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) * أربعة وثلاثون ألف ألف
درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف رطل ومن البراة عشرة
ومن الاكسية عشرون * (ارمينية) * ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن
القط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المساجح السورماهي
عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهيرة
ثلاثون * (قنسرين) * أربع مائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل * (دمشق) *
أربع مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار * (الاردن) * سبعة وتسعون ألف
دينار * (فلسطين) * ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة
ألف رطل * (مصر) * ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار
* (برقة) * ألف ألف درهم مرتين * (افريقية) * ثلاثة عشر ألف ألف درهم
مرتين ومن البسط مائة وعشرون * (اليمن) * ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف
دينار سوى المتاع * (الحجاز) * ثلاثمائة ألف دينار انتهى * وأما الاندلس فالذي
ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة
آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جلتها بالقنطرة خمسمائة ألف قنطار
* ورأيت في بعض توارخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال في أيامه سبعة آلاف
قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض
ولا تنكرن ما ليس بعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند
ملء فم المكات فكثير من الخواص اذا سمعوا أمثال هذه الاخبار عن الدول السالفة
بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن
أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها في ما نحن اذا اعتبرنا ما ينقل
لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيدين وناسبتنا الصحيح من ذلك والذي لا شك
فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة اليها وجدنا بينها وبينها
بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران عمالها فالا تاركلها جارية على نسبة
الأصل في القوة كما قدمناه ولا بد لنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية
الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاني والمجاهد من آثار
البناء وغيره فخذ من الاحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها وضعفها وخصامتها
أو ضعفها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك أنه ورد
بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف

قوله ومن البراة
المن في التركية ومن
السكك عشرة
منا ديق اه

باب بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق
والبحرين والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل
بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوهر وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بذهب
المال كنية في علمه ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن
رحلته وما رأى من العجائب بما لا يصدق في الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب
الهندو يأتي من أحواله بما يستغرب السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى
السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر
تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس
ككافة الى صحراء البلاد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على
الظهر ترمى بها شكاثر الدراهم والدنانير على الناس الى أن يدخل ايوانه وأمثال هذه
الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه * ولقيت أيامه وزير السلطان فارس بن
وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكارا خبيرا بذلك الرجل لما
استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس اياك أن تستنكر مثل هذا
من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كالبوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيرا
اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس فلما أدرك وعقل سأل
عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها له
أبوه بشيائهم وزعوتهم فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من
الفأر وكذا في لحم الابل والبقر اذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات الا الفار فيحسبها
كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في
الزيادة عند قصد الاغراب كما قد مناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن
مهيئاً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما
دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق
فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حداً بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة
التي للشيء فانا اذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وصفه ومقدار عظمه وقوته أجرنا الحكم
من نسبة ذلك على أحواله وحكمه ما بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدني علماً
وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

كان ابتداء رحلته
ابن بطوطة سنة
٧٢٥ وانتهى بها
سنة ٧٥٤ وهي
عجبة ومختصة بها
نحو ٧٠٠ كرايساً

١٩ (فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبية بالموال والمصطنعين)

(اعلم) أن صاحب الدولة انما يتيم أمره كما قلناه بقومه فبهم عصايته وظهوره على شأنه

وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقاد أعمال مملكته ووزارته دولته وجباية
أحواله لانهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساھمونه في سائر مهماته هذا
مادام الطور الاول للدولة كما قلناه فاداء الطور الثاني وظهور الاستبداد عنهم
والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بازراح صاروا في حقيقة الامر من بعض أعدائه
واحتساج في مدافعهم عن الامر وصنعتهم عن المشاركة الى أولياء آخرين من غير
جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب اليه من سائرهم وأخص
به قرباً واصطناعاً وأولى ايثاراً وجاهلاً ما أنهم يستمتتون دونه في مدافعة قومه عن
الامر الذي كان لهم والرياسة التي ألغوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة
حينئذ ويخصهم بزيد التكرمة والايتار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم
جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به انفسه وتكون
خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة لانهم حينئذ أولياءه الأقربون ونصحاؤه
المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد
العصية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان
وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعودون بال ذلك على الدولة
ولا يطمع في برئها من هذا الداء لانه ماضى يتأ كد في الاعقاب الى أن يذهب رسمها
واعبر بذلك في دولة بني أمية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم
برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج
ابن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبيد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن
نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات
العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجالات العرب فلما
صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للبحر
والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوح وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل
بغاوصيف ونامش وبالكالة وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالى العجم
فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

٢٠ (فصل في احوال الموال والمصطنعين في الدول)

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمتهم
وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة
والمغالبة انما يتيم بالنسب لاجل التناصر في ذوي الارحام والقربى والتخاذل في

الاجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرقا وبالحلف تنزل منزلة ذلك لان
امر النسب وان كان طبعيا فانما هو وهمي والمعنى الذي كان به الاتهام انما هو
العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحة بالمربي والرضاع وسائر احوال الموت
والحياة واذا حصل الاتهام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا ما شهد بين الناس
واعتبر مثله في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من
الوصلة تنزل هذه المنزلة وتوصف كد اللحمة وان لم يكن نسب فتمرات النسب موجودة
فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقتها
اوضح وعقائدها اصح ونسبها اصرح لوجهين أحدهما أنهم قبل الملك اسوة في حالهم
فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فيتميزون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل
أرحامهم واذا اصطنعوا بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولاهل
القراية عن أهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميز الرتب
وتفاوتها فتميز حالهم ويتزلون منزلة الاجانب ويكون الاتهام بينهم أضعف والتناصر
لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك * الوجه الثاني أن الاصطناع
قبل الملك يعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويختل شأن تلك اللحمة ويظن بهم في
الاصطناع النسب فيقوى حال العصية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى في
معرفته الا كثر فتيين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصية بالنسبة الى الولاية
التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل
حصول الرياسة والملك اصطناعه تجده أشد التحامه وأقرب قرابة اليه ويتزل منه منزلة
أبنائه واخوانه وذوي رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه
لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا ما شهد باليمان حتى ان الدولة في آخر
عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كبناء المصطنعون قبل
الدولة تقرب العهد حينئذ باوليتهم ومشاركة الدولة على الانقراض فيكونون منخطين
في مهاوى الضعة وانما يحصل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن
اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة
وقلة الخضوع له ونظره بما ينظر به قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور
المتطاولة بالمربي والاتصال بابائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم
بذلك دالة عليه واعتزاز فينا فرهم بسيماها حب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال
سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويقيمون
على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصنائع

والاولياء على الاولين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولي المؤمنين وهو على
كل شيء وكيل

٢١ (فصل فيما يرضى في الدول من نجر السلطان والاستبداد عليه)

اذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القاعين بالدولة وانقر دوا به
ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيع فربما حدث
التغلب على المنصب من وزراءهم وحاشيتهم وسببه في الاصطناع ولا يهتدى بصبي صغير أو
مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو يترشح ذويه وخوله ويؤنس منه
المعجز عن القيام بالملك فيقوم به كافلة من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويورى
يحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي
عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوه اليها ترف أحواله ويسميه في مرأعها متى أمكنه
ويغيبه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ
السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب التحويل والقعود
مع النساء خلف الحجاب وان الحل والربط والامر والنهي ومباشرة الاحوال الملوكية
وتفقدتها من النظر في الجيش والمال والثغور وانما هو للوزير ويسلم له في ذلك الى أن
تستحكم له صيغة الرياسة والاستبداد ويحول الملك اليه ويؤثر به عشرينه وأبناءه من
بعده كما وقع لبني بوبه والترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق والمغربين أبي
عامر بالاندلس وقديتقطن ذلك المحجور المقلب لشأنه فيحاول على الخروج من رتبة
الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه اما يقتل
أو يرفع عن الرتبة فقط الا أن ذلك في النادر الاقل لان الدولة اذا أخذت في تغلب
الوزراء والاولياء استقر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن
أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق
الدايات والاطفار وروبوها عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبداد من تغلب انما
همهم في القنوع بالآبهة والتقن في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون
للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو
عارض للدولة ضروري كما قدمناه وهذا من رضائهم لبره للدولة منهما الا في الاقل
النادر والله يؤتي ملكه من يشاء وهو على كل شيء قدير

٢٢ (فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركون في القرب الخاص بالملك)

وذلك أن الملك والسلطان حصل لاوليه منذ أول الدولة بعصية قومه وعصيته التي

استبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها
انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا التغلب وان كان صاحب عصية من قبيل الملك أو
الموالي والصنائع فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في
الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من
الامر والنهي والحل والعقد والابرار والنقض يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن
سلطانه متفدى ذلك من وزراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته
وألقابه جهده ويعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في
استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أقول
الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصية وقبيل
الملك وحاولوا الاستثارة به دون ذلك لانه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له
والانقياد في تلك الاقل وهله وقد وقع مثل هذا العبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن
أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه
وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتابعة فطلب من هشام خليفته أن
يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قریش وبابيعوا لابن عم الخلافة
هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العاصرين
وهلاك المؤيد خليفته واستبدل منه سواء من أعيان الدولة الى آخرها واختلت
مراسم ملكهم والله خير الوارثين

قوله لنفسه بفتح
اللام والتسوية
وكسر الفاء يقال
نفس عليه الشيء
كفرح لم يره أهلا
له كما في القاموس

٢٣ (نصل في حقيقة الملك وامناذ)

الملك منصب طبيعي للانسان لا نأقدينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم
الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة
الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومذكر واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه
لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعها الاخر عنها
بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي الى
المقاتلة وهي تؤدي الى الهرج وسفك الدماء وازهاب النفوس المفضي ذلك الى انقطاع
النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالحفاظة فاستحال بقاءهم فوضي دون حاكم يزع
بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو مقتضى
الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصية لما قدمناه من أن
المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصية وهذا الملك كآراء منصب شريف توجه

نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك الا بالعصيات كما امر
والعصيات متفاوتة وكل عصية قلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها
وليس الملك لكل عصية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويحجب الاموال
ويبعث البعوث ويحكمى الثغور ولا تكون فوق يده قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته
في المشهور من قصرته به عصيته عن بعضها مثل حياية الثغور وأجباية الاموال أو
بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة
الاغالية بالقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرته به عصيته أيضا عن
الاستعلاء على جميع العصيات والضرب على سائر الأيدي وكان فوقه حكم غيره فهو
أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهو لا يمثل أمراء النواحي وروساء الجهات الذين
تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعني توجد ملوك
على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل مناجدة مع
العبيدين وزيارة مع الامويين تارة والعبيدين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة
بنى العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع القرقيصة قبل الاسلام ومثل ملوك
الطوائف من القرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثيرين هؤلاء فاعتبره بتجده
والله القاهر فوق عباده

٢٤ (نصل في ان ارباب الهدى من الملوك ومفسده في الاكثر)

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه
وجهه أو عظم جمته أو اتساع عمله أو جودة خطه أو ثقب ذهنه وانما مصطلحهم فيه
من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين
متنسين فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له
رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملكة
وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة يمكن حصل المقصود من
السلطان على أتم الوجوه فانها ان كانت جملة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت
سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واجلا كآلامهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان
الملك اذا كان قاهرا باطشيا بالعقوبات منقباع عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم
الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا به وافسدت بصرهم
وأخلاقهم وربما خذلوهم في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحياية بفساد النيات
وربما أجبروا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السامح وان دام أمرهم عليهم وقهره

فسدت العصية لما قلناه أو لا وقد السياح من أصله بالعجز عن الحماية وإذا كان
وفيقا بهم متجاوزا عن سببهم استناموا اليه ولا ذوابه وأشربوا محبته واستماتوا ودونه
في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة
عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم
فمن بجلد الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في الحب إلى الرعية وأعلم
أنه قلما تكون ملكة الرفق فمن يكون يقطا شديد الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد
الرفق في الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ
نظرة فيما وراء مداركهم وإطلاعهم على عواقب الأمور في مبادئها بالمعينة فيلكون
لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيرا على سيرا أضعفكم ومن هذا الباب اشترط الشارع
في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء وما أخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر عن
العراق وقال لم عزلتني يا أمير المؤمنين العجز أم نخبانة فقال عمر لم أعزلك لو واحدة منهما
ولكني كرهت أن أحل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرطا
الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمر بن العاصي لما يتبع ذلك من التعسف
وسوء الملكة وحل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير
المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه إفراط في
الفكر كما كان البلادة إفراط في الجود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية
والحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهوج
والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات
الشیطان فيقال شيطان ومشيطن وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

٢٥ (فصل في معنى الخلافة والامامة)

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر
الذان هما من آثار القضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن
الحق محقة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لجهلهم في الغالب على ما ليس في
طوقهم من أغراض وشهوات ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف
منهم فمعسر طاعته لذلك وتحتج العصية المقضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع
في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما
كان ذلك للقرن وغيرهم من الأمم وإذا دخلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب
أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فإذا كانت هذه القوانين

مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت
مفروضة من الله بشارع يفرضها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا
وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ
غاية الموت والفناء والله يقول أخسبتم أمنا خلقناكم عبثا فالمقصود بهم انما هو دنياهم
المقضى بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض
فجاءت الشرائع بمحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك
الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا
بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة الغضبية في مرعاها
فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى
السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من
نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو غيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر
كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هي أعمالكم ترد
عليكم وأحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة
الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حل الكافة
على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة
وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان
الملك الطبيعي هو حل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حل
الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة
هي حل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية
الراجعة اليها إذا حوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة
فهو في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم
ذلك واعتبره فيما نورد عليك من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ (فصل في اختلاف الامم في حكم نزع المنصب وشروطه)

واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة
الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة وامام فاما تسميته اماما فتشبه بابامام
الصلاة في اتباعه والاقديام به ولهذا يقال الامامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه
يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته
خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي لا دمين في قوله تعالى اني

جاء في الارض خليفة وقوله جعلكم خلافة الارض ومنع الجهور منه لان معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اجماع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته باذروا الى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه في امورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الاعصار واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى أن مدركه وجوبه العقل وأن الاجماع الذي وقع انما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فإلّا يمكن الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نهى عن فسادهم وان احدى مقدماته أن الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكفاية تسليما ايمانا واعتقادا وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم الجوس وغيرهم من ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاهم أن ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود رؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظام فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدركه وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذي قدمناه وقد شد بعض الناس بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عندهم هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت الامة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالاجماع والذي جعلهم على هذا المذهب انما هو القرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستتاع بالدين المار والشرعية ممتلئة بدم ذلك والنبي على أهله ومن غيبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المقاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والفتنة بالذات ولا شك أن في هذه مقاسد محظورة وهي من تواليه كما أتى على العدل والصفة واقامة من اسم الدين والذب عنه وأوجب ياراتها الثواب وهي كلها من تواع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة

وحال دون حال اخرى ولم يثمة لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكيفية ادعابة الضرورة اليها وانما المراد قصر يقضهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده ثم يقول لهم ان هذا القرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئا لانكم موافقون على وجوب اقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصية والشوكة والعصية مقتضية بطبعها الملك فيحصل الملك وان لم ينصب امام وهو عين ما فرددتم عنه واذا تقررت أن هذا النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلاف في شرط خامس وهو النسب القرشي فأما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لأحكام الله تعالى اذا كان عالما بما وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يمكن من العلم الا أن يكون مجتهدا الآن التقليد نقص والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال وأما العدالة فلانه منصب ديني يتطرق في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بغش الخوارج من ارتكاب المخطورات وأمثالها وفي انتفاءها ليدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريا على اقامة الحدود واقحام الحروب بصيرا بها كغيرها يحمل الناس عليها عارفا بالعصية واحوال الدعاة وقوا على معاناة السياسة ليصح له بذل ما جعل اليه من حياية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدبير المصالح وأما سلامة الخواص والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقه من الاعضاء في العمل ككفة اليد والرجلين والاثنيين فمشرط السلامة منها كلها التأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انما يشين في النظر فقط كفقاد احدى هذه الاعضاء فمشرط السلامة منه شرط كمال ويطبق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جلة بالامر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الجبر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة فينتقل النظر في حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحيد السياسة جازا قراره والاستتصار المسلمون عن بعض يده عن ذلك ويدفع عنه حتى يتصدق فعل خليفة

وأما النسب القرشي فلا جماع العصابة يوم السقيفة على ذلك واحتج قريش على
الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد وقالوا منكم أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله
عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نجتمع إلى
محمد بنكم وتجاوز عن مبشركم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فنجوا
الانصار ورجعوا عن قولهم منكم أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة
سعد لذلك وبنت أيضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحني من قريش وأمثال
هذه الادلة كثيرة الا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف
والنعيم وبما أفقتهم الدولة في سائر أقطار الارض وعجزوا بذلك عن حمل الخلافة
وتغلبت عليهم الامايج وصاروا ليل والعقل لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى
ذهبوا إلى أن اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه
وسلم اسمعوا وأطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي ذو زبينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك
فانه خرج مخرج التمثيل والفرض لا مباينة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر
لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليت له ولما دخلتني فيه الظنة وهو أيضا لا يقيد ذلك لما
علت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولي القوم منهم وعصية الولا حاصله لسالم
في قريش وهي القائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها
كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من
النسب المقيد للعصية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فرآه غير محتاج اليه اذا القائدة
في النسب انما هي العصية وهي حاصله من الولا فكان ذلك حراما من غير رضي الله
عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لم لا يطعمه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن
القائلين بنى اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصية قريش
من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية
وان كان موافقا لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهد وبقى الجمهور على
القول باشتراطها وصحة الامامة للقريش ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ورد
عليهم سقوط شرط الكفاية التي يعزى بها على أمره لانه اذا ذهبت الشوكه بذهاب
العصية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا إلى
العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع * ولتسكلم الآن
في حكمة اشتراط النسب ليحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول ان الاحكام
الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا
بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصود الشارع منه لم يقتصر فيه على

التبر لوصول النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وان كانت تلك الوصية
موجودة والتبر لشيء جاحلا لكن التبر ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد
اذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيها واذا سبرنا وقسمنا لم
نجدها الا اعتبار العصية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة
بوجودها صاحب المنصب فتسكن اليه الملة وأهلها وينتظم حيل الافة في ذلك
أن قريشا كانوا عصبة مطروا أصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة
بالكثرة والعصية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكفون الغلب
فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بجماعتهم وعدم اتقيادهم ولا يقدر
غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يجعلهم على الكثرة فتتفرق الجماعة
وتختلف الكلمة والشارع يحذر من ذلك حريصا على اتفاهم ورفع التنازع والشتات
بينهم لتحصل اللجعة والعصية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم
قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يرايد منهم فلا يحصى من أحد خلاف عليهم
ولا فرقة لانهم كفيون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشتراط نسبهم القرشي في هذا
المنصب وهم أهل العصية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا
انتظمت كلمتهم انتظمت باتظامها كلمة مضر أجمع فاذعن لهم سائر العرب وانقادت
الامم سواهم الى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات
واستمر بعدها في الدولتين الى أن اضمحلت أمر الخلافة وتلاشت عصية العرب ويعلم
ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب
وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم * وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السيرة وغيره
فاذا ثبت أن اشتراط القرشية انما هو لدفع التنازع عما كان لهم من العصية والغلب
وعلمنا أن الشارع لا يخص الاحكام بحيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك انما هو من
الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود
العصية فاشتربنا في القائم بامور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصية قوية عالية
على من معها العصرها ليستيعوا من سواهم ويجمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم
ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذا الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت
عامة وعصية العرب كانت واقية بها فغلبوا سائر الامم وانما يخص هذا العهد كل
قطر عن تكون له فيه العصية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا
لانه سبحانه انما جعل الخليفة ناسا عنه في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم
ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الا من له قدرة عليه ألا ترى

قوله الامام الخطيب
هو الفخر الرازي قاله
نصره اه معصمه

ما ذكره الامام ابن الخطيب في شأن النساء وانهم في كثير من الاحكام الشرعية جعلوا
تعالل رجال ولم يدخلوا في الخطاب بالوضع وانما دخلوا عنده بالقياس وذلك لما لم يكن
لهم من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل أحد فيها
قائم على نفسه فخطابهم فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم
بامر أمة أو جميل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالف لادام
الوجودي والله تعالى أعلم

﴿ فصل في مذاهب الشيعة في علم الامامة ﴾

٢٧

(اعلم) ان الشيعة لغة علم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من
الخلق والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين
عليه ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويتعين القائم بها
بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لتبني اغفاله ولا تفويضه الى
الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبار والصغار
وان عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها
ويؤثرونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقله الشريعة بل أكثرها
موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص
عندهم الى جلي وخبى فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرده هذه
الولاية الا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله
أقضاكم علي ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الامر الواجبة
طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم والمراد الحكم
والقضاء ولهذا كان حكما في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من
يأبى علي روجه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا علي ومن الخفى
عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أترلت
فانه بعث بها أولا بأبكر ثم أوحى اليه ليلقه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون
القاري المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وأيضا فلم يعرف أنه قد تم أحد اعلى علي
وأما أبو بكر وعمر فقد تم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر بن العاصي أخرى
وهذه كلها أدلة شاهدة تعين على الخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو
بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه
وكذلك تنقل منه الى من بعده وهو لاهم الامامية ويتبرون عن الشيخين حيث لم

يقدموا

يقدموا عليا ويأبوه بمقتضى هذه النصوص ويغضون في امامتهم ولا يلتفت
الى نقل القدح فيهم ما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه
الدلة انما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا
الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرون من الشيخين ولا يغضون في امامتهم
مع قولهم بأن عليا أفضل منهما لكنهم يجوزون امامة المفضل مع وجود الأفضل ثم
اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة
بالنص عليهم واحد بعد واحد على ما ذكر بعد هؤلاء يسمون الامامية نسبة الى
مقاتلتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في
ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ وبشروط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا
جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب
وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط
الخروج في الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا
نعرض للخروج وكان مع ذلك ينسب عليه مذهب المعتزلة وأخذوا بها عن واصل بن
عطاء ولما تناظر الامامية زيدا في امامة الشيخين ورأوه يقول بامامتهم ما لا يتبرأ منهم
رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيها السبطين
على اختلافهم في ذلك الى أخيهما محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى
كيسان مولاهم وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركاها اختصارا ومنهم طوائف
يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان في القول بالوهمية هؤلاء الائمة اما على انهم
بشر اتصفوا بصفات الالهية أو ان الاله حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول
يوافق مذهب النصاري في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار
من ذهب فيه الى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد الله بلغة مثل ذلك
عنه فصرح بلغته والبراقعة وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن
بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذامات انتقلت
روحهم الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالشامخ ومن هؤلاء الغلاة من
يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزوه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم
الواقعية فيهم يقول هو حي لم يمت الا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك
بقصة الخضر قبل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه في السحاب والرعذونه والبرق
في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وانه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال
شاعرهم

ألا ان الأئمة من قريش * ولاية الحق أربعة سواء
على والولاية من بني * هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيط سبط ايمان وبر * وسبط غيبته كبر بلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من
أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري وبقبونه المهدي دخل في ستر داب يدارهم بالحلة
وتغيب حين اعتقل مع أمته وغاب هناك وهو يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلا
يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم إلى الآن ينتظرونه
ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد
قدموا امر ك باقمة فون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينقضون
ويرجعون الأمر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقعة
يقول ان الامام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ويستهبدون لذلك ما وقع في القرآن
الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقيل في إسرائيل حين ضرب
بعظام البقرة التي أمر وايدبحها وشمل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق
المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحيري ومن
شعره في ذلك

إذا ما المرء شاب له قبال * وعليه المواشط بالخصاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم يا صاح بك على الشباب
إلى يوم تنوب الناس فيه * إلى دنياهم وقيل الحساب
فليس بعائد ما فات منه * إلى أحمد إلى يوم الاياب
أدين بأن ذلك دين حق * وما أتاني التشور بذي ارتياب
كذلك الله أخبر عن آماس * حيوان بعد درس في التراب

وقد كفا باموته هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويطلون احتجاجاتهم
عليها وأما الكيسانية فساووا الامامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم
وهو لا هم الهاشمية ثم افترقوا منهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسين بن
علي وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفا من الشام أوصى إلى
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه ابراهيم المعروف بالامام وأوصى
ابراهيم إلى أخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالفاح وأوصى هو إلى أخيه عبد الله

أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحد بعد واحد إلى
آخرهم وهذا مذهب الهاشمية الثمانية بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان
ابن كثير وأبو سلة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية ورعا بعضهم ذلك بأن حقهم
في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لانه كان حيا وقت الوفاة وهو أولي بالوراثه بعصية
العمومة وأما الزيدية فساووا الامامة على مذبحهم فيها وأتم باختيار أهل الغل
والعقد لا بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسين ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين
العابد بن ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى
الامامة فقتل وضرب بالسكينة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فضى إلى
خراسان وقتل بالخوارجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن
السيطي ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءه عساكر المنصور
فقتل وعهد إلى أخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم
المنصور عساكره فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله
وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس
الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم
بالطالقان فقبض عليه وسبق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من
الزيدية أن الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع ابراهيم بن عبد الله
في قتاله مع المنصور ونقاوا الامامة في عقبه واليه اتسب دعي الزنج كما نذكره في
أخبارهم وقال آخرون من الزيدية أن الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس
الذي فر إلى المغرب ومات هناك وقام بأمره ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من
بعده عقبه ملوك بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد
ذلك غير منظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن
اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة
في الديلم الناصر الاطروش منهم وأسلوا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن
عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنه بطبرستان دولة وتوسل الديلم من نسبهم إلى الملك
والاستبداد على الخلفاء بغداد كما نذكر في أخبارهم وأما الامامية فساووا الامامة
من علي الرضا إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه علي زين العابدين ثم
إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هذا افترقوا فرقة ساقوها إلى
ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى
الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وتوابعهم بغيبته إلى آخر

الزمان كما مرنا أما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنص من آية جعفر
وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل آية انما هو بقاء الامامة في عقبه
كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى
ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين لأن الامام عندهم قد لا يكون له شوكة
فيسترون دعائه ظاهرين إقامة للعبة على الخلق وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر
دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعد ابنه محمد الحبيب وهو آخر
المستورين وبعد ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في
كامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان
والغريب وملك بنوه من بعدهم مراكها ومعروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية
نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون أيضا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن
أي المستور ويسمون أيضا الملقدة لما في ضمن مقالاتهم من الاتحاد ولهم مقالات قديمة
ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصونا
بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيهم الى أن توزعها الهلاليين ملوك الترك بمصر وملوك
التر بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل
لشهرستاني • وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم
فقالوا بامامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق لوفاء أخيه الأكبر اسمعيل الامام في
حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المؤمنون
ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن
العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قد مناه قبل وفي كل واحدة من هذه
المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها
ومطالعها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن خزم والشهرستاني وغيرهما فسيبان ذلك
والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

❖ (فصل في انقلاب الخلافة الى الملك) ❖

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوه عنها اختيار انما هو بضرورة الوجود
وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد
فيه من العصية إذ المطالبة لا تتم الا بها كما قد مناه فالعصية ضرورة للملك وبوجودها
يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع
قد ذم العصية ونادى الى اطراحها وتركها فقال ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية

قوله عبية الجاهلية
قال المجد والعبية
وبالكسر الكبير
والنحر والنخوة اه
منه

ونحوها

ونحوها لا بآء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم
ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونهى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلق
والاسراف في غير القصد والتسكيب عن صراط الله وانما حض على الالفة في الدين
وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية
للاخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال
البشر أو يندب الى تركها مهاله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ
عليها بالكلية انما قصده نصريتها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير
المقاصد كلها حقا وتجدد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله
ورسوله فلهجرت الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها
فهجرته الى ما هاجر اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزع من الانسان فانه لو زالت
منه قوة الغضب لقدم منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب
للسيطان وللأغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموما وإذا كان
الغضب في الله والله كان محمودا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات
أيضاً ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد
نصريتها فيما أبيع له باشماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوعا لا واما
الالهية وكذا العصية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فانما
مراده حيث تكون العصية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون
لا حذر فيها أو حق على أحد لان ذلك يجان من أفعال العقلاء وغيرنا في الاخرة
التي هي دار القرار فاما اذا كانت العصية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو
بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما
ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومرعاة المصالح وانما ذمته
لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الأدميين طوعا لا غرضا والشهوات كما قلناه
فلو كان الملك محاصفا غلبه الناس أنه لله وللهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن
ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي
لم أعلم من نفسه أنه يعزل عن الباطل في النبوة والملك * ولما تقي معاوية عمر بن
الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه الى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة
استنكر ذلك وقال اكسروني يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين انافي نغرتجاه العدو وبنا
الى مباهايتهم بزيه الحرب والجهاد حاجة فكت ولم يخطئه لما احتج عليه بقصد من
مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنع هذا الجواب في تلك

ل

خطبه

٢٢

الكسروية واتحاليها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما أراد عسر
بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي
وسلوك سبله والغفلة عن الله واجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس
وباطلهم وانما قصدهم باوجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك
وأحواله ونسيان عوائده حذر من التباسه بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله
عليه وسلم استخلف أبابكر عن الصلاة اذ هي أهم أمور الدين وارتضاء الناس للخلافة
وهي حل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجز للملك ذلك لئلا يظن أنه مظنة للباطل
ونحوه يومئذ لاهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه
وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقضى أثره وقاتل الامم
فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه واقتزعوهم منهم
ثم ضارت الى عثمان بن عفان ثم الى علي رضي الله عنهما والكل متبرؤن من الملك
منهم عن طريقه وكذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبداوة
العرب فقد كانوا بعد الامم عن أحوال الدنيا وترفعها لامن حيث دينهم الذي يدعونه
الى الزهد في الدعيم ولامن حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش
وشظفه الذي ألفوه فلم تكن أمة من الامم أسغب عيشاً من مضرب ما كانوا بالحجاز في
أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياق وجيوبها بالبعدها
واختصاصها بمن وإيها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يطاولون الى خصبها ولقد كانوا
كثيراً ما يأكلون العقارب والخناسس ويفخرون بأكل العلحز وهو وبر الابل يمهونه
بالجحارة في الدم ويطنخونه وقرى يامن هذا كانت حال قريش في مطاعهم ومساكنهم
حتى اذا اجتمعت عصية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم زحفوا الى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعدهم الصدق
فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزحرت بحمار الرفه لديهم حتى كان الفارس
الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب وأنحوها فاستولوا من ذلك
على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرفع ثوبه بالجلد
وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء غزى غزى وكان أبو موسى يتجاني عن أكل
الدجاج لانه لم يعهدا للعرب لقلتها ومثد وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما
كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسهم مع هذا أتم ما كانت لاحد من أهل العالم قال
المنعودي في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خزانه
نخسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي اقرى وحينئذ

وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلاً كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير
بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وصككت غلة طلحة
من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان علي حريصاً
عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من
متروكه بعد وفاته أربعة وعشرين ألفاً وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان
يكسبه بالفوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبني الزبير داره
بالبصرة وكذلك بني بصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد
داره بالمدينة وبنهاها بالحص والاحمر والساج وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق
ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات وبني المقداد داره بالمدينة
وجعلها بمحصة الظاهر والباطن وخلف علي بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير
ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم أهكلام المعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم
يكن ذلك من مبعاعهم في دينهم اذ هي أموال حلال لانها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم
فيها بأسراف انما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان
كان الاستكثار من الدنيا مذموماً فإتباعهم يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج
به عن القصد واذا كان حالهم قصداً وندقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك
الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة
والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العvisية كما قلناه وحصل
التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرنه والاستكثار من الاموال
فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق *
ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العvisية كن طريقهم فيها الحق
والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنوي أو لا يثار باطل أو لا يستشعار حقد كما قد
يتوهم متوهم وينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد
نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتلوا عليه وان كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً
فيها بقصد الباطل انما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت
طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه
وقرمة فهو أمر طبيعي ساقته العvisية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على
طريقة معاوية في اقتناء الحق من أتباعهم قاعصوا صوابه واستماتوا بدونه ولو
جملهم معاوية على غير تلك الطريقة ومخالفتهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة
التي كان جمعها وتآلفها أهم عليه من أحمر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الامر شيء
لوليت الخلافة ولو اراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل
والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لثلاث قفرقة وهذا كله انما جعل عليه
منازع الملك التي هي مقتضى العصية فالملك اذا حصل وفرضنا أن الواحد انفراد به
وضرقة في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه
داود وصالوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به
وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة
بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا
عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن
لعهده اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله معاوية من ذلك وكذلك كان
مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة
والبغي انما كانوا متحيزين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل
خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من
الاتباع والاعتداع وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطن بعمل عبد الملك
وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعد التهم معروفة ثم تدرج الامر
في ولاد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز
ففرغ الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم يميل ثم جاء خلفهم واستعملوا
طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرري
القصديها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك عماد الناس الى أن نعوا عليهم
افعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بجان
وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان
منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر الى بنيهم فأعطوا الملك والترفع حقه وانغمسوا
في الدنيا وباطلها ونسوا الدين وراءهم ظهرياً فأتى الله بحجرهم وانتزع الامر من
أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء
الخلفاء والملوك واختلافهم في تحرري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى
المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عومته وذكروا
بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالى بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه
وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عيمان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية
ضابطين لما عهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسخيم

معالي الامور ورخصهم دنيا حتى افضى الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همستهم
قصدا للشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باس تدراجهم وأما المكر مع
اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلهم
الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استخضر عبد الله بن مروان فقص عليه
خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضه فأرأى أيام السفاح قال أقت ملء اثم أثنى ملككم
فقد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على
ثيابنا فقال اني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لم
تشر بون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال
للم قاطون الزرع بدوا بكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا يصيهم
قال فلم تلبسون الديباج والذهب والخير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا
الملك واتصرا يقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكت
يده في الارض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه الى وقال
أيس كما ذكرتم بل أنتم قوم استحلتم ما حرم الله عليكم وأنتم ما عنه نهيتهم وظلمتم
فيما ملكتهم فسلبكم الله العز والبسكم الذل بذنوبكم والله نقمة لم تباع غايتها فيكم وأنا
خائف أن يحمل بكم العذاب وأنتم يلبس فينا النجاسة معكم وانما الضيافة ثلاث قفرقة
ما احتجبت اليه وارتمل عن أرضي فتجب المنصور وأطرق فقد تين لك كيف انقلب
الخلافة الى الملك وأن الامر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو
الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان أقضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة
فهذا عثمان لما حصر في الدار جاء الحسن والحسين وعبد الله بن عمرو بن جعفر
وأما لهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سيل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة
وحفظا للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى الى هلاكه وهذا على اشار عليه المغيرة
لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلمة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته
وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرار من
الغش الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس
بما أشرت ثم عدت الى نظري فقلت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته
أنت فقال على لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالامس وغششتني اليوم ولكن منعني عما
أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم فساد دنياهم ونحو
نرفع دنيانا بقرى ديننا * فلا ديننا يقي ولا ما نرفع
فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحرري الدين

قوله عبد الله
كذا في النسخة
التونسية وبعض
القاسية وفي بعضها
عبد الملك وأظنه
تصحيفا قاله نصر

ومذاهنه والجرى على منهاج الحق ولم يظهر تغير الا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب
عصية وسفاهة ~~كذا~~ كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر
الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق
الا اسمها وصار الامر ملكاً بحتاً وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في
اغراضها من القهر والتغلب في الشهوات والآلاذ ~~كذا~~ كان الامر لولد عبد
الملك وابن جابعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصية العرب
والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها
بذهاب عصية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الامر ملكاً بحتاً كما كان
الشأن في ملوك العجم بالشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركوا والملك بجميع ألقابه
ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناة بالمغرب مثل صنهاجة مع
العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيدين بالقيروان
فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أو لائم التبت معانيها واختلطت ثم انقرض
الملك حيث افرقت عصيته من عصية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد
القهار

السبعة بفتح الموحدة
أما بكسر هاء على
وزن شبعة يكون
الباء فيهما فهي
معبد النصاري اهـ

٢٩ (فصل في معنى البيعة)

اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة ~~كذا~~ كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له
النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا يئازره في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من
الامر على المنشط والمنكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده
تأكيد للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة
مصاحفة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث
في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه
بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كان الخلفاء يستخفون على العهد ويستوعبون
الايمان كلها لذلك نسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الأكرام فيها أكثر وأغلب
ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط عيم الأكرام أنكرها الولاة عليه ورأوها
قادرة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه وأما البيعة
المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك ~~كذا~~ كسروية من تقبيل الارض أو اليد
أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان
هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى

صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصاحفة أيدي الناس التي هي الحقيقة في
الاصل لما في المصاحفة لكل أحد من التنزل والاستدال المتنافين للرياسة وضون
المنصب الملوكي الا في الاقل عن يقصد التواضع من الملوك فإخذ به نفسه مع خواصه
ومشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكيد على الانسان
معرفة ما يلزمه من حق سلطانته وامامه ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك من
أفعالك مع الملوك والله القوي العزيز

٣٠ (فصل في ولاية العهد)

اعلم اننا قد تناولنا الكلام في الامامة ومشروعيتها المتألفين من المصلحة وأن حقيقة النظر في
مصالح الأمة لدينهم وديناهم فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع
ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقوم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويتقون
بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الأمة على
جوازها وانعقادها اذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب وأجازوه
وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى
الى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين فقوس بعضهم الى بعض
حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهدوا نظر المسلمين فوجدهم متفقين على
عثمان وعلى علي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقه اياه على لزوم الاقتداء بالشخين
في كل ما يعين دون اجتهاده فانه قد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من
الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم يشكروا أحد منهم ندل على أنهم متفقون على
صحته هذا العهد عارفون بمشروعيتها والاجماع حجة كما عرف ولا يتهم الامام في هذا الامر
وان عهد الى ابيه أو ابنه لانه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتل فيها بيعة
بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد أولي خصص التهمة بالولد دون الوالد
فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من اشارة مصلحة
أو توقع مفيدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان
فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية لا يشار ابنه يزيد بالعهد
دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل
الحل والعقد عليه حيث نمت من بني أمية اذ بنو أمية لم يمدوا ليرضون سواهم وهم عصابة
قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره من يظن أنه أولى بها
وعدل عن القاضل الى المفضل حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء التي شأنه أهم

عند الشارع وان كان لا يظن معاوية غير هذا فعدا لته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضوراً كابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دلائل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذ العزة في قبول الحق فانهم كلهم أجل من ذلك وعدا لته مانعة منه وفرار عبد الله بن عمر عن ذلك انما هو محمول على تورعته من الدخول في شيء من الامور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان بن أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم ايشاراً بنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشانهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكوا كل من يسهو الى ذلك الى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الذي قد ضعف واحتج الى الوازع السلطاني والعصاني فلو عهد الى غير من يرتضيه الاصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف * سأل رجل علياً رضي الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لان أبا بكر وعمر كانوا المبينين علي مثلي وأنا اليوم والى علي مثلك يثيروني وازع الدين أفلا ترى الى المأمون لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا العثم ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى بادر المأمون من خراسان الى بغداد وورداً أمرهم لمعاودة فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفاً من الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الانبياء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفاً من العيب بالمنصب الدينية والملك لله يؤتبه من يشاء * وعرض هنا أمور تدعو الضرورة الى بيان الحق فيها * فالاول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافة فابالأن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد فانه أعذل من ذلك وأفضل بل كان يعدله أيام حياته في سماع

الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاحيهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فذهب من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من أباه لما فيه من اثار الفسنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصا بني أمية وجهور أهل الحل والعقد من قريش وتستبغ عصية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقارنتهم فأقصر واعن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين فقا صدهم في البر وتجرى الحق معروفه وفقنا الله للاقتداء بهم * والامر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال ان أعهد فقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر وان أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن علياً علم أنه لم يوص ولا عهد الى أحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزنمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة وكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة ولما كان يشتر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لديننا ناديل على أن الوصية لم تقع وبدل ذلك أيضاً على أن أمر الامامة والعهد بهما لم يكن مهما كما هو اليوم وشأن العصية المراجعة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستمالة الناس دونه وذلك من أجل الاحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لتصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصية لما شغل الناس من صبغة الانقياد والادعان وما يستقرهم من تنابع المعجزات الخارقة والاحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجوا منها ودهشوا من تابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه

الانواع منسوبة في ذلك القيسل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات
ثم بقضاء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق
وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من
المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بينهما من المهمات الا كيدة كما
زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم
غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت
الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل
والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الامور للائمة على الحماية
والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن القرقة والتخاذل ومنشأ
الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والامر الثالث شأن
الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم انما يقع في
الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المتعبرة والمجتهدون
اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم
يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تتعين باجماع فيسبى الكل على احتمال الاصابة
ولا يتعين المخطئ منها والتأثير مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل
مجتهد مصيب فأحرى بنى الخطا والتأثير وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين
انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية فنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في
الاسلام انما هو واقعة على مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع
يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة على فان الناس كانوا عند مقتل عثمان
مفترقين في الامصار فلم يشهدوا بيعة على والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف
حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن
شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة
وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخنف وفضالة بن عبيد
وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته أيضا الى الطلب
بدم عثمان وتركوا الامر فوضي حتى يكون شوري بين المسلمين لمن يولونه ووطنوا به على
هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لافي الممالاة عليه فخاش الله من ذلك
ولقد كان معاوية اذا صرح بعلامته انما يوجهها عليه في سكوتة فقط ثم اختلفوا بعد
ذلك فرأى على أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجماع من اجتمع عليها
بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الامر في المطالبة بدم

عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيمكن حينئذ من ذلك ورأى الاخرون
أن بيعته لم تنعقد لاقتراح الصحابة أهل الحل والعقد بالافاق ولم يحضر الا قليل
ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعدد من ولاها من غيرهم أو من
القليل منهم وأن المسلمين حينئذ فوضي فيطالبون أو لا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام
وذهب الى هذا معاوية وعمر بن العاصي وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله
وطحمة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على
رأيهم من الصحابة الذين تخلقوا عن بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الا أن أهل العصر
الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيهم
فيما ذهب اليه وتعين الخطا من جهة معاوية ومن كان على رأيهم وخصوصا طلحة
والزبير لا تتقاضاهما على بيعة البيعة فيماتنقل مع دفع التأثير عن كل من الفريقين
كالشأن في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل
العصر الاول كما هو معروف واقدر على رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال
والذي نفسي بيده لا يموت أحد من هؤلاء موقله نقي الا دخل الجنة يشيرا الى الفريقين
نقله الطبري وغيره فلا يقنع عند ذلك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك
فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم انما هي عن المتندات وعدالتهم مفروغ منها عند
أهل السنة الاقوال للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولا عرج
عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان
واختلاف الصحابة من بعده وعلت أنها كانت قسنة ابتلى الله بها الامة بينا المسلمون
قد أذهب الله عدوهم وملكهم أرضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم
بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكنأ كثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم
يتكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا
بخلقه مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينه
الايمن واذا بهم عند استفعال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من
قريش وكثانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الاقارب الى الايمان
فاستكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرة هم
ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة
والازد من اليمن وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والانتفاة عليهم
والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداد عليهم والطعن فيهم
بالعجز عن السرية والعدل في القسم عن السوية وفشت القالة بذلك وانتهت الى

المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر
بعث ابن عمرو ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمر شيئاً
ولارأوا عليهم طعناراً وذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار وما زالت
الشاعات تنوور في الوليد بن عتبة وهو على الكوفة يشرب الخمر وشهد عليه جماعة
منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال وشكوا
إلى عائشة وعلى والزبير وطهعة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم
بل وقد سعيده بن العاصي وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم
انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل
فأبى إلا أن يكون على جرحه ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك
بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك ثم تجمع قوم من القوغاء وجاءوا إلى المدينة فيظهرون
طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة
ومصر وقام معهم في ذلك على وعائشة والزبير وطهعة وغيرهم يحاولون تسكين
الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فأنصرفوا قليلاً ثم رجعوا وقد
أبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم
وحلف عثمان على ذلك فقالوا أمكان من مروان فانه كاتبك خلف مروان فقال عثمان
ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بدانه ثم يتوعد على حين غفلة من الناس
وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما رقع وكاهم كانوا مهمين بأمر الدين
ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على
أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم إلا خيراً لما شهدنا به أحوالهم ومقالات الصادق
فيهم * وأما الحسين فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة
أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فقرأى الحسين أن الخروج على
يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك وظنهم من نفسه بأهليته
وشوكته فأما الأهلوية فكانت كما ظن وزبادة وأما الشيعة فغلط بوجه الله فيها
لأن عصية مضر كانت في قريش وعصية قريش في عبيد مناف وعصية عبيد مناف إنما
كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونها وإنما هي ذلك أول
الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة
المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصية الجاهلية ومنازعتها ونسيت ولم يبق إلا
العصية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين والدين
فيما يحكمهم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم

بعض الشيء للعوائد فعادت العصية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني
أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تبين للغلط الحسين إلا أنه في أمر
دينوي لا يضرم الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان
ظنه القدرة على ذلك ولقد عدله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه
وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلظه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراه الله
وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن
التابعين لهم قرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج
والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أنعموه لانه مجتهد وهو
أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثير هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم
عن نصره فانهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين
يستشهد بهم وهو يقاتل بكر بلا على فضله وحقه ويقول سألوا جابر بن عبد الله
وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكروا
عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن
اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان
كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحمد الشافعي والمالكي الحنفى على شرب
النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن
اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقول أن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجز
هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما تنفذ من أعمال الفاسق ما كان
مشروعاً وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الامام العادل وهو مفقود
في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه
والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على
حق أيضاً واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في
كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط
جملته عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته
وعدالته في قتال أهل الآراء * وأما ابن الزبير فانه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن
كما ظن وغلطه في أمر الشيعة أعظم لأن بني أمية لا يقاتلوا بني أمية في جاهلية
ولا اسلام والقول بتعين الخطا في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل
إليه لأن الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجد ههنا * وأما يزيد فعين خطاه فسقه
وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعبد الله احتياج مالك

بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالجواز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعته ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة من وان ابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون مجبولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منهما والقول الذي نزل به بعد تقرير ما قررنا من بيعته على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحرره الحق وهذا هو الذي ينبغي أن تعمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة واذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقول خيرا للناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفسدوا الكذب فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الاول والذي يليه فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لاحد منهم ولا يشوش قلبك بالريب في شئ مما وقع منهم والتمس لهم مذهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا أو قتلوا الا في سبيل جهاد أو اظهار حق واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقمدي كل واحد من يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شئ قدير واليه المرجع والمصير والله تعالى أعلم

٣٢ (فصل في الخطط الدينية بخلافية)

لمباين أن حقيقة الخلافية نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فيقتضي التكليف الشرعية الذي هو أمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فيقتضي رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدّمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعايته مصالحه كذلك لا يفسدان أهملت وقدّمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح ثم انما تكون أكمل اذا كانت بالاحكام الشرعية لانه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يتدرج تحت الخلافية اذا كان اسلاميا ويكون من توابعها وقد يتفرد اذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتوزع على رجال الدولة ووظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلفائي وان كان الملك يتدرج تحتها بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراقب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين فإندكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافية ونرجع

الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافية فكانها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وادخلها فيها العموم نظرا للخلافية وتصرّفها في سائر أحوال الملة الدينية والدينية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فاما امامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافية ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدينا فإقولوا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معتدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مختصة بقرى ومجملات وليست للصلوات العامة فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع الى الخليفة أو من يفوض اليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الامام في الصلوات الخمس والجمعة والعيد من والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولثلايقات الرعايا عليه في شئ من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا وأما المساجد المختصة بقرى ومجملات فأمرها راجع الى الجيران ولا يحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها مغروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الاحكام السلطانية للمأوردي وغيره فلا تطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يخلدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد ذلك بما شرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الاموية من بعدهم استشارا بها واستعظما لرتبتها يحكي عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي الاعن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فان في تأخيرها فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم وديانهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيد من والجمعة اشادة وتنويعها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم وأما القضاة والخلفاء فيصحبهم أهل العلم والتدريس ورد القضاة الى من هو أهل لها واعانتهم على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لانها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لا تعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس والمدرسين

الاتصاف بتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليهم والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنع عن التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدى ويضل به المسترشد وفي الاثر أجروكم على الفتيا أجروكم على جرائم جهنم قل للسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجب المصلحة من اجازة أو رد * وأما قضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسم اللداعي وقطع المنازاع الا أنه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومن درجاني عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وقوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريح بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذه وأس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك البيضة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الاصلح أحل حراماً وحرم حلالاً ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل الفهم الفهم فيما تلج في صدره مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها واجعل ان ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدا ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه والاستحالة القضية عليه فان ذلك أنقضى للشك وأجلى للعلماء المسلمون عدول بعضهم على بعض الامجاد في حد أو محجراً عليه شهادة زوراً وطينة في نسب أو ولاء فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات والبال والقلق والخبر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في موطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكروا السلام انتهى كتاب عمر وانما كانوا يقدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالهم من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم اعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تحقيقاً على أنفسهم وكانوا مع ذلك انما يقدونه أهل عصيتهم بالنسب أو الولا ولا يقدونه لمن بعدهم في ذلك * وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعرفة

في كتب الفقه وخصوصاً كتب الاحكام السلطانية الا أن القاضي انما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع اهم بعد ذلك اموراً أخرى الى التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الامر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامي عند فقد الاولياء على رأى من رآه والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة منهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكأنه يعضى ما يحجز القضاة وغيرهم عن امضاءه ويكون نظره في البيئات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الخصم الى استجلاء الحق وحل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الاولون يباشرون بأنفسهم الى أيام المهدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاة هم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني وكما فعله المأمون لمعي بن أسكثم والمعتصم لاحد بن أبي دؤاد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أسكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة الى أرض الروم وكذا منذ بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر من بني امية بالاندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزيره فوض أو سلطان متغلب وكان أيضاً النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيدين بمصر والمغرب راجعاً الى صاحب الشرطة وهي وظيفة اخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توضع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً فيجعل للثمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينه عن الجريمة ثم تنوبى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوبى فيها من الخلافة فصار أمر المظالم راجعاً الى السلطان كن له تفويض من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة حدودها وباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول كما يحكم فيه بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة

باسم الشرطة وبقي قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصية الدولة لأن الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الامن أهل عصيتهم من العرب ومواليهم بالخلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غناؤه فيما يدفع اليه * ولما انقضى شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من ألقاب الملك ولا من مراسمه ثم خرج الامر حلة من العرب وصار الملك لسواهم من أم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافة بعد انهم ينحازوا وعصيتهم وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نزلت بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك انما يولونها جانباً من التعظيم لما دأبوا بالله نقط قصاروا بقلدها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذمئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول المملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الامصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقدها لاهلية بأناسهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الخضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالله وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها ولم يكن ايشارهم في الدولة حيثذا كراما لذواتهم وانما هو لما يتلج من التجميل بكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لاحقية وراءه اذ حقيقة الحل والعقد انما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم الا اخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنم والله الموفق وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وأن فعل الملوكة فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئا من ذلك لأن الشورى والحل والعقد لا تكون الا لصاحب عصية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا

ولامن حمايتها وانما هو عيال على غيره فأى مدخل له في الشورى أو أى معنى يدعو الى اعتبارها فيها اللهم الا شورا فيما يعلم من الاحكام الشرعية فوجوده في الاستفتاء خاصة وأما شورا في السياسة فهو بعيد عنها لفقدها العصية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوكة والامراء الشاهدة لهم بمجمل الاعتقاد في الدين وتعظيم من يتسبب اليه بأى جهة اتسبب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن الفقهاء في الغلب لهذا العهد وما احتف به انما جلاوا الشريعة أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون الا بالاكل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين جلاوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بعبادتها في جملة اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامر ان فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الائمة بأحد الامرين فالعابد أحق بالورثة من الفقيه الذي ليس بعابد لأن العابد ورث صفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا انما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كفيات العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم * (العدالة) * وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعيهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند النزاع وكتب في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملا كهسهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشروط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القاعون به كأنهم محتصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهد عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تختص على القضاء بسبب اتساع الامصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيقولون قال في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصابط يختصون بالجلوس

المران بكسر الميم
التمر والاعتقاد
على الشيء اهـ

عليها في عاهد هم أصحاب الملامات للشهاد وتقيده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم * (الحسبة والسكة) * أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين بعين لذلك من يراه اهلاله فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزروا يؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الخالين وأهل السفن من الاكثار في الخيل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد أهل النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها وفي المكاييل والموازين وله أيضا حل الماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيدين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخله في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية

* (وأما السكة) * فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص ان كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبار ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجداء والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الديار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية واعتبار رجوع غايته الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أقطار على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها اماما وعبارة يعتبرون به نقودهم فينتقدونها بماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي ثم افردت لهذا

العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه واخرى صارت سلطانية ووظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية تتكلم عليها في أماكنها بوظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت بطلانه الا في قليل من الدول عمار سونه ويدرجون أحكامه غالبيا في السلطانيات وكذلك انقابه الانساب التي توصل بها الى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لدور الخلافة ورسموها وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الامور كيف يشاء

٣٣ فصل في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرل الامر على ذلك الى أن هلك فلما بويع لعمر بعده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استنقلوا هذا اللقب بكثرة وطول اضافته وانه يتزايد فيما بعد دائما الى أن ينتهي الى الهجنة ويذهب منه التميز بتعدد الاضافات وكثرها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه مما يناسبه ويدعي به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فاعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه بأمر المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة وقيل يزيد بن جندب بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسموها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقبه في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سنة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية ثم ان الشيعة خصوا عليا باسم الامام نهتاله بالامانة التي هي أخت الخلافة وتعريضاً بذهبهم في أنه أحق بالامانة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم فصوره بهذا اللقب ولم يسوقوا اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كما هم يسمون بالامام ماداموا يدعون لهم في الخفاء حتى اذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون أمتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للعرب على

أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمر المؤمنين وكذا الرافضة بافريقية فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر الى عبيد الله المهدي وكانوا أيضا يدعونه بالامام ولا ينفقه أي القاسم من بعده فلما استوسق لهم الامر دعوا من بعدهما بأمر المؤمنين وكذلك الادارة بالمغرب كانوا يلقبون ادريس بالامام وابنه ادريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين وجعلوه معة لمن ملك الحجاز والشام والعراق الموطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد ذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير من الاشراف بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس بحجابا لاسمائهم الاعلام عن امتنانها في السنة السوقة وصونالها عن الابتذال فلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر الدولة واقفي أثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجا في بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم من الغضاضة والساذجة لان العروبة ومنازعهم لم تغرقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة وأما بالاندلس فلقبوا كسلفهم مع ما علوه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية وأنهم انما منعوا بامارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الداخل الا آخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لا قبل المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعينهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لا بانه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك الى أن انقرضت عصية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاد على امرء افريقية وزنانة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية واقسموه واقترق أمر الاسلام فاختلقت مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص باللقاب بعد أن تسماوا جميعا باسم السلطان * فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصصونهم باللقاب تشريفا حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعبد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصصون بها أمراء صنهادة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه اللقب

وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدبا معها وعدوا عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلا مكانهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصية الخلافة واضمحلت بالجملة الى اتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الاتحال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاة والاصطناع بما أضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقسموا ألقاب الخلافة وتوزعوا القوة استبدادهم عليها كما كانوا من قبيلها وعصيتها فلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينبغي عليهم مما يرهدي في أرض اندلس * أسماء معتد فيها ومعتد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهري يحيى اتقا خصورة الاسد

وأما صنهادة فاقصر وأعلى الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتشويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدا فنسوا هذه الألقاب واقصر وأعلى اسم السلطان وكذلك شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم يتجاوزوا شيئا من هذه الألقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما يحيى رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك المتونة فلك العدو تين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعته به همة الى الدخول في طاعة الخليفة تكميا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعة عبد الله ابن العربي وابنه القاضي أبابكر من مشيخة اشيلية يطالبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في ابوسه ورتبته وخاطبه فيه بأمر المؤمنين تشريفا له واختصاصا فاختدوا لقبها ويقال انه كان دعى له بأمر المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من اتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا الى الحق اخذوا مذاهب الاشعرية تابعيا على أهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك التكبر وكان يرى رأى أهل البيت في الامام المعصوم وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام أولا لما قلناه من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم إشارة الى مذهبه في عصمة الامام وتنزهه عند اتباعه عن أمير المؤمنين أخذا بمذهب المتقدمين

من الشيعة وليا فيها من مشاركة الانصار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يورثون
بالمشرق ثم اتجهل عبد المؤمن ولي عهد القبط بأمر المؤمنين وجرى عليه من بعده
خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استشاراه عن سواهم لمادعا اليه
شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الامر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل
أحد لا تنفاه عصية قريش ولا شيئا فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الامر بالمغرب
وانتزع زبانة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسداجة واتباع لمثونة في اتحال
اللقب بامير المؤمنين أدبامع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولا
ولبني أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم إلى القبط بأمر المؤمنين واتحلوها
لهذا العهد - تبلاغا في منازع الملك وتتميم المذاهب وسماحة والله غالب على أمره

٣٤ (فصل في شرح اسم البابا والبطريرك في الملة النصرانية واسم اللواتين عند اليهود)

(اعلم) أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون
كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الانساني أيضا بما تقدم من
ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم
ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها
مشروعا وعموم الدعوة وحل الكافة على دين الاسلام طوعا أو كرها اتخذت فيها
الخلافة والملك اتوجه الشوكة من القائم بها اليه ماعا وأما ما سوى الملة الاسلامية
فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا في المدافة فقط فصار القائم بأمر
الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولا امر غير
ديني وهو ما اقتضته لهم العصية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير
مكافئين بالتغلب على الامم كما في الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون بأقامة دينهم في خاصتهم
ولذلك بقي بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهم نحو أربعة مائة سنة
لا يعتنون بشيء من أمر الملك انما هم اقامة دينهم فقط وكان لقائهم بينهم يسمى
الكوهن كائنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان
ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب ثم
اجتاروا لاقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم
العمامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك
فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصية وتمحضت الشوكة لاهل فغلبوا الكنعانيين على
الارض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات

الله عليه فخاربتهم أمم الفلسطينيين والكنعانيين والارمن وأردن وعمان ومأرب ورياستهم
في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحو من أربعة مائة سنة ولم تكن لهم
صولة الملك وخبر بنو اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم
أن يأذن الله لهم في عليك رجل عليهم طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك الفلسطينيين ثم
ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهم ما واستفعل لمكة وامتد إلى الحجاز ثم أطراف
اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه
بمقتضى العصية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت احداهما بالجزيرة والموصل
للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بختنصر ملك
بابل على ما كان بأيديهم - من الملك أولا الاسباط العشرة ثم ثانيا لبني يهوذا وبيت
المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات
دينهم ونقلهم إلى اصفهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من افرس
إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم
على الرسم الاول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غاب الاسكندر وبنو يونان على الفرس
وصار اليهود في ملكهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتزلهم ودعاهم بالعصية الطبيعية
ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي
وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى
بيت المقدس وفيها بنو هيردوس اصهار بني حشمتاي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة
ثم افتتحوها عنوة وأخشوا في القتل والهدم والتعريق وخربوا بيت المقدس
وأجلاوهم عنها إلى رومة وماوراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود
بالجلوة الكبرى فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة
الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح
صلوات الله وسلامه عليه بما جاء به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة
وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الالكه والابرص واحياء الموتى واجتمع
عليه كثير من الناس وأمنوا به وأكثروا الخواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر
وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملة ذلك أيام أوغسطس أول ملوك
القيصرية وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمتاي اصهاره
فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القيصرية أوغسطس يغريه به
فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الخواريون شيعة داود خيل
أكثروهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم قنزل برومة دار

ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني الى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صر قابل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحوارين وكلاما واعظا وقصصا والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها يسدا قليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها من شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقاييس لابن كربون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومن اميرداود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الانبياء البكار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقة من الحوارين نسخ الانجيل الاربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الايريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنطس وفيه الاحكام وكتاب أبو غالميس وفيه رؤيا يوحنا ابن زبدي واختلف شأن القياصرة في الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى الى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستقرت عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرل وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الاسقف أي نائب البطرل ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويقتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحوارين وكبير التلاميذ برومة يقيم بهادين النصرانية الى أن قتله نيروز خامس القياصرة فيمن قتل من البطارق والاساقفة ثم قام بجحلاقة في كرسي رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومضر والمغرب دأب سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قساعلى أنه اذا مات البطرك يكون واحدا من اثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بيقية أيام قسطنطين

لتحرير الحق في الدين وانفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد في الدين فكتبوه وسماه الامام وصيروا أصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه أن البطرل القائم بالدين لا يرجع في تعيينه الى اجتihad الاقصة كما قرره حنانيا تلميذه مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وانما بقا قدم عن ملا واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الامر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقى الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرل بالاب أيضا تعظيما له فأتته الاسم في أعصار متطاوله يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرل عن الاسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جر جيس ابن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قد منادى فلم يزل سمعة عليه الى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة الى أن استقرت لهم ثلاثة طوائف هي فرقةهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم المليكسية واليعقوبية والنسطورية ولم تر أن نسخهم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجلالة معروفة وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام أو الجزية أو القتل ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطرل فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأى الملكية ورومة للانرجية وما حكمهم قائم تلك الناحية وبطرك المعاهد بن بمصر على رأى اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون دينهم ولبطرل مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في اقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطرل كما كان بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بيا من موحدتين من أسفل والنطق بها متخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجية أنه يحضهم على الاتقياد للملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجا من افتراق الكلمة ويحري به العصبية التي لافوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور وحره الوسط بين الذال والظاء المعجنتين ومباشره يضع الساج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الانبرذور وهذا ملخص ما وردنا من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة فإظنك بسياسة نوعه ومن استعماه الله من خلقه وعباده وهو محتاج إلى حياية الكفاية من عدوهم بالمداخلة عنهم وإلى كف عداوان بعضهم على بعض في أنفسهم بأحكام الوازنة فيهم وكف العداوان عليهم في أموالهم بأصلاح سبلتهم وإلى جعلهم على مصالحهم ومناعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمساكن والموازين حذرا من التطعيف وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش وإلى سياستهم بما يريد منهم من الانقياد له والرضا بمقتضاه منهم وانفرادهم بالجدد ونهم في تحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الأشراف من الحكماء المعاناة تقل الجبال من أمانها هون على من معاناة قلوب الرجال ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولى القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقهم فتمت المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخى أشد به أزرى وأشره في أمرى وهو أمان أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدجوا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فإذ ذلك قد توجده في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات وإلى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور * ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتغال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها العموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقهاء ينظرون في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقايدها استنادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضاتها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقا ومقيدا أو في موجبات العزل إن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية لا بد لائقه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان الآن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها

من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فإن أردت استيفاء ما فعلك بطلانها هناك وانما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأقردها بالتميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما تكلمنا في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

(الوزارة) وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الاعانة فإن الوزارة مأخوذة أما من الموازنة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أو زارعه وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطاعة وقد كما قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لأنها إما أن تكون في أمور حياية الكفاية وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحياية والمظالم وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن يعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محبوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب وإما أن تكون في أمور حياية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المئان والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق وإما أن يكون في مداخلة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدجوا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطوة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فالهاير جمع الآن الرفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأقلما كان خاص ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغرا أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فإن هذه كلها تنظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تعالىا في النظر العام وتكون رتبته من رتبة لا وثائق وما زال الآخر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأى والمقاوضة فيه فلم يمكن زواله إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاركه أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويختص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا المدول وأحوالها في كسرى وقصر النجاشي يسمون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف حين

المسلمين لذهاب رتبة الملك بسداجة الاسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر
وأما حال الجباية والاتفاق والحسبان فلم يكن عندهم رتبة لأن القوم كانوا عرايا أميين
لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفرادا
من موالى العجم عن مجيده وكان قايلا فيهم وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الامة
كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة
خاصة للامة التي كانت فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم يخرج
السياسة الى اختاره لأن الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء
وأضاف لم تكن الكتابة صناعة فيستجد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن
مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته من كان له
من يحسنه * وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم
يقبلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقباه كان أول شيء يبدئ
به في الدولة شأن الباب وسدود الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال
الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من
ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسعوه الحاجب
وقد جاء أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن
للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لتلايقه ثم
استفعل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستلافهم
وأطلق عليه اسم الوزير وبقى أمر الحسبان في الموالى والذمتين واتخذ للسجلات كاتب
مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشترق فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمشايبة
الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام
اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا
في سائر دولته بنى أئمة فكان النظر للوزير عا مافي أحوال التدبير والمفاوضات وسائر
أمور الحبايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالاهلة
وعبر ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفعل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم
شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعيين مرتبته في الدولة وعنت
لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما احتاج اليه
خطمه من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتقريبه وأخفيف اليه
النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما
كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الغياح

والشباع ودفع اليه قصار اسم الوزير بجامع الخطى السيف والقلم وسائر مداني الوزارة
والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره
وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الجباية التي هي القيام على
الباب فلم تكن له لاستكانه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على
السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير اذا استبد
محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك تصح الاحكام الشرعية وتجي على حالها كما تقدم
فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان طامعا على نفسه
والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار
الامر بالملك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا ألقاب
الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم قسموا بالامانة
والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو بالسلطان الى ما يحل به به
الخليفة من ألقابه كإتراء في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها بالخليفة في
خاصته ولم يرزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت
صناعة يتحلها بعض الناس فامتنعت وترفع الوزراء عنهم لذلك ولانهم يحجم وليست تلك
البلاغة هي المقصودة من لسانهم فخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت
خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع
ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل امانيا أو استبداد واستمر الامر على
هذا ثم جاءت دولة الترتل آخر ما يصرفه وأأن الوزارة قد استبدلت بترفع أولئك عنها
ودفعها لمن يقوم بها بالخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرؤسة
ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار
صاحب الاحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقى اسم
الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية * وأما دولة بني
أمية بالاندلس فأنقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا
وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا الحسبان المال وزيرا ولترسيل وزيرا والنظر في
حوائج المتطلين وزيرا والنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون
فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد
بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم عبارة السلطان في كل وقت فارتفع
مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يرزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فانبعثت
خطة الحاجب ومرتبة على سائر الرتب حتى صار مولا الطوائف يتكلمون لغتها

فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما ذكره ثم جاءت دولة الشيعة باقر بيقية والقبروان
وكان للقبائين بهار سوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط وأولوا تنقيح أسمائها حتى
أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها كما تراه في
أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر وأولاً للبداوة
ثم صارت إلى احتمال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة
الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان
في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحييتهم وخطابهم
والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ماشاءوا ولم يرل الشأن
ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فبعض هذا الذي يقف بالناس على
حدود الآداب في اللقاء والتحية في محاسن السلطان والتقدم بالوفود بين يديه
الدویدار ويضيفون إليه استنباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات
السلطان بالقاصمة وبالخاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الأمور لمن يشاء
* (الحجابة) قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن
يحجب السلطان عن العامة ويغلق باب دولتهم أو يفتح لهم على قدره في مواقفه
وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط من رتبة لها إذا الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا
كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر من رتبة لصاحب الخطة العليا
المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان
عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فن دونهم فكانت في دولتهم
رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على
الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناءؤه كذلك
ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها
وكانوا يعدونها شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد احتمال الألقاب الملك وأسمائه لا بد له
من ذكر الحاجب وذو الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة
السلطان عن العامة والخاصة وبذو الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم ثم لم يكن
في دول المغرب واقر بيقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وزعموا بوجد في دولة
العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين
لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى احتمال الألقاب وتغيير الخطط وتعيينها بالأسماء
الآخر فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب
المتصرف في مشارك السلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له

مع ذلك النظر في الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب
الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ
(وأما بنو أبي حفص باقر بيقية) فكانت الرياسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي
والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود
العساكر والحروب واختص الحساب والديوان برتبة أخرى ويسمى متولياً بصاحب
الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال
ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم
أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من متجمل القوم ولا
الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المترقبين
بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجرى بها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء
وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه
في ذلك على أهل الحجابة فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على
السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على
ذلك وجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين
أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدلالة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت
الخطة أرفع الرتب وأوعى الخطط ثم جاء الاستبداد والخجومة من بعد السلطان الثاني
عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الخج
والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كانت سماً إليه وبأشهر أموره كلها بنفسه من
غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد

* (وأما دولة زناتة بالمغرب) * وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم
وأما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحساب والرسائل راجعة إلى
من يحسنها من أهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع
عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وجبته عن العامة فهي رتبة عندهم يسمى
صاحبها بالمزوار ومعناه المتقدم على الجنادة المتصرفين باب السلطان في تنفيذ أوامره
وتصرف عقوباته وإنزال سطوانه وحفظ المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك
فألباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامته راجع إليه فكانت أوزار
صغرى

* (وأما دولة بني عبد الواد) * فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييزاً للخطط
لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ

الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسابان والسجل كما كان فيها حلقهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

* (وأما أهل الاندلس لهذا العهد) فالخصوص عندهم بالحسابان وتنفيذ حال السلطان وسائر الامور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكان الوزير الا أنه قد يجمع له الترسل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطه العلامة كما لغبرهم من الدول

* (وأما دولة الترك بمصر) فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العائمة على الاطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويثبتها وتنفيذاً وأمره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العائمة والجند عند الترافع اليهم واجبار من أبي الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الاموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في تصرفها في الانتقافات السلطانية أو الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحساب والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجال الترك أو أبناءهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو رب الاولين والآخرين

﴿ديوان الاعمال والجبايات﴾

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في ابائهم والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج سبق على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها * ويقال ان

أصل هذه التسمية أن كسرى نظروا الى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم محادئون فقال ديوانه أي مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجعلهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرده هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسابان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها * واعلم أن هذه الوظيفة انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر رضي الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعث بغير ديوان فقبل له ومن يعلم بنية من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبّر له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان في المحرم سنة عشرين * وأما ديوان الخراج والجبايات فبني بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من القريش ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البدوة الى رونق الحضارة ومن سدا جرة الاتمية الى حذق الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسابان فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهد ما أن ينقل ديوان الشام الى العربية فأكله السنة من يوم ابتدائه ووقف عليه سر حون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الضنائة فقد قطعها الله عنكم * وأما ديوان العراق فأمر الحاجب كاتبه صالح ابن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن زاذان قروخ كاتب

الحجاج قبله ولما قتل زادن في حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحا
هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ورغم ذلك كتاب
الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت
هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك
وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة * وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من
الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخروج وتغيير النواحي
بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يشاء من شروط الناظر فيها والكتاب
وقوانين الحسابات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هناك
وليست من غرض كتابنا وإنما تكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدده الكلام
فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثلثة أركان لأن الملك لا يتدبر من الجند
والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر
القلم وأمر المال فينقرد صاحبها بذلك يجرى من رياسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة
بني أمية بالاندلس والطوائف بعدهم * وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما
يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعب نظر
الولاية والعمال فيها ثم تنفذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال
وكان رعايلها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها * ولما استبدت بنو أبي حفص
بأفريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان
يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني
أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالاندلس
ودالوا فيهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحساب والكتاب وخرجت عن
الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل
هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة
التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع
لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظيره
معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسابان في الخراج والعطاء هذه
أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة
للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فتشوقة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر
الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة
للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع

إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن
أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الصفاية مبالغه فتعين للنظر
العام منها هذا الخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان
وأهل عصيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجهده في
في متابعتها ويسعى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الأمراء الكبار في الدولة من الجند
وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال
والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال
السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس
من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير استاذ الداروان كان الوزير من الجند
فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من
مما يملكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفته بمعامل السلطان الخاص * هذا
بيان هذه الخطة بدولة الترك بالشرق بعدما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف
الأمور لأرب غير

❦ ديوان الرسائل والكتابة ❦

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول
العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد
الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد
فصار الكتاب يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكتاب
للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام
والعراق اعظم أمانيهم وخلوص أسرارهم لما قصد اللسان وصار صناعة اختص به
يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعه وكان الكتاب يصدر السجلات مطلقه ويكتب في
آخرها اسمه ويختتم عليها بجامع السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شأريه
يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند
طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكتاب فيها
علامته أولا أو آخره على حسب الاختيار في محله أو في لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة
بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد
وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها
فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة

الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التقويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورته ثابتة اتباعا لماسلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويختاره من صيغ الانفاذ ما شاء فيما أمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بأمره قائما على نفسه في رسم الامر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ووقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأو جز لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك واما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلاغة في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المرواة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى أرباب السيف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العالوم لاجل سداجة العصية فيختص السلطان أهل عصيته بخط دولته وسائر رتبة فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة ويقلدونه الا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصية غالبية على يده ويكون نظره متصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا أنه تحت يد أمير من أهل عصية السلطان يعرف بالدو يدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنابته في غالب أحواله اليه وتغويه على الاخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكمثال الاسرار وغير ذلك من فوائدها * وأما الشروط المعبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره واتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب وهي أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان

الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا في الحقيقة سواء وصر فهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الادب والمرواة والعلم والزانة بكم ينظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وينصحا تكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف الامنكم فوقكم من الملوك موقع أسمعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزاع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحموده وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكتاب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي ينق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فهيما في موضع الحكم مقداما في موضع الاقدام محجما في موضع الاجسام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف كتمو لا لاسرار وفيما عند الشدائد عابا بما يأتي من التوازل يضع الامور مواضعها والطوارق في أماكنها قد نظرت في كل فن من فنون العلم فأحكمه وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرده عليه قبل وروده وعاقبة ما يصد عنه قبل صدوره فيعدل لكل أمر عذته وعنايته ويهيئ لكل وجه هيبته وعادته قناتسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وأبدوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والحجج وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تنسمو اليه هممكم ولا تنصيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودينها وسفاسف الامور ومخاقرها فانها مدلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزها واصناعتمكم عن الدناءة وآربوا بانفسكم عن السعاية والنجمة وما فيه أهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير اخنة وتجاوبوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليه بالذي هو أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره وان أقعد أحدكم منكم الكبر عن مكسبه واقفاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من

اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في
الشغل محمدا فلا يضر فيها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه
وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب
أسرع منه الى الفراء وهو ليكم أقدم منه لها فقد علمت أن الرجل منكم اذا صحبه من
يذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقه له من وقائه وشكره
واحتماله وخيره ونصيحته وكم ان سرته وتدبير امره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاً
له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ماله فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم
في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسرء والضراء فتعنت
الشبهة هذه من وسهم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم أو صير
اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل ولا يؤثر طاعته وليكن على
الضعيف رقيقاً وللمظلوم منصفاً فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعيله ثم ليكن
بالعدل حاكماً ولا يشرف مكرماً وللفي موفراً وللبلاء عامراً ولا رعية متلفاً وعن
أذا هم متخلفاً وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي مجالات خراجهم واستقضاء حقوقه
رقيقاً واذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلقة فاذا عرف حسنها وقيسها أعانها على
ما يوافقها من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجل
وسيلة وقد علمت أن سائس البهيمه اذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها
فان كانت رموحاً لم يسهها اذا ركبها وان كانت شجوباً اتقها من بين يديها وان خاف
منها شروداً توقها من ناحية وأنها وان كانت حروناً قم برفق هوها في طرقها فان
امتدت عطفها يسيراً فباساس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن
ماس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكتاب لفضل أدبه وشريف
صنعتة ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس وينظره ويفهم عنه
أوبخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومبداراته وتقويم أوده من سائس
البهيمه التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاياها لا بقدر ما يصيرها اليه
صاحبها الرأكب عليها الا فارقوا رجلكم الله في النظر واعلموا ما أمكنكم فيه من
الروية والفكر تأمنوا بان الله عن محبته النبوة والاستئصال والجفوة ويصير منكم
الحال الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في
هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ونسأله وخدمه وغير ذلك من فنون
أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعكم خدمة لا يحملون في
خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا

على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف
وسوء عاقبة الترف فانهم ما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلها ولا سيما
الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دال على بعض فاستدلوا على
مؤثفات أعمالكم بما سبق اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير وأضحها بحجة
وأصدقها حجة وأجدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل
لصاحبه عن انقاذ علمه ورويته فليقصده الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته
وليؤخر في ابتدائه وجوابه وليأخذ بجماع حجه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة
للساغل عن اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه
في الغلط المضرب يده وعقله وآدابه فانه ان ظن منكم ظاناً أو قال قائل ان الذي برز من
جيل صنعتة وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه
أو مقالته الى أن يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله
غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالأمور وأجل لعب التدبير من مرافقه في
صناعتة ومصاحبه في خدمته فان أعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رعى بالعجب
وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجل في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين
أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تركية لنفسه ولا يكثر على
أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته
والتدلل لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه
النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وعزة كلامه بعد الذي فيه من ذكر
الله عز وجل فلذلك جعلته آخره ونعمته به تولاها الله واياكم يا معشر الطلبة والنكبة بما
يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه ويده والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته اهـ * (الشرطة) * ويسمى صاحبها بهذا العهد باقر بقيمة الحاكم وفي
دولة أهل الاندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة من رتبة صاحب
السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الاحيان وكان أصل وضعها في
الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أو لانهم الحدود بعد استيفائها
فان التهم التي تعرض في الجرائم لا تنظر للشرع الا في استيفاء حدودها والسياسة النظر
في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتقت به القرائن لما توجبه
المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده اذا
تلزم عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة ووربما جعلوا اليه النظر في الحدود والدماء
بإطلاق وأفردوها من نظر القاضي ونزهاها عن المرتبة وقلدوها بأكبر القواد وخطاه

الخاصة من مواليسهم ولم تكن عامة التنفيد في طبقات الناس انما كان حكمهم على
الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاء والفجرة ثم عظمت بناهت في دولة
بني أمية بالاندلس وتوعدت الى شرطة كبرى وشرطة صغيرة وجعل حكم الكبرى
على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على
أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه وجعل صاحب
الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي يباب دار السلطان ورجال
يتبوئون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا في نصريفه وكانت ولايته الاكبر من
رجال الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة * وأما في دولة الموحدين بالمغرب
فكان لها حظ من التوبة وان لم يجز لها عامة وكان لا يليها الا رجال الموحدين
وكبرائهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها
وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها من قام بها من المصطنعين * وأما
في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليسهم وأهل اصطناعهم
وفي دولة الترك بالمشرق في رجال التركة وأعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد
يتخبرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الاحكام لقطع مواد
الفساد وحسم أبواب الذعارة وتخريب مواطن القسوق وتقريب مجامعهم مع اقامة
الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب
الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

* (قيادة الاساطيل) وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية
ومروسة صاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها في
عرفهم المندب تفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنجية فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وانما
اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهم جميعا على ضفة البحر الرومي من
جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى
الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجية والصقالبة والروم الى بلاد
الشام أيضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى أهل عدوته والسكان
يسمى هذا البحر وسواحلهم من عدوته يعانون من أحواله مالاتعانية من أمم
البحار فقد كانت الروم والافرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي
وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله
ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى
المغرب أجازوا في الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم

أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة تمثل قرطاجنة وسيطة وجولاء ومرناق وشرشال
وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبيع الاساطيل
لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفاقيه
معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن
العاصي رضي الله عنهما أن صفى البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق
ضعيف ودود على عود فأوعز حينئذ بفتح المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب
الامن اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل عمر بن حفص بن هرة الأزدي سبى
بجيلة لما غزاها عمان فبلغه غزوه في البحر فأكره عليه وعنفه أنه ركب البحر لغزو ولم
زل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على
أعدائه والسبب في ذلك أن العرب كانوا البداة وتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافته
وركوبه والروم والافرنجية لممارستهم أحواله ومر باهم في التقلب على أعدائه مرنوا
عليه وأحكموا الدرية بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشيخ سلطانهم وصارت أمم العجم
خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من
النوايسة في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا
بصرامهم فشرعوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل
بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واقتصوا
بذلك من محالهم وغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية
والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية
بأن ينادي دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان
فتح صقلية أيام زيادة الله الاول ابن ابراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ
الفتيان وفتح قوصرة أيضا في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية
ابن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتح على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات
وكانت من بعد ذلك أساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيديين والامويين
تتعاقب الى بلادهم في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب
وانتهى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى ما تقي مرصع أوتخوها
وأسطول افريقية كذلك مثله أوقري بامنه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماح من
ومر قوتها للخط والاقلاع بجاية والمريه وكانت أساطيلها مجمعة من سائر الممالك من كل
بلد تخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه
ومقاتلته ورئيس يدبر أمر بحريته بالريخ أو بالمجاديف وأمر إرساله في مرفئه فاذا

اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطانى مهمم عسكرت بحر قها المعلوم
وتحتها السلطان برجاله وانجاد عداكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى
طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر اياهم بالفتح
والغنية وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع
جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للام النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ
من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المألومة من الفتح
والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة
ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم
والافرنج وكان أبو القاسم الشيعى وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة
جنوة فتقلب بالظفر والغنية واقتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك
الطوائف جزيرة سردانية في أساطيلهم سنة خمس وأربع مائة وارتجعها النصارى لوقتها
والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم
جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تبحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير
المقابل لها من العدو الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتختن في ممالكهم كما وقع في
ايام بنى الحسين ملوك صقلية القاضين فيها بدعوة العبيدين وانحازت ام النصرانية
بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقلية وجزائر
الرومانية لا بعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد
ملأت الاكث من بسط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحر باقل تسبح
لنصرانية فيه ألواح حتى اذا أدركت الدولة العبيدية والاموية القشل والوهن وطرقها
الاعتلال مد النصرارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة
فملكوها ثم ألجوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور
وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه
كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بنى خرمون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس
ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن
زيرى وكانت لهم في المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل في دولة
مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره لهذا العهد بعد ان كان لهم
به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه
الوظيفة هناك وبقيت باقريقية والمغرب قصارت مختصة بها وكان الجانب الغربى
من هذا البحر لهذا العهد موفورا بالاساطيل ثابت القوة لم يخف عدا ولا كانت لهم به

كرة فكان قائد الاسطول به لعهد متونة بن ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم
أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد
العدوتين جميعا * ولما استقرت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا
العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد
أسطولهم أحمد الصقلى أصله من صندغيرا الموطنين بجزيرة جربة من سرويكنش
أسره النصارى من سواحلها ووربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم
هلك وولى ابنه فأخطه ببعض النزعات وخشى على نفسه ولحق بنونس ونزل على
السند به من بنى عبد المؤمن وأجاز الى مراكنش فتلقيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن
بالمبرة والكرامة وأجرل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أم النصرانية
وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين * وانتهت أساطيل
المسلمين على عهده في الكثرة والاستجابة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد قيام عهدناه ولما قام
صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من يدا
النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبناؤه تباغت أساطيلهم الكفرية
بالمدة تلك الثغور من كل ناحية قريية لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه
فأمدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في
ذلك الجانب الشرقى من البحر واعتدأ أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل
عن معانعتهم هناك كما أشرنا اليه قبل فأوقد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور
سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسول عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك
شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا الى
ملك المغرب طالبامدا الاساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الكفرة وبين مرهم
من أمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه اليه في ذلك من انشاء القاضى
البيسانى يقول فى افتتاحه فتح الله لى دنأ أبواب المناج والميامن حسيما نقله العماد
الاصفهانى فى كتاب الفتح القدس فنقم عليهم المنصور وحقاقيهم عن خطابه بأمر المؤمنين
وأمرها فى نفسه وجعلهم على مناهج البر والكرامة ووقعتهم الى مرسلهم ولم يجبه الى
حاجته من ذلك * وفى هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل
لنصرانية فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستعانة وعدم عناية الدول بمصر
والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما
هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت ام الخلافة على الاكثر
من بلاد الاندلس وألجوا المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب

الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زنادة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصاري فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامم في بلخه وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالاجانب الاقليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لوجودوا وكثرة من الانصار والاعوان أو قوة من الدولة تستحيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لمعاينة تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهينون الرشح على الكفر وأهلهم من المشتهرين أهل المغرب عن كتب الحدثنان أنه لا بد للمسلمين من الكثرة على النصرانية واقتتاح ما وراء البحر من بلاد الافريقية وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ (فصل في التفاضل بين مراتب السيف والقلم في الدول)

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الآن الحاجة في أقول الدولة الى السيف مادام أهلها في تهديد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصيتها كما ذكرناه ويقل أهلها عما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتمل الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في جاية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أقول الامر في تهديد ما فيكون للسيف منزلة على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكبر نفعة وأسنى اقطاعا واما في وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض الشيء عن السيف لانه قد تهدأ أمره ولم يبق همهم الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى نصريته وتكون السيوف مهمة في مضاجع اغمارها الا اذا نابت نائبة أو دعت الى سدة فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون أرباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نفعة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر النية تردد او في خلواته فحيا لانه حينئذ آله التي بهما يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة

بأحواله ويكون الوزراء حيثئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بؤاده * وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم المنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فانه مما حفظناه من وصايا القرس أخوف ما يكون للوزراء اذا سكنت الدهماء سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٧ (فصل في شارات الملك والسلطان الخ)

(اعلم) أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها وتبينها تحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها يبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم * (الآلة) فن شارات الملك اتخذها الآلة من نشر الالوية والرايات وقرع الطبول والتفخ في الابواق والقرون وقد ذكر ارسطو في الكتاب المنسوب اليه في السياسة أن السر في ذلك ارباب العدو في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري انه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبار * وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستمت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الابل بالحداء والخيل بالصقير والصريح كما علمت ويريد ذلك تأثيرا اذا كانت الاصوات مناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك اتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلولا وبوقا فيمدق المغنون بالسلطان في موكبه بالآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم الى الاستماتة واقدرا ينافي حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعور وبطرب فيحيشهم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زنادة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنى فيحرك بغناؤه الجبال الرواسي وينبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء ناصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنهم من الفرح والله أعلم * (وأما) * تكثير الرايات وتلوينها واطاقتها فالقصد به التحويل لأحـ نرور بما يحدث في النفوس من التحويل لزيادة في الاقدام وأحوال النفوس وتلوينها غريزية والله الخلاق العليم * ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمتها أما الرايات فانها شعار الحروب من عهد

قوله الموسيقى وفي نسخة الموسيقى قارية وهي صحيحة لان الموسيقى بكسر القاف بين التحتين اسم للنغم والالخان وتوقعها ويقال فيها موسيقى ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول سفينة الشيخ محمد شهاب

الخليقة ولم تزل الامم تعقد هاتي موطن الحروب والغزوات ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء * وأما قرع الطبول والنفخ في الابواق فكان المسلمون لأول الملة متجانين عنه تنزها عن غلبة الملك ورفض الاحوال واحتقار الالهية التي ليست من الحق في شيء حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتيجوا زهرة الدنيا رجعوا ولا بسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك يتخلونهم من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الاكلة فأخذوها وأذنوا العمالهم في اتخاذها تنويعا بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقده الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج الى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو دياره في مواكب من أحجاب الرايات والالآت فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية وقتلها أو بما اختص به الخليفة من الالوان رايته كالسواد في رايات بني العباس فان راياتهم كانت سودا حزن على شهيداتهم من بني هاشم ونعيا على بني أمية في قتلهم ولذلك سمو المسودة * ولما افرق أمر الهاشمين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا البيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالشرق كالداغى بطبرستان وداغى صعدة أو من دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة * ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يحتصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمر واعلى الاذن فيها العمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناة قصر والالهة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا الهاموكا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثرو ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الاحرار بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أذكر كاه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب مائتين كبير وصغير وبأذنون للولادة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكان بيضاء وطويل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك * وأما دولة الترك لهذا العهد بالشرق فيتخذون أقولا راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة

من الشعر يسمونها الشالوش والخر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيعون لكل أمير أو قائد عسكري أن يتخذ من ذلك ما يشاء الا الجرفانه خاص بالسلطان * وأما الخلافة لهذا العهد من أمم الاقربجة بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الالوية القليلة ذاهبة في الجوصعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقتهم في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين

* (السري) * وأما السري والمنبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها من ترفع عن أهل مجلسه أن يساوهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهم ما وسلامه كرسي وسري من عاج مغشى بالذهب الا أنه لا تأخذه الدول الا بعد الاستسجال والترف شأن الالهة كلها كما قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يشوقون اليه * وأول من اتخذ في الاسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم اني قد بدت فأذنوا له فاتخذوه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الالهة ولقد كان عمرو بن العاصي يصير مجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سري من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطرا خلا ليه الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الاكسرة والقباصرة والله مقلب الليل والنهار

* (السكة) * وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صورة أو كلمات مقنونة ويضرب بها على الدينار والدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقود من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل به اعددا وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولقط السكة كان اسما للطابع وهي الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص

من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم
السلطان عليها تلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها
تمائيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدا أو تمثيل حصن أو حيوان
أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم * ولما جاء
الاسلام اغفل ذلك لسداجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة
وزنبا وكانت دنائير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن
ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاخس الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك
وأمر عبد الملك الخجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتميز
المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدايني سنة خمس وسبعين ثم
أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليه الله أحد الله الصمد ثم ولى
ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم باع خالد القسري في تجويدها
ثم يوسف بن عمر بعده وقبل أقل من ضرب الدنانير والدراهم صعب بن الزبير بالعراق
سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولى الخجاز وكتب عليه في أحد الوجهين بركة الله
وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الخجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الخجاج وقد روزنها
على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة دنانق
والمقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان
السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال
عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط
وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة أسباع درهم وقبل كان منها
البغلي ثمانية دنانق والطبري أربعة دنانق والمغربي ثمانية دنانق واليميني ستة
دنانق فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر
دنانقا وكان الدرهم ستة دنانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا وإذا نقصت ثلاثة
أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة التقدين الجارين
في معاملة المسلمين من الغش نعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه
واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صور إلا أن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب
من الحسم وأظهر جامع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استقر بين الناس في
أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر
متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تليلا وتحميدا أو صلاة على النبي
وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعيسيين

والامويين وأما صناعتها فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية
ذكر ذلك ابن جاد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ
سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويعلو
من أحد الجانبين تليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتاب في السطور باسمه واسم
الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد
ولقد كان المهدي فيما ينقل نعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعتة بذلك
المسكمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا
العهد فسكتهم غير مربعة وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدرة
بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان
كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (ولتختم الكلام) في السكة بذكر حقيقة
الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والامصار
وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما في الزكاة
والانكحة والحدود وغيرهما فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير
تجري عليهما أحكامهما دون غير الشرعي منهما فاعلم أن الاجماع منعقد منذ صدر
الاسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة
مثاقيل من الذهب والاقية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار
ووزن المثقال من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة
اعشاره خمسون حبة وخمسة وخمسة هذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فإن الدرهم
الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو ثمانية دنانق والبغلي وهو أربعة
دنانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دنانق فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية
ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك
أو اجماع الناس بعده عليه كما ذكرناه ذلك الخطام في كتاب معالم السنن والماوردي
في الاحكام السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار
والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية
بهما في الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهم كانوا معلومين
المقدار في ذلك العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان
مقدارهما غير مشخص في الخارج وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي على المقدار
في مقدارهما وزنهما حتى استعمل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الخلال إلى

تخصصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فخصص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشي وجودها فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الاقطار والافاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الاجماع الا ان حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وعشرون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق وردة المحققون وعدوه وهما غلط وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الاوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لاختلاف فيها والله خلق كل شيء فقدره تقديرا

*** (الخاتم) *** وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك ولما عرف للمولود قبل الاسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى قيصر ف قيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا أن يكون محتوما فالتفت الى خاتمه من فضة ونقش فيه * محمد رسول الله * قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثله قال وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قلبه الماء فلم يدرك فقعرها بعد وانغم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الالة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم اذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر اذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الامر ويطلق على السداد الذي يستد به الاواني والدينان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسلك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام قال لان آخر ما يجدونه في شراهم ريج المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذي هو السداد لان الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فيلوع في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين المعهودين في الدنيا فاذا صبح الخاتم على هذه كلها صبح

اطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم اذا انقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مر تسما فيه واذا كانت كلمات وارتمت ففقد يقرأ من الجهة اليسرى اذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى وقد يقرأ من الجهة اليمنى اذا كان النقش من الجهة اليسرى لان الختم يقرب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمن أو يسار فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين ووضع على الصفح فتمت نقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونقوده كأن الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دون ما لم يلى ليس بتمام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم السلطان أو الامير أو صاحب الكتاب من كان أو شيء من نعونه يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونقوده ويسمى ذلك في المتعارف علامة ويسمى ختما تشبيها له بأثر الخاتم الا صنف في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه الذي يتقدم ما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته قال الرشيد ليحيى ابن خاليس لما أراد أن يستوزر جعفر أو يستبدل به من الفضل أخيه فقال لا ييهما يحيى يا أبت اني أردت أن أحول الخاتم من يميني الى شمالي فكفى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم وبشهادة صحة هذا الاطلاق ما نقله الطبري أن معاوية أرسل الى الحسن عند مرأوده اياه في الصلح صحيفة يضاء ختم على أسفلها وكتب اليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختم أسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره ويحتمل أن يختم به في جسم لين فتمت نقش فيه حروفه ويجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم وعلى المدود وعات وهو من السداد كما من وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطابق عليه خاتم وأول من أطلق الختم على الكتاب أي العلامة معاوية لانه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائةين ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية وطلب بها عمر وجسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال آخره وحزم الكعب ولم تكن تحزم أي جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على انفاذ كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس الورق كما في عرف كتاب

المغرب وأما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل
المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع
على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويحتمون عليها بخاتم
نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم
على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مداف من الطين معتدل ذلك صبغه
أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم
وكان يجلب من سيرا فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة
أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة
العباسية ثم اختلف المرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا
في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع فيستجيدون صوغه
من الذهب ويرصونه بالنصوص من الباقوت والقيروزج والزمر ذو يلبسه السلطان
شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية
والله مصرف الأمور بحكمه

* (الطراز) من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات
تختص بهم في طراز أو أوابهم المعتدة للباسهم من الحرير أو الديباغ أو البريسم تعتبر كناية
خطها في نسج الثوب الخام وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط
الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم
فتمير الثياب الملوكة معلة بذلك الطراز قصد التنويه بلباسهم من السلطان فمن دونه
أو التنويه بمن يختصه السلطان بلباسه إذا قصد تمييزه بذلك أو لولايته لوظيفة من
وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك
وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب
أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى القال أو البجالات وكان ذلك في الدولتين من أبهة
الأمور وأنهم الأحوال وكانت الدور المعتدة لنسج أوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز
لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والآلة
والحكاك فيمواجرأرزا قهم وتسهل آلاتهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقلدون ذلك
لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالاندلس
والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم
بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه اضيق نطاقها في الاستيلاء
وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بليلة * ولما

جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول
دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي اقنوها عن امامهم محمد بن
تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسطت هذه الوظيفة من
دولتهم واستندركل منها أعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة وأما هذا العهد
فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانهم وشموخهم مما جلبت لاقنوه من دولة ابن
الاجر معاصرهم بالاندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فاق منه بلهجة شاهدة
بالآثر * وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطرز تحرير آخر على مقدار
ملكهم وعمران بلادهم الآن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف
دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك في صناعة من الحرير ومن الذهب الخالص
ويسمونه المزركش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعتد الصانع
لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل والنهار والله
خير الوارئين

(الفساطيط والصباج)

اعلم أن من شارات الملك وترفيه اتخاذا لاختية والفساطيط والفاضات من ثياب
السكران والصوف والقطن يجدل السكران والقطن فيباهي بها في الاسفار وتتوع
منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر
في أول الدولة في يوتهم التي خرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد
الخطاء الاو ايين من بني أمية انما يكتنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر
والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد يابدين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم
وحروبهم يطلعونهم وسائر حالهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا
العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلال بعدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كل
واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج
الى ساقه تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا طعن ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج
حين أشار به روح ابن زباع وقصتها في احراق فساطيط روح وخيامه لا قول ولايته
حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولايات تعرف رتبة
الحجاج بين العرب فانه لا يتولى إرادتهم على الطعن الأمن يأمن بوادر السفهاء من
أحيائهم بماله من العصية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة
بقنائه فيها بعصيته وصراسته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ

ونزلوا المدين والامصار واتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخلف
الى ظهر الخافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكنان يستعملون منها بيوتاً محكمة
الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ
مذاهب الاحتفال والزينة وينير الامير والقائد للعساكر على فساطيطه وفارانه من
قنهم سنانا من الكنان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أقر النبال كفاف
التي بين الكفاف والقاف ويحتص به السلطان بذلك المقطر لا يكون غيره * وأما في
المشرق فيتخذ كل أمير وان كان دون السلطان ثم خضعت الدعة بالنساء والولدان الى
المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم وتقارب الساح بين منازل العسكر
واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أتيقا
لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بدخها وترفها وكذا
كانت دولة الموحدين وزينة التي أظلمنا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل
المك من الخيام والقياطن حتى اذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور
عادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف
بمكان الآن العساكر به تصير عرصة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه
الصيحة ولحفهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماعة دونهم فيحتاج في ذلك الى
تحفظ آخر والله القوى العزيز

(المقصورة للصلاة والرفاء في الخطبة)

وهما من الامور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام
* فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سجاج على المحراب فيحوزه
وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة
وقيل أول من اتخذها من وان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما
وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول
الترف في الدول والاستقبال شأن أحوال الأئمة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول
الاسلامية كلها وعند اقتراف الدولة العباسية وتعدد الدول بالشرق وكذا بالاندلس
عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب
يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس
بقاس بنو حجاج بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم
على طريقة السداوة التي كانت شعارهم ولما استقبلت الدولة وأجيزت محظها من

الترف وجاء أبو يعقوب المصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده
سنة للملك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده *
(وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم
فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أصحابه
وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاصي لما بنى جامع بصصر وأول من دعا للخليفة على المنبر
ابن عباس دعا على رضى الله عنهم في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم
انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاصي المنبر
بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت
منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكتسبك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عرشك
فعمرت عليك الاما كسرتة فلما حدثت الآية وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة
والصلاة استنابوا فقيمها فكان الخطيب يشهد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء
له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للاجابة ولما ثبت عن السلف
في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما
جاء الخرو والاسبدا صارا المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك
ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص
السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد او يسمو اليه
وكثيراً ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب
الغضاضة ومناحي السداوة في التعاقل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام
والاجال لمن ولي امور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى
عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الاجال انما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما
سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه * يحكى أن
يغمر اسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير أبو بكر يا يحيى بن أبي حفص
على تلمسان ثم بدله في إعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر
عمله فقال يغمر اسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شأوا وكذلك يعقوب بن عبد
الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص
وثالث ملوكهم ويختلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقبل له لم يحضر هذا الرسول
كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك حيداً لا خذهم بدعوته
وهكذا شأن الدول في بدايتها وتعمقها في الغضاضة والبداوة فاذا انتهت عمون
سياستهم وتطروا في اعطاف ملكهم واستولشيات الحضارة ومعاني البدخ والأئمة

اتحلوا جميع هذه السمات وتغنوا فيها وتجاوزوا الى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها
وجزعو من اقتقادها وخلود ولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

٢٨ (فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها)

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها ارادة
انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصيته فاذا تذا مروا لذلك
وتواقفت الطائفتان احدهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحروب
وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما
غيرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تعهده
فالاول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو
العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالفقر كالعرب والترك والتركان
والاكراد وأشباههم لانهم جعلوا أرواقهم في رماحهم ومعاشرهم فيما بأيدي غيرهم ومن
دافعهم عن متاعه آذونه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم
ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد
والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمائعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف
من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بني وقته والصنفان الاخيران حروب جهاد
وعادل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع
بالزحف صفوا ونوع بالسكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على
تعاقب أجيالهم وأما الذي بالسكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب
وقتل الزحف أو ثق وأشد من قتال السكر والفر وذلك لان قتال الزحف ترقب فيه
الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو
قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط
الامتد والقصر المشيد لا يطعم في انزاله وفي التزليل ان الله يحب الذين يقاتلون في
سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشتد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات
وتحريم التولي في الزحف فان المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن
ولى العدو وظهره فقد أخل بالمصاف وبإيمانهم الهزيمة ان وقعت وصار كأنه جزع على
المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسد فوعدت بها الى الدين بخرق
سياحه فعند من المبكث ويظهر من هذه الادلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما

قتال السكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا أنهم
قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجئون اليه في السكر والفر ويقوم لهم مقام
قتال الزحف كما ذكره بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا
يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل كراديس
صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية
النواحي استدعى ذلك أن يجمل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتدوا
مع عدوهم الطعن والضرب فيخشي من تدافعهم فيما بينهم لاجل السكراء وجهل
بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر رجوعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض
ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ويرتب العساكر كلهم من سلطان
أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور في أخبار فارس والروم
والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكريا متفردا بصفوفه متميزا بقائده
ورايته وشعاره ويسمون هذه المقدمة ثم عسكريا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى
يمينه ويسمون هذه المينة ثم عسكريا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكريا
آخر من وراء العسكري يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الاربع
ويسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدي واحد للبصر أو على
مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال
العساكر في القلة والكثرة فينبغي أن يكون الزحف من بعده هذه التعبية وانظر ذلك في
أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك
تختلف عن رحيله بعد المدي في التعبية فاحتج بان يسوقها من خلفه وعين لذلك
الحجاج بن يوسف كما أشرنا اليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الاموية
بالاندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما لا بنا لانا انما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي
في مجال الحرب الى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجتمعهم ليدنا حلة أو
مدينة ويعرف كل واحد منهم قرينه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن
نكالت التعبية

(فصل) ومن مذاهب أهل السكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكريهم من
الجمادات والحيوانات العجم فيتحذونهم ملجأ الخيالة فيسكرهم وفرهم يطلبون به
ثبات المقاتلة ليكون أدوم للعرب وأقرب الى الغلب وقد يفعل أهل الزحف أيضا
ليريدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون القبلة في الحروب
ويحملون عليها أبراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح

والرايات ويصفونهم وراهم في حومة الحرب كأنهم خضون فتقوى بذلك نفوسهم
 ويزدادون وقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا
 بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب في الطوعم ويعجوها بالسيوف على
 خراطيمها فغرت وفتكت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فخاض معسكر فارس
 لذلك وانهمزوا في اليوم الرابع * وأما الروم ومولود القوط بالاندلس وأكثر العجم
 فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحفظ به من
 خلمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في اركان السير
 ويحدقه سياج آخر من الرماة والرجال في عظم هيكل السير وبصيرفة للمقاتلة ومجأ
 للكرو والفر وجعل ذلك القوس أيام القادسية وكان رستم جالس فيها على سريره
 جلوسه حتى اختلقت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فحول عنه إلى
 القراف وقيل * وأما أهل الكرو والفر من العرب وأكثر الامم البدوية الرحالة
 فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي يحمل طعائهم فيكون قتلهم ويسمونهم الجنبوة
 وليس أمة من الامم الا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الحولة وآمن من الغرة
 والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجللة واعتاضوا عنه بالظهر
 الحامل للاتقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم ولا تغني غناء القبيلة والابل
 فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستعرة للفرار في المواقف * وكان
 الحرب أول الاسلام كله زحفا وكان العرب انما يعرفون الكرو والفر لكن جعلهم على
 ذلك أول الاسلام أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون إلى
 مقاتلتهم عثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستعدين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما
 رسخ فيهم من الايمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في
 الحروب وصار إلى التعبية كراديس مروان بن الحارث في قتال الضحالك الخارجي
 والحجيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الحجيري قولي الخوارج عليهم شيان بن عبد
 العزيز البكري ويلقب أبا الدقاء وقتلهم مروان بعد ذلك بالكرايس وأبطل
 الصف من يومئذ انتهى فتوسى قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوى الصف وراء
 المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكانهم الخيام كانوا
 يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في الاحياء فلما حصلوا على ترف
 الملك والقواسكى القصور والحواسر وتركوا شأن البادية والقرنوسو ذلك عهد
 الابل والظعان وصعب عليهم اتخاذها فحفظوا النساء في الاسفار وحملهم الملك والترف
 على اتخاذ الفساطيط والاحبية فاقصر واعلى الظهر الحامل للاتقال والابنية وكان

قنوله للاتقال
 والابنية مراده
 بالابنية الخيام كما
 يدل له قوله في
 فصل الخندق
 الاى قريبا اذا
 نزلوا وضربوا
 آبنتهم اه

ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لانه لا يدعوا إلى الاستماتة كما يدعوا اليها الاهل
 والمال فيخف الصبر من أجل ذلك ولا يعرفهم الهيئات وتحرم صفوفهم

(فصل) ولما ذكرنا من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكد في قتال الكرو
 والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لأن
 قتال أهل وطنهم كله بالكرو والفر والسلطان تأكد في حقه ضرب المصاف ليكون رداً
 للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف
 والأجفلاو على طريقة أهل الكرو والفر فانهزم السلطان والعساكر بأجفلاهم
 فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنوداً من هذه الامة المتعوده للثبات في الزحف وهم
 الافرنج ويرتبون مضافهم المحقق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر
 وانما استخفوا بذلك للضرورة التي أربنا كهان من تخوف الأجفال على مصاف السلطان
 والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك
 من غيرهم مع أن الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر
 وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من عمالائهم على المسلمين
 هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدى شائسته والله بكل شئ عليم

(فصل) وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالنسهم وأن تعبئة الحرب
 عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويتراجعون
 عن خيولهم ويفترغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف رده للذي
 أمامه أن يكسبهم العدو إلى أن يتم النصر لا حدى الطائفتين على الاخرى وهي
 تعبئة محكمة غريبة

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند
 ما يتقاربون للزحف حذراً من معرفة البينات والمهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته
 ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار ويحصد النفوس في الظلمة سترامن
 عاره فاذا اتوا في ذلك أرحف العساكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون
 الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا آبنتهم ويديرون الحفائر نطفا عليهم من
 جميع جهاتهم حرصاً أن يحاط بهم العدو بالينات فيخادوا وكانت للدول في أمثال
 هذا قوة وعليه اقتدار باختشاد الرجال وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم بما
 كانوا عليه من وفور العمران وخدمة الملك فالتأخر الغمران وتبعه ضعف الدول
 وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جلة كانه لم يكن والله خير القادرين وانظر
 وصية على رضى الله عنه وتحرر بضعة لاصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن

أحد أبصر بهامنه قال في كلامه فسووا ضفوفكم بالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحارس وعضوا على الأضراس فانه أنى للسبوف عن الهام والتورا على أطراف الرماح فانه أصون للأسنة وعضوا الألبصار فانه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخضوا الأصوات فانه أطرده للفشل وأولى بالوقار وأقيموا أياتكم فلا تملوها ولا تجعلوها الأيادي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الاشتريو منذ يحترض الأزد عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بأبائهم وأخوانهم حناقا على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفُسهم لا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لثبوتة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها ناشفين بن علي بن يوسف ويصف شبانه في حرب شهدا ويذكره بأموال الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا أيها المبلأ الذي يتقنع * من منكم الملك الهمام الأروع
ومن الذي غدر العدة به دجى * فأنقض كل وهو لا يترزعزع
تمضى الفوارس والطعان يصدها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضع الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلح
أتى فرعتم يابى صنهاجة * واليكم في الزوع كان المفرع
انسان عين لم يصبه منكم * حزن وقلب أسلمته الأضلع
وصددتمو عن ناشفين وانه * لعقابه لو شاء فيكم موضع
ما أنتموا إلا أسود خفية * كل لكل كرهية مستطلع
يا ناشفين أقم جيشك عذره * بالليل والغدر الذي لا يدفع

(ومنها في سياسة الحرب)

أهديك من أدب السياسة ما به * كانت ملوك القرس قبلك تلوح
لا أنى أدري بها لكنا * ذكرى تحض المؤمنين وتنفذ
والبس من الخلق المضاعفة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهند واني الرقيق فانه * أمضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عتة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق غليك اذا ضربت بحلة * سبان تتبع ظافرا أو تتبع
والواد لا تعبده وانزل عنك * بين العدة قوين جيشك يقطع
واجعل مناجرة الجيوش عتية * ووراءك الصدق الذي هو أمانع

وإذا

وإذا تضايقت الجيوش بعرك * ضحك فأطراف الرماح توسع
واصدمه أول وهلة لا تكترث * شيئا فإظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع أهل شهامة * للصدق فيهم شعبة لا تخدع
لا تسع الكذاب جامل مر جفا * لا رأى للكذاب فيما يصنع
قوله واصدمه أول وهلة لا تكترث البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب فقد قال عمر لابي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم في الأمر ولا تجمين مسرعا حتى تبين فانه الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف وقال له في أخرى انه ان يمنعني أن أؤمر سليطا الأسرعة في الحرب وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لآمرته لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث هذا كلام عمرو وهو شاهد بأن التناقل في الحرب أولى من الخفوف حتى تبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي الآن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم (فصل) ولا وثوق في الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكال الأسلحة واستجابتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهي أمان خدع البشر وحيلهم في الأرجاف والتشايخ التي يقع بها الخدع وفي التقدم إلى الأمام كمن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمن الأرض والتواري بالكدي عن العدو حتى يتداهمهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلزمون إلى النجاة وأمثال ذلك وأما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمور اسموية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلي في القلوب فيستولى الرعب عليهم لأجلها فتختل مراكرهم فتقع الهزيمة وانما تفتق الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعقل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات

فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزموا معجزاً رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون * وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفصل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر عتامة أو ستة عشر فالجانب الرائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قد تناولها ليس بصحيح وإنما الصحيح المعترف في الغلب حال العصية أن يكون في أحد الجانبين عصية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين المتباشرين للعصية إذ تنزل كل عصاية منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصيته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصيته واحدة لأجل ذلك تفهمه واعلم أنه أضحى في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصية في حلة وبلدة وانهم انما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوجدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصية ولا نسباً وقد يتنازل أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحتها انما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كقبلاً بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الامور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي فافهمه وتفهّم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق معنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعاً في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتهلين للفضائل على العموم وكثير من اشتهر بالشرف وهو بخلافه وكثير من تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقاتها على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت انما هما بالأخبار والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند المناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال الخلقها بالتلبس والتصنع أو بالجهل المناقل ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والشاس متطاوون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكبر اغني في الفضائل ولا منافسين في

أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتمتل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبحث كما تقرروا الله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٩ (فصل في الجباية وسبب قلة وكثرة)

اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجلة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجلة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين فليست إلا المقارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المقارم الشرعية وهي حدود ولا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصية فلا بد من البدأة في أولها كما تقدم والبدأة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والقفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتماد ويتزايد محصول الاعتباط بقلة المقوم وإذا كثرت الاعتماد كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحد بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البدأة والسذاجة وخافها من الأغصاء والتجافي وجاء الملك العزوم والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التمدن وتكثر عوائدهم وجوانبهم بسبب ما انعموا فيه من النعم والترفع فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكره والفلاحين وسائر أهل المقارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدار اعطيتهم الجباية ويضعون المكوس على المبيعات وفي الأبواب كما ذكر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والاتفاق بسببه حتى تنقل المقارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولأنها هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتماد لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين غمره وفائدته فتنبض كثير من الأيدي عن الاعتماد فتنقص جلة الجباية حينئذ ينقص تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الاتفاق حينئذ

في الاعتماد وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص
ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقده من جبر الجملة بها الى أن ينقص
العمران بذهاب الآمال من الاعتماد ويعود وبالذلك على الدولة لان فائدة الاعتماد
عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الاسباب في الاعتماد تقايل مقدار الوظائف
على المعمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادرال المنفعة فيه والله
سبحانه وتعالى مالك الامور كلها ويسده ملكوت كل شيء

٤٠ (فصل في ضرب المكوس واخر الدولة)

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم
الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها
بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بيد الحضارة في الترف وعوائدها
وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج
السلطان خصوصا كثرة بلغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية
فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من
النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات
والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصايتها
عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها
أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على
البياعات ويقرض لها قدر معلوما على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع
في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعا اليه ترف الناس من كثرة العطاء
مع زيادة الجيوش والحامية ووربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد
الاسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال
ذلك يتزايد الى أن تضجعل وقد كان وقع منه بأمصا المشرق في أخريات الدولة
العباسية والعبودية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح
الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بأكثار الخبز وكذلك وقع بالاندلس لعهد
الطوائف حتى محارمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصا الجريد
بافريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ (فصل في ان التجارة من السلطان مفرقة بالرعايا مفسدة للجباية)

اعلم أن الدولة اذا ضاقت جبايتها بما تقدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر

الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية
فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة
بالزيادة في ألقاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباية
وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره
الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون
التجار والفلاحين يحصلون على القوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح
تكون على نسبة رؤس الاموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله
في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الاسواق ويحسبون ذلك من ادراار الجباية
وتكثير القوائد وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوده متعددة فأولا
مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فان الرعايا
متكاثرون في اليسار متقاربون ومن جهة بعضهم بعضا تنتهي الى غاية موجودهم
أو تقرب واذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثير منهم فلا يكاد أحد منهم
يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم
ان السلطان قد يتزعج الكثير من ذلك اذا تعرض له غضا أو بأيسر عن أن لا يجد من
يناقشه في شرائه فيجنس ثمنه على بائعه ثم اذا حصل قوائد الفلاحة ومغلها كله من
زرع أو حرير أو غسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة
من سائر الانواع فلا ينتظرون به حواله الاسواق ولا اتفاق البياعات لما يدعوههم الله
تكاليف الدولة في كفون أهل تلك الاصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع
ولا يرضون في أثمانها الا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك
البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطالا من الادارة التي فيها كسبهم ومعاشهم
وربما تدعوههم الضرورة الى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق
بأجنس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقع
عن سوقه ويتعد ذلك ويكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد
الأرباح ما يقبض أموالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدى الى فساد الجباية فان معظم
الجباية انما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس وغو الجباية بها فاذا
انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها
النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح
القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية أقل من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فذهب له
محظ عظيم من الجباية فيما يعاينه من شراء أو بيع فانه من البعيد أن يوجد فيه من

المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات كان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تميز أموالهم بالذلاحة والتجارة نقصت وثلاثت بالنفقات وكان فيها آلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يعلكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والادب والسجاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيجب غلاء الاسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة * واعلم أن السلطان لا ينبغي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وادراها انما يكون بالعدل في أهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط أموالهم وتشرح صدورهم للاخذ في تميز الاموال وتميزها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فأنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسحقين للتجارة والفلاحة من الاخرى والمتغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها من تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى وأقرب الى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعنى التجار والفلاحين ما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها أجد ربحا من الاموال وأسرع في ثمره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعيهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهيهم نار شدا أنفسهم ويتقربوا بالاعمال والله تعالى أعلم

٤٤ (فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما يكون في وسط الدولة)

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم ولأن الحاجة اليهم في تهديد الدولة كما قلناه من قبل فربسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الجباية معترض عن ذلك بما هو يروم من الاستعداد عليهم فله عليهم عزرة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي ملقين في الغالب وجاههم متقلص لانه من جاء مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يراجه فيه من أهل عصبيته فاذا

استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستعداد على قومه قبض أيديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سبقاتهم وتقل حظوظهم اذ ذلك لقلته غنائمهم في الدولة بما انكح من أعنتهم وصاروا الى والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتهديد الامر فيتهرب صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها ويحتوى على الاموال ويحتجبها بالنفقات في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتنتلي خزائنه ويتسع نطاق جباهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكتاب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتأثرونها ثم اذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبة وفناء القبيل المعادين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجهم لظهوره وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصابات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية تلاقه مناه من كثرة العطاء والاتفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب تقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الاموال في غير سيولها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلها ويتزعمها منهم لنفسه شيئا فشيئا وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وتكرار الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مبانى المجد بعد أن يدعه أهله ويرفعوه * وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني حنظلة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركاها العهد ناسنة الله التي قد خلت في عبادته

(فصل) ولما وقع أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة الى قطر آخر ويرون أنه أهنا لهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغصا ط الفاحشة والاورهام المفسدة لاجوالهم وديارهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه غير ممكن فان صاحب هذا الغرض اذا كان هو الملك نفسه فلا يمكنه الرعية من ذلك طريقة عين ولا أهل العصبة المزاجون له بل في ظهور ذلك منه هدم

للملك والاتلاف لنفسه بجاري العادة بذلك لأن رتبة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند
استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن الجهد والخلال والتخلف
بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب
في دولته فقل أن يخفى بينهم وبين ذلك أما أولا فلما يراه المولى أن ذويهم وحاشيتهم بل
وسائر رعاياه هم مماليك لهم مطالعون على ذات صدورهم فلا يسمعون بحمل ربقته من
الخدمة ضنا بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد
كان ثوابية بالاندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لقرينة الحج لما يتوهمونه من
وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أبيع الحج
لأهل الدول من الاندلس إلا بعد فراغ شأن الاموية وجوعها إلى الطوائف وأما
ثانيا فلأنهم وإن سمعوا بحمل ربقته هو فلا يسمعون بالتجاني عن ذلك المال لما يرون
أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم إذ لم يكن سبب الإهم في ظل جواهرها فتقوم
نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم إذا
توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر وهو في النادر الأقل فتمتد إليه أعين المولى
بذلك القطر ويتوهمونه بالارهاب والتخويف تعرضا وبالقهرة ظاهرا لما يرون أنه مال
الجباية والدول وأنه مستحق للانفاق في المصالح وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة
واليسار المتكسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول
التي تجد السبيل إليه بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد
البيهقي تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقية الخروج عن عهدته الملك والحقاق
بمصر فإذ من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل البيهقي
الرحلة إلى غرطرا بلس يوري بتهيد وركب السفين من هنالك وخلص إلى
الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجدته بيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل
ما كان يخزائهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكسب واحتل ذلك كله إلى مصر
ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزله
ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيره شيئا فشيئا بالتعريض إلى أن حصل عليها ولم يبق
معاش ابن البيهقي إلا في جرابه التي فرض له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حينما
ذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما
يتوهمونه من ملوكهم من المعاطب وانما يخلصون أن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم
وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف
في وجدان المعاش لهم بالجرابات السلطانية أو بالجواهر في انتمال طرق الكسب من

التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن
النفس راغبة إذا رغبتها * وإذا ترد إلى قليل تقنع
والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق عنه وفضله والله أعلم

٤٣ (فصل في أن نقص البطائن من السلطان نقص في الجباية)

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران
فإذا احتجبت السلطان الأموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ
ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت
نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع
الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لأن الخراج
والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للقوائد
والأرباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقله أموال السلطان حينئذ يقل الخراج
فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل
والخرج فإن كسدت وقلت مصارفها فاجدر بما بعده من الأسواق أن يلحقها مثل
ذلك وأشد منه وأيضاً فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه ومنه
إليهم فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده

٤٤ (فصل في أن الظلم مؤذن بحراب العمران)

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها أو كسبها لما
يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها
وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون
انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فإذا كان الاعتداء كثيراً غامى في جميع أبواب
المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع
أبوابها وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبه والعمران
ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين
وجائين فإذا أقعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق
العمران وانقبضت الأحوال وابتعد الناس في الآفاق من غير تلك الأيالة في طلب
الرزق فيمخرج عن نطاقها خف ساكن القطر وخت دياره وخربت أمصاره واختل
باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنهما صورة للعمران تقسده بقساد مائتهم باضرار
واقتر في ذلك ما حكاها المصنف في أخبار القرس عن الموبدان صاحب الدين

عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرّض به للملك في انتكار ما كان عليه من الظلم والعقله عن
عائته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتهم وأسأله
عن فهم كلامها فقال له ان يوما ذكر ايروم نكاح يوم أتى رأتها شرطت عليه عشرين قرية
من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية
وهذا أسهل مما قتبته الملك من عقابته وخلا بالموبدان وسأله عن مراده فقال له
أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره
ونهيته ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال
ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب
بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيعا وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع
فانتزعتهما من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال وأقطعتهما
الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع
وسمحوها في الخراج لقر بهم من الملك ووقع الخيف على من بقي من أرباب الخراج
وعمار الضياع فأنجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا الى ما تعذر من الضياع
فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلكت الجنود والرغبة
وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك العلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم
الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من ايدي
الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى
من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند جباة الخراج
وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشجنت الثغور وأقبل الملك على مباهرة
أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتقهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب
للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك
الى أن الاعتماد قد يوجد بالمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم
أن ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتماد وأحوال أهل المصر فلما كان المصر
كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتماد
والظلم يسيراً الا أن النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال
في المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل
خراب المضروحي الدولة الاخرى فترفعه بجدها وتجير النقص الذي كان خفياً فيه
فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك في الاقل السادر والمراد من هذا أن حصول النقص في
العمران عن الظلم والعسود ان أمر واقع لا بد منه لما تقدمناه ووباله عائدة على الدول

ولا تحب الظلم انما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو
المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ من أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير
حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلم فحياة الاموال بغير حقها ظلمة
والاعتساف عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمبايعون لحقوق الناس ظلمة وغصباب
الاملاك على العسوم ظلمة ووبال ذلك كله عائدة على الدولة بخراب العمران الذي هو
مادتها الاذهاية الا بال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع
في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع
البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع ما صده الضرورية الخمسة
من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع
النوع لما أدى اليه من تحريب العمران كانت حكمة الحظرفيه موجودة فكان
تجريمه مهما وأدلت من القرآن والسنة كثيراً كثر من أن يأخذها قانون الضبط
والحصص ولو كان كل واحد قادر عليه لوضع يازانه من العقوبات الزاجرة ما وضع
بازا غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل
والسكر الا أن الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة
والسلطان قبوله في نفسه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقدرة عليه
في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقول ان العقوبة قد وضعت بازاء الخراب
في الشرع وهي من ظلم القبادر لان المحارب زمن حراسته قادر فان في الجواب عن
ذلك طريقين احدهما أن تقول العقوبة على ما يقتضيه من الجنايات في نفس أو مال
على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما
نقص الخرابية فهي خلو من العقوبة * الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف
بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم النية المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة
بالخراب وأما قدرة المحارب فانما هي الخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة
عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر
على ما يشاء

(فصل) ومن أشد اظلامات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير
الرجال بغير حق وذلك أن الاعمال من قبيل المتمولات كما سنين في باب الرزق لان الرزق
والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران فاذا مساعيتهم وأعمالهم كلها متمولات
ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتمدين في العمارة انما معاشهم
ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا حترافاً في

معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو ممتولهم قد دخل عليهم الضرر
وذهب لهم حظ كثير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تذكر ذلك عليهم أفسد
آمالهم في العماره وقعدوا عن السعي فيها جله فأدى ذلك الى اتقاء من العمران
وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(فصل) وأعظم من ذلك في الظلم وافساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس
بشراء ما بين أيديهم بأجنس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الاثمان على وجه
الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الاثمان على النواحي
والتأجيل فيتهللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحذرنهم المطامع من جبر ذلك بحالة
الاسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء الى بيعها بأجنس الاثمان وتعود
خسارة ما بين الصفتين على رؤس أموالهم وقديم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة
والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في الماء كل
والقواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر
الاصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤس الاموال ولا يجدون عنها
وليحة الا القعود عن الاسواق لذهاب رؤس الاموال في جبرها بالارباح ويتناقل
الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الاسواق ويبطل
معاش الرعايا لان عامتهم من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل
معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفقد لان معظمها من أوسط الدولة وما بعدها انما
هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤثر ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران
المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع
والاسباب الى أخذ الاموال وأما أخذها بحماها والعدوان على الناس في أموالهم
وحرمانهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يقضي الى الخلل والفساد دفعة
وتنقض الدولة سريعا بما يشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتفاض ومن أجل هذه
المقاسد خطر الشرع ذلك كله وشرع المكابسة في البيع والشراء وحظراً كل
أموال الناس بالباطل سداً لآبواب المقاسد المفضية الى انتفاض العمران بالهرج
أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى
الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج
ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستمدون أثماناً ووجوهاً يوسعون بها الجباية
ليني لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى أموال
الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزداد الى أن تنعجب ديارهم ويذهب برغمها ويغلبها

طالبها والله أعلم

٤٥ (فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وان يعظم عنه المسموم)

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانه
لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلائها والبداءة هي شعار العصبية
والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز الغلب
فقط فالبداءة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه فاذا كانت
الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من
الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد
بنفسه عن الناس للعديد مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ من بحاشيته
فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن بيابه على من لا يأمنه من أوليائه
وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيه بيابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك
وباعت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق
غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراة ما ومعاملتها بما يجب لها ويرى عاجل تلك
الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فمخطوئه وصاروا الى حالة الانتقام
منه فانقرضت معرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وجبوا غيراً وذلك الخاصة
عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يخطئهم وعلى الناس من
التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الاول يقضي اليهم منه
خواصهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يقضي الى
حجاس الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الاول يكون في أول
الدولة كما ذكرنا كما حدث لايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على
ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت
دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكنت خلق الملك على
ما يجب فيها فسد عا ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار يباين
الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث
في الدول حجاب ثالث أخص من الاولين وهو عند محاولة الجبر على صاحب الدولة وذلك
أن أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم
فأول ما يسدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه يوهمه أن في
مباشرتهم آياته خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده

ملا بسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواء إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون
هذا الخراب من دواعيه وهذا الخراب لا يقع في الغالب إلا وأخر الدولة كما قد مناه في
الحجرو يكون دليلا على هرم الدولة ونفاذ قوتها وهو مما يختص أهل الدول على أنفسهم
لأن القلائد بالدولة يجاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد
من أعقاب ملوكهم لما كذب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع
الترشح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

٤٦ (فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين)

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عند ما يستعمل
ويلتف أحوال الترف والتعظيم إلى غاية ما يستبد صاحب الدولة بالمجد ويتفرد به بأقرب
حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسماها ما استطاع باهلاله من استراب به من ذوي
قرباته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم وزرعوا إلى القاصية
اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاعتراض والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ
في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره
يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية
العربية حين كان أمرها جارا حجة ما ونطاقها تمتد في الاتساع بعصبة بني عبد مناف
واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه إلا ما كان من بدعة
الخوارج المستبين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لفرقة الملك ولا لرياسة ولم يتم أمرهم
لمزاجتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالامر
وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأدنت بالتقلص عن القاصية
نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدثت بها ملكا
واقطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس إلى المغرب وخرج به وقام
بأمره وأمر ابنه من بعده البربرية من أوربة ومغيلة وزانة واستولى على ناحية
المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة
وقام بأمرهم كامة وصنهاجة واستولوا على إفريقية والمغرب ثم مصر والشام
والجزائر وغلبوا على الادارة وقسموا الدولة دولتين خريين وصارت الدولة العربية
ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام ودولة بني أمية
المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافهم بالشرق ودولة العبيديين بإفريقية
ومصر والشام والجزائر ولم تزل هذه الدولة إلى أن كان انقراضها مقاربا أو جاعا

وكذلك

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو سنان قبا وراة
النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين
وعلى بغداد والطفاه ثم جاء البلوية فلكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد
الاستيلاء كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب
وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور وخرج عليه عمه حاد واقطع
ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلسان وملوية واختط القاعة بجبل
كامة جبال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري واستحدث ملكا
آخر قسم الملك آل باديس وبقى آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض
أمرهما جميعا وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها تاريا فإفريقية بنو أبي حنيفة
فانقسموا إليها واستحدثوا ملكا لا عقابهم بنو أحيا ثم لما استعمل أمرهم واستولى على
الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو بكر يحيى ابن السلطان أبي
اسحق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا بجاية وقسنطينة وما إليها ورثه بنوه
وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسى الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين
أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد انتهى الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة
وفي غير أعقاب الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك الحمير
بالشرق وفي ملك صنهاجة بإفريقية فقد كان لا آخر دولتهم في كل حصن من حصون
إفريقية تاريا مستقلا بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية
قبل هذا العهد كما ذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم
بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها
الأمر ويتعد فيها الدولة والله وارث الأرض ومن عليها

٤٧ (فصل في ان انقسام الدولة الواحدة بدولتين)

قد تقدمنا ذكر العوارض المؤثرة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبنينا أنها تحدث
للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان
حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من
الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية
لا يتبدل وقد يتبدل كثير من أهل الدول عن نقطة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم
من عوارض الهرم ويظن أنه يمكن الارتفاع فيما أخذت نفسه تلافيا في الدولة وإصلاح
مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لعلها تقصير من قبله من أهل الدولة وعقلتهم

وليس كذلك فانها موطعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيا والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدرك منسلا أباه وأكثرا أهل بيته يلبسون الحرير والدياج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والري والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تنعمه وتقع عليه مرتكبه ولو فعله لرمى بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأيد الالهى والنصر السماوى وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الابهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيلت تلك الابهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أهوام الابهة فتدفع الدولة بتلك الابهة ما أمكنها حتى ينقضى الامر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة تؤهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبا لها ايماضه الجود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربه انطفائه يومض ايماضه تؤهم أنها اشتعال وهى انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدره فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ (فصل في كيفية طرق الخلل للدولة)

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالاول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها في هذين الاساسين فلندكر أولا طرق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع الى طرقه في المال والحماية واعلم أن عهد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستبعدة لها وهى عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة بطبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوى قرابه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم وبأخذهم الترف أيضا أكثر من سوادهم لكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند سؤخ الملك لصاحب الامر فيقلب غيرهم منهم الى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذى تعودوا الكثير منه فيكونون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهى العصبية الكبرى التى كانت تجمع بها العصائب وتستبغها فتخل عروتها وتضعف شكيبتها وتستبدل عنها البطالة من موالى النعمة وصنائع الاحسان

وتتخذ منهم عصبية الا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكسية لفقدان الرحم والقربة منها وقد كفا قد من شأن العصبية وقوتها انما هى بالقربة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشيرة والانصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيجاسرون عليه وعلى بطائنه تجاسر طبيعية فيملكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقتل الآخر من أهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذى قد منافستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية وينشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أو جزع على الحماية ويقولون لذلك فتقل الحامية التى تنزل بالاطراف والتغور فيجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعاص وغيرهم الى تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى تصبح الخوارج في أقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقضت الدولة عند ذلك بدواتين أو ثلاثة على قدر قوتها في الاصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن ادعانا لاهل عصبيتها واغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب فى الاسلام انتهت أولا الى الاندلس والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب بعصبية بنى عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم ير دأمره ثم تلاشت عصبية بنى أمية بما أصابهم من الترف فأنقضوا وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بنى هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم فأنحلت عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بنى الأغلب بأفريقية وأهل الاندلس وغيرهم وانقضت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم ادعانا للعصبية التى لهم وأما أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرا فيتغلبون على الاطراف والقاصية وتحصل لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا الى أن ينتهى الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فتلك وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغنى عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهلها بالنهاهى صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التى لا يعقل أحد من الاجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يدعولون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة العصائب ويكنى صاحبها بما حصل لها فى عهد أمرها الاجراء على الحامية من جندى ومرزوق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن

يصور عصياناً وأخروجا والا والجمهور منكرين عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدي
لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة
لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة
ولا يحتلج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتقاص الذي
يحدث من العصاب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلشى في ذاتها
شأن الحرارة القوية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور ولكل
أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار *
وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر
فيكون خلق الرفق بالربا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال فتجاني عن
الأمعان في الجباية والتخذاق والتكيس في جمع الأموال وحسبان العمال ولاداعية
حينئذ إلى الاسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء
ويعظم ويستعمل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان
وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في
أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف في النفقات
ويتشرد ذلك في الرعية لأن الناس على دين ملوكهم وعوائدهم ويحتاج السلطان
إلى ضرب المكوس على أثمان البضائع في الأسواق لا إدارا للجباية لما يرام من ترف
المدينة الشاهد عليهم بالرفق ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم تزيد
عوائد الترف فلا تنقضي بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لن
تحت يدها من الرعايا فتمت أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة
أو نقد في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسروا على
الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة
العطايا وكثرة الاتفاق فيهم ولا تجدد عن ذلك ولا يجه وتكون جباة الأموال في الدولة قد
عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من
جاههم فيتوجه إليهم باحتياج الأموال من الجباية ونفوس السعاية فيهم بعضهم من
بعض للمناقسة والحقد قمعهم النكبات والمصادرات واحدا واحدا إلى أن تذهب
ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم وإذا اصطلت
نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا
الطور قد لحق الشوك وضعفت عن الاستطالة والقهر فتصرف سياسة صاحب الدولة
حينئذ إلى مداواة الأمور بئذ المال ويراء أرفع من السيف لقله غنائه فتعظم حاجته

إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يبقى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة
وتجاسر عليها أهل النواحي والدولة تفحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تقضي
إلى الهلاك وتتعرض من الاستيلاء الكل فان قصدها طالب انتزعها من أيدي
القائمين بها والابقيت وهي تتلشى إلى أن تضمحل كالذبال في السراج اذا قضي زيتها
وطفى والله مالك الأمور ومديرها لا كوان لا اله الا هو

٤٩ (فصل في مدوثة الدولة وتجدد ما كيف يتبع)

اعلم أن نشأة الدول وبدايتها اذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون
على نوعين أما بأن يستبد ولاية الاعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم
فيكون لكل واحد منهم دولة يستبد بها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه
أبناءؤه وأمواليه ويستعمل لهم الملك بالتدريج وربما يزدجون على ذلك الملك
ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على
صاحبه ويستترع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص
ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو
طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس واقترب ملكها في الطوائف الذين كانوا
ولايتها في الاعمال وانقسمت دولها وملكوا كأثر ثوبها من بعدهم من قرايتهم وأمواليهم
وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم
ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما الدولة أدركها الهرم
وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول إليها والنوع الثاني بأن يخرج على
الدولة خارج عن مجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحصل التماس عليها كما أشرنا
إليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبير في قومه قد استعمل أمره فيسحبهم إلى
الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها
من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها
ويرزون أمرها كما تبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ (فصل في أن الدولة المستقرة انما تتحول على الدولة المستقرة بالاطلاق لا بالنسابة)

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتحددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل
الدولة عنهم وانحسر تيارها وهو لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لأن
قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهونهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة
والخوارج على الدولة وهو لا يبدلهم من المطالبة لأن قوتهم واقية بها فان ذلك انما

يكون في نصاب يكون له من العصية والاعتزاز ما هو كفاؤه ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب انما يقع كما قدمناه بأموور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به ولكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعة ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكة وان كان الاقربون من بطائه على بصيرة في طاعته وموازينه الا أن الآخرين أكثر وقد دخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض القصور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاول حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فيضعف عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم اصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم والذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية فيعندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيهربون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم أو هام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم الى المطاوله حتى تأخذ المستقرة ما أخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضا فأهل الدولة المستجدة كلهم مباليون للدولة المستقرة باذسابهم وعوائدهم وفي ما تمنحهم ثم هم مقاضون لهم ومنابدون بما وقع من هذه المطالبة وبطبعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن المساعدة بين أهل الدولتين ستر وجهرا ولا يصل الى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطنا وظاهرا لانقطاع المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في اجسام وينكفون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها وفور الخلل في جميع جهاتها وانضج لأهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يحق منهم من هرمها ونلاشها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث همهم يدا

قر له غرة بكسر
العين أي غلة اه

واحدة للمناجزة ويذهب ما كان بث في عزائمهم من التوهومات وتنتهي المطاوله الى حدها ويقع الاستيلاء آخرها بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشرين سنين أو تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى أمر العلوية وسمي الديلم الى ملك فارس والعراقيين فكثروا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصهبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي تبنى كامة من قبائل البربر عشرين سنين ويزيد تطاول بني الاغلب بأفريقية حتى ظفروا بهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى ملك مصر فكثروا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ومحج المدد لداعيتهم برأوبجر من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والقيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعسكره مدينة مصر واستولى عليها واقطع دولة بني طنج من أصولها واختط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله ففر لها الستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية من أول الترتلما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحو من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبع عشرة وسثمائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكهم من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فكثروا نحو من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيم بمر اكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فكثروا يطاولونهم نحو من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقطعوا وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربهم ثلاثين سنة أخرى حتى استولوا على كرسيم بمر اكش حسبما ذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاوله سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلائهم على فارس والروم ثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك انما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالايمن وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا

للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ (فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثره الموتان والمجاعات)

اعلم أنه قد تقررت لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في أياها ما من الدين أن كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول وإذا كانت الملكة رفيعة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفروا بكثرة التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدريج فأنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن أنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الانحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الانحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فأنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الأمور الطبيعية ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأرض كثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكاك الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وغثرته بمستمرة الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والنماء والضرع على نسبه إلا أن الناس وانقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشب الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبة الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيفسد الفساد إلى مزاجه فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأما أمراضها مخصوصة بالرئة وإن كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الأمزجة وتعرض الأبدان وتهلك بسبب كثرة العفن والرطوبة الفاسدة في هذا كله كثرة العمران وفور آخر الدولة

لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المعرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والفقر بين العمران ضروري ليكون تقوُّج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الوفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كصر بالمشرق وقاس بالمغرب والله بقدر ما يشاء

٥٢ (فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينظم بها أمره)

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي تتكلم فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعدم معرفته بمصالحهم فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعدم الشارح بالمصالح في العاقبة ولمراعاة نفعها العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسلمه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام وأساسا وينفون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدنية الفاضلة والقوانين المزاغاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العاتية فإن هذه غير تلك وهذه المدنية الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكاهن عليها على جهة القرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قد منها تذكرون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغناها الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تهاون هذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسانها المولف في العالم من مسلم وكافر إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم وقواينهم إذا جمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع الطبيعية وأشياء من مراعاة الشوك والغصية ضرورية والإقضاء فيها بالشرع وأوامر الحكماء في آدابهم

والمولى في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لانه
عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه أبوه طاهر كتابه
المشهور وعهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه من الآداب
الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن
الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم)
أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايده
حفظه واحفظ رعيته في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك
وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك
الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن
اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وأزكك العدل فيهم والقيام
بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقق لدمائهم والأمن
لسرهم وادخال الراحة عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائر ذلك
عنه وميثيقك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك
عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما وقفك الله عليه وليكن أول ما تلزم
به نفسك وتنسب اليه فعلك الموابطة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات
الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها واقتناح
ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك
ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة عن معك وتحت يديك وادأب عليها
فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالآخذ بسنن رسول
الله صلى الله عليه وسلم والامارة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده
واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله
عز وجل في كتابه من أمره ونهييه وحلاله وحرامه وانتهام ما جاءت به الآثار عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو
كرهت لقريب من الناس أو بعيد وأثر الفقه وأهله والدين وسميته وكتاب الله عز
وجل والعاملين به فان أفضل ما يترين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه
والمعرفة بما يقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآخر
به والنهائي عن المعاصي والمواقفات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة
واجلاله ودرجاته في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير
لامرله والهيبه لسلطانه والانسبة بك والثقة بعدك وعليك بالاقتصاد في الامور كلها

فليس شيء أبين نفعا ولا أخص أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد
دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد
وكذا في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن
المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستصكاش من البر والسعي له اذا كان يطالب
به وجه الله تعالى ومرضاه وموافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في
شأن الدنيا يورث العز ويخلص من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك من قاتل ولا تنصلح
أمورك بأفضل منه فاته واهتد به تتم أمورك وترزق مقدرتك ويصلح عاقبتك وخاتمتك
وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيته والنفس الوسيلة اليه في الامور كلها
تستدم به النعمة عليك ولا تهتم أحد من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف
أمره فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن
بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم بعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم
ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمد افاته انما يكتنى بالقليل من وهنك ويدخل
عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاته عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة
وراحة وتصكتفي به ما أحبت كفايته من أمورك وتدعو به الناس الى محبتك
والاستقامة في الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيته أن
تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية
والنظر في حوائجهم وحل مؤاتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيى
للسنة واخلص نيتك في جميع هذا وتفر بتقويم نفسك تفر من يعلم أنه مسؤول عما
صنع ومجزى بما أحسن ومواخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرازا وعزا
ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الا هدى وأقم
حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدره منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا
تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن
ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك
دينك وتملك مرؤتك واذا عاهدت عهدا فآوف به واذا وعدت الخير فأنجزه واقتبل
الحسنة وادفع بها واغض عن عيب كل ذي عيب من رعيته واشدد لسانك عن قول
الكذب والزور وابغض أهل النيمة فان أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقرب
الكذب والجرائم على الكذب لان الكذب رأس الماثم والزور والنيمة خاتمها لان
النيمة لا يسلم صاحبها وقاتلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واحب أهل الصلاح
والصدق وأعني الاشراف بالحق وأعني الضعفاء وصل الرحم واتبع بذلك وجه الله تعالى

واغزاز آخره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف
عنه ما رأيك وأظهر برايتك من ذلك لرعييتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحقوق فيهم
وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وأثر الحلم والوقار
وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول أنا مسلم أنفع ما أنشأه
فإن ذلك سر يعلى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه
واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزع من يشاء ولن تجد تغير
النعمة وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان
والمسوط لهم في الدولة إذا كفر وأنعم الله وأحسنه واستطالوا بما أعطاهم الله عز
وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخرك وكنوزك التي تدخروا بذكر البر
والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم
والإغانة للموهم واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو وإذا
كانت في صلاح الرعية وأعطاهم حقوقهم وكف الأذى عنهم تمت وزكت وصححت به
العمارة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك
تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفرنه على أولياء أمير المؤمنين قبلك
بحقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا فعلت
قربت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنيت بذلك على جباية أموال رعييتك
وخارجك أقدر وكن الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك وطب نفسا
بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حقد فيه وانما يبقى
من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاركرين حقهم وأثمهم عليه
وإياك أن تنسبك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون
بورث التفريط والتفريط بورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب
فإن الله سبحانه قدير أسبح عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتد بذكر الله خيرا
واحسانا فإن الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن
ذنباً ولا تعاملن جاسدا ولا ترجن فاجر ولا تصلن كفورا ولا تدخنن عدوا ولا تصدقن
غنيا ولا تأمنن عدوا ولا تولين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن من أثام ولا تحقرن
انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضيقا ولا تتخلفن وعدا ولا
تذهبن فخرا ولا تطهرن غضبا ولا تباينن رجاء ولا تمشين من حاولا تزكين سقيا ولا
تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للتمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة
ولا تطلين ثواب الآخرة في الدنيا وأكبر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم

وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل
الرفه والخل ولا تسعن لهم قولا فإن ضررهم أكثر من نفعهم وليس شيء أسرع فسادا
لما استقبلت فيه أمر رعييتك من الشح واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير
الخذل قليل العطية وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فإن رعييتك إنما تعتقد
على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفالك من أوليائك
بالانصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه
وأن العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم في بيتك حظا ونصيبا وأيقن
أن الجود أفضل أعمال العباد فاعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الخبز
في دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز
وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتريد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانسراحا
وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله
وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار
فضله الباب الآخر لزوم العمل به تلقى ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلا حافلا
واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس له به شيء من الأمور لانه ميزان الله الذي
يعدل عليه أحوال الناس في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال
الرعية وتأمين السبل ويتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة
ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقم الدين ويجرى السنن
والشرائع في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لا قامة
الحدود وأقل العجلة وابعد عن الفجر والقلق واقنع بالقسم واتق بغيرتك واتب به
في صحتك واسدد في منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ في الحجة ولا
ياخذك في أحد من رعييتك محاباة ولا محاملة ولا لومة لائم وثبت وتأن وراقب وانظر
وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا
تسرعن إلى سفك الدماء فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتها كالها بغير حقها
وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزا ورفعة ولا اله
توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولا اله الا الله فمن معاديتهم ذلا وصغارا فوزعه
بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفع شيئا منه عن شريف لشرفه
ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا ل أحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه
فوق الاحتمال له ولا تكلف أمر فيه شطط واجل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك

أجمع لألفتهم والزم إرضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما
سعى أهل عملك رعيته لأنك راعيتهم وقيمهم فخدمتهم ما أعطوك من عفوهم ونقدت في
قوام أمرهم وصلاحتهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير والتجربة
والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق
اللازمة لك فيما تقلدت واستند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف
فانك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن
الاحد وثبت في عملك واستجرت به المحبة من رعيته وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات
بملكك وفشت العمارة بناحتك وظهر الخصب في سكورك وكثر خراجك وتوفرت
أموالك وقويت بذلك على ارتباط جنك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من
نفسك وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها
ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتناقص فيها ولا تقدم عليها شيئا محمد عاقبة أمرك ان شاء الله
تعالى واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم
وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاينا لا موره كلها واذا أردت أن تأمرهم
بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت
فيه حسن الدفاع والصنع فأمنه والافتوق عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ
فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في أمره وقد آناه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم
ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد
عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرح من عمل يومك
ولا تؤخره وأكثر مباشرة بنفسك فان لغد أمور او حوادث تلهيك عن عمل يومك
الذي آخرت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا آخرت عمله اجتمع عليك عمل
يومين فيشغل ذلك حتى ترضى منه واذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدتك ونفسك
وجعت أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم من يلوث صفاء طوبيتهم
وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن
اليهم وتعاهد أهل البيوتات عن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم
حتى لا يجدوا خللتهم منافرا وأفرد نفسك بالنظر في أموال الفقراء والمساكين ومن
لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمختقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة
وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيته ومرهم برفع حوائجهم وخلصهم لتنظر فيما يصلح
الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتأملهم وأراملهم واجعل لهم أرواقا من بيت
المال اقتداء بأمر المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك

عيشهم ويزدقك به بركة وزيادة وأجر لا مراعى من بيت المال وقدم حلة القرآن منهم
والحافظين لا كره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا وأوهم وقواما
يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف
في بيت المال واعلم أن الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم يترحمهم ويزعمون
المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به مؤنة
ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب
الآجل كالذي يستغفر بما يقربه إلى الله تعالى وتلقس به رجته وأكثر الأذن للناس
عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم شرك ولن لهم
في المسئلة والنطق واعطف عليهم بيوذك وفضلك واذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب
نفس والتماس للصناعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة
مرحبة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل
السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله
سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابيه
واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودع إلى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من
الاموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر بحالة العلماء
ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هو الاتباع السنن وأقامتها واثار مكارم الاخلاق
ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذارأى عيالك تمتعه هيتك من انباء
ذلك اليك في سترها وعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك
لك وانظر عمالك الذين يحضرنك وكباك فوقك لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل فيه
بكتبه وموآمرته وما عنده من حوائج عمالك وامور الدولة ورعيته ثم فرغ لما يورد
عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكررا النظر فيه والتدبير له فما كان
موافقا للحق والحزم فأمنه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فأصرفه إلى
المسئلة عنه والتثبت ولا تمن على رعيته ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من
أحد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضع المعروف الاعلى ذلك
وتفهم كتابي اليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره
فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيته ما كان لله عز
وجل رضا ولا يشبه نظاما ولا هله عز او تمكينا وللملة والنمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل
الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلماتك والسلام * وجدت
الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمر ما أعجب به الناس واتصل بالمؤمن فلا

قري عليه قال ما أتى أبو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير
والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلق وتقويم
الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب به الى جميع العمال في
النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة
والله أعلم

٥٣ (نصل في أمر القاطم وما ينسب اليه الناس في شأنه وكشف الظاهر عن ذلك)

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على عمدة الاعصار أنه لا بد في آخر الزمان
من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولون
على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط
الساعة الثابتة في الصحيح على اثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل
معه فيساعده على قتله ويأتي بالمهدي في صلاته ويحتجون في الباب بأحاديث خرجها
الائمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار والمتصوفة المتأخرين
في أمر هذا القاطم طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتدون في ذلك على
الكشف الذي هو أصل طرائقهم * ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في
هذا الشأن وما للمتكبرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم من المستند ثم تتبعه
بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة
من الائمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبخاري وابن ماجه والحاكم
والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسدودها الى جماعة من العمامة مثل علي وابن عباس
وابن عمرو وطخمة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأبو حنيفة وأبو سلمة
وثوبان وقررة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحرث بن جرة وأسنادهم يعارض لها
المنكرون كما نذكره الآن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل
فاذا وجدنا طعننا في بعض رجال الاسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي
نطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن منها ولا نقول مثل ذلك ربما تطرق الى رجال
الصحيحين فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيهم بالقبول والعمل بما فيه ما وفي
الاجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصحيحين بما يتهم في ذلك فقد نجد مجالا
للكلام في أسانيد هاجمنا نقل عن أئمة الحديث في ذلك * ولقد توغل أبو بكر بن أبي
خليفة على ما نقل السهلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال ومن
أعزب السناد ما ذكره أبو بكر الاسكافي في فوائد الاخبار مسند الى مالك بن أنس

عن محمد بن المتكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي
فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما
احسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه الى مالك بن أنس على أن أبا بكر
الاسكافي عندهم منهم وضاع * وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسندهم الى
ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة الى زر بن حبیش عن
عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لولم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله
ذلك اليوم حتى يعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطى اسمه اسمي واسم أبيه
اسم أبي هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رجاله المشهورة ان ما سكت
عليه في كتابه فهو صالح واقطع الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل
بيت يواطى اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن
صحيح ورواه أيضا من طريق موقوفا على أبي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة
وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها
صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم اذ هو امام من أئمة المسلمين انتهى
الآن عاصم قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والاعمش
أحفظ منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف
عليه في زر وأبي وائل بشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان
ثقة الا أنه كثير الخطأ في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد
الرحمن بن أبي حاتم قلت لابي ان أبا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم
فيه ابن عليه فقال كل من اسمه عاصم سبي الحفظ وقال أبو حاتم محله عندى محل الصدق
صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن حراش
في حديثه نكرة وقال أبو جعفر العجلي لم يكن فيه الاسوء الحفظ وقال الدارقطني
في حفظه شئ وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته ردي الحفظ
وقال أيضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيه ما وقال
الذهبي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث
وان احتج أحد بان الشيخين أخرجاه فقول أخرجاه مقرونا بغيره لا أصلا والله أعلم
وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم
ابن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولم يبق من الدهر
الا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملأها عدلا كما ملئت جورا وقطن بن خليفة وان
وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم الا أن العجلي قال حسن

الحديث وفيه شيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن
يونس كان على قطن وهو مطروح لا يكتب عنه وقال مرة كنت أمرته وأدعاه
مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه
إلا بسوء مذهبه وقال الجرجاني زائع غير ثقة انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده إلى
علي رضي الله عنه عن من واث بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن شعيب بن أبي خالد عن
أبي إسحق النسي قال قال علي ونظر إلى ابنه الحسن ان ابني هذا سيد كما سماه رسول الله
صلى الله عليه وسلم يخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في
الخلق يلا الأرض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف
عن أبي الحسن عن هلال بن عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج
رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمة رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكن
لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل مؤمن نصره أو
قال اجابته سكت أبو داود وعليه وقال في موضع آخر في هرون هومن ولد السبعة وقال
السيستاني فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال
الذهبي صدق له أو هام وأما أبو إسحق الشيعي وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه
اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة
وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن
إلا من رواية مطرف بن طريف عن أبي قيس انتهى وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا
ابن ماجه والحاكم في المستدرلثين طريق علي بن فضال عن سعيد بن المسيب عن أم
سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدى من ولد فاطمة ولقبا الحاكم
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدى فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة
ولم ينكحهم عليه بتصحيم ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي بن فضال
عليه ولا يعرف إلا به وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن
صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل
المدينة هاربا إلى مكة فبأبيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين
الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخففهم بالبيداء بين مكة والمدينة
فإذا رأى الشام ذلك أتاه أباها أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ثم يش
رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم به فاقبلهم وعلمهم وذلك بعث كلب والحلبة
لم يشهد غنمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بيعة بينهم صلى الله عليه وسلم
ويبقى الإسلام بجرائه على الأرض فيلحق سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو

داود من رواية ابن الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أم سلمة فتبين بذلك المذهب في الاسناد
الأول ورجال رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغرر وقد يقال أنه من رواية قتادة عن
أبي الخليل وقاتدة مدلس وقد عنيته والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه
بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذلك كذا المهدى نعم ذكره أبو داود في أبوابه
وخرج أبو داود أيضا وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري عن طريق عمران القطان
عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
المهدى مني أجلى الجبهة ألقى الألف يلا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا
على سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدى من أهل
البيت أشم الألف ألقى أجلى يلا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش
هكذا وبسط يساره واضعين من عينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا
حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان مختلف في الاحتجاج
به إنما أخرج له البخاري احتشادا لأصلا وكان يحيى القطان لا يحتج عنه وقال
يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون
صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حور وبيا وكان يرى السيف على أهل القبلة وقال
النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الله الأحمري سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن
وما سمعت الأخير أو سمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف ألقى في أيام إبراهيم بن عبد الله
ابن حسن بقوى شديدة فيها سفل الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن
أبي سعيد الخدري عن طريق زيد العمي عن أبي صديق التاجي عن أبي سعيد الخدري
قال خشيئنا أن يكون بعض مني حدث فبأشأنا في الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في
أمتي المهدى يخرج بعيش حسا أو سبعا أو تسعا زيدا الشال قال قلنا وما ذاك قال سئل
قال فيجي إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني قال فيجي له في نوبه ما استطاع أن يجعله
لفظ الترمذي وقال هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي
صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في أمتي المهدى ان قصر فبسع والالا
قتسع قسيع أمتي فيه نعمة لم يسعوا عملها قط توفى الأرض كلها ولا يدخر منه شيء
والمال يوزع كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ أنتهني وزيد
العمي وان قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين أنه صالح وزاد أحمد انه
فوق يزيد الرافضي وفضل بن عيسى الآله قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه
ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في رواية أخرى لا شيء وقال مرة يكتب حديثه وهو
ضعيف وقال الجرجاني مقاسك وقال أبو زرعة ليس بقوى وأما الحديث ضعيف

وقال أبو حاتم ليس يذوق حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عنه أضعف منه وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسير المارواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حبثا لا يمتد عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حبثا ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يبعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورا وظلما وعدوا فأنتم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث ويخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأتمة يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حجبا وقال فيه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من السنة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي هريرة العبدى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا أو تسعا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هريرة العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا منهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه * وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب بأسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أخدني به دلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمتي يقول يستني ينزل الله عز وجل له القطر من السماء ويخرج الأرض بركتها وتمر الأرض منه

قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الأئمة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدا إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان أنه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من السنة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن يشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئا نكره فقال أنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيملقون بعدى بلاء وتشريدوا وتطريدوا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخيرة فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوها فلا يقبلونه حتى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطا كما ملأوها جورا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو جبا على الثلج انتهى * وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن أبي زياد رواه قال فيه شعبة كان رفعا يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف من فوعة وقال محمد بن الفضيل كان من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جائر الحديث وكان بالآخره يلقي وقال أبو زرعة لن يكتب حديثه ولا يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوى وقال الجرجاني سمعته يضعفون حديثه وقال أبو داود لا أعلم أحدا ترك حديثه وغيره أحب إلى منه وقال ابن عدي هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه ورؤى له مسلم لكن مقر ونا غيره وبالجملة قالوا كثرون على ضعفه وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشيء وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات لو حلف عندى خمسين عينا أقساما ما صدقته أهذا مذهب إبراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية عن

أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي من أهل البيت يصلح الله به في ليلة ويأسين العجلى وإن قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله فقال بل مننا يا ختم الله كما نفتح وبنينا يستنقذون من الشرك وبنينا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنى ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال علي أمؤمنون أم كافرون قال مقتون وكافر انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل روى عن جابر من أنكره بلغني أنه كان يكذب وقال الترمذي ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخا أحق بضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب وكان يجلس معنفا فيبصر صحابة فيقول هذا علي قد هرب في السحاب وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فإن قيمهم الأبدال يوشك أن يرسل علي أهل الشام صيب من السماء فيفرق جاعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثرون يقول بهم خمسة عشر ألفا والمقتلون يقول بهم اثنا عشر ألفا وأما رتبهم امت امت يلقون سبع رايات تحت كل راية منهم رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورأيهم اه وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألفتهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم في المستدرک عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كما عند علي رضي الله عنه فأسأله رجل عن المهدي فقال علي تهيات ثم عقد بيده سبعا فقال ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوما قزع كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الا ولون ولا يدركهم الا خرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أتريد قتل نعم قال فإنه يخرج من بين هذين الاثنين قتل لأجرم والله ولا أدعها حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما

قزع بضم أوله وفتح
الزاي ممنوع من
الصرف كآخر اه

هو على شرط مسلم فقط فإن فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق ولم يخرج له ما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقرى ولم يخرج له البخاري احتجا جليل استشهدا مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المدني عن سفيان ابن زبير بن مروان قطع عرقويه قالت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحزرة وعلي وجهه قر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وإن أخرجه له مسلم فإنه أخرجه له متابعه وقد ضعفه بعض وثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل إلا أن يصرح بالسماع وعلي ابن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد ابن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش عطاؤه فلا يخرج به وقال أحمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا يغدأ لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتكم بهذا الحديث قال فقال مجاهد فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس من أهل البيت أربعة منا السقاج ومنا المنذرونا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة فقال ابن عباس أما السقاج فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذرون أراه قال فإنه يعطى المال الكثير ولا يتعاطم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فإنه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي الذي علا الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأم من البهائم السباع وتلقى الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة اه وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن أبيه واسمعيل ضعيف وابراهيم أبوه وإن أخرجه له مسلم فلا يكرون على تضعيفه اه وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل عند كبرك ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى

واحد منهم حتى تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلوهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر
شيأ لا أحفظه قال فاذا رأيتوه فبادعوه ولوحبوا على النبل فانه خليفة الله المهدى اه
ورجله رجال الصبيحين الا ان فيه ابا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره انه مدلس وفيه
سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما ممنوع ولم يصرح بالسماع
فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالشيعة وعمي في آخر وقته فخلط
قال ابن عدي حدثت بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ونسبوه الى الشيعة
انتهى * وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جزة الزبيدي عن طريق ابن
لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحرث بن جزة قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه
قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرج الطبراني
في معجمه الاوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه وخرج البرار
في مسنده والطبراني في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال يكون في أمتي المهدي ان قصر فسبع والافثمان والاقسع تنعم فيها
أمتي نعمة لم ينعموا بعثلها رسل السماء عليهم مدرار ولا تدخر الارض شيأ من النبات
والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي أعطني فيقول خذ قال الطبراني والبرار
تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البرار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو
داود وابن حبان أيضا ما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس
به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن
حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا ما هدلم نكتبها تركتها على عبد
وكتب بعض أصحابنا عنه كنه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي
هريرة وقال حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى
يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم عليك قال
خمس وأثنى عشر قلت وما خس وأثنى قال لا أدري اه وهذا السند وان كان
فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم
يلفتوا الى قول أبي حاتم لا يحتج به الا أن فيه رجاء بن أبي رجاء الشكري وهو مختلف
فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود وضعيف وقال مرة صالح
وعلق له البخاري في صحيحه حديثا واحدا وخرج أبو بكر البرار في مسنده والطبراني
في معجمه الكبير والاوسط عن قرعة بن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقلان الارض جورا وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا من أمتي اسمه اسمي

واسم أبيه اسم أبي بلوها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمنع السماء من قطرها
شيأ ولا الارض شيأ من نباتها يلبث فيكم سبعا وأثمانا وتسعين سنين اه وفيه
دواود بن المحي بن محرم عن أبيه وهما ضعيفان جدا وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن
ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار وعلى
ابن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحي العباس ورجل من الانصار
فأغلظ الانصاري للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس ويد علي وقال
سيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ
الارض قسطا وعدلا فاذا رأيت ذلك فعليكم بالفتي التيمي فانه يقبل من قبل المشرق
وهو صاحب راية المهدي اه وفيه عبد الله بن عمر العمي وعبد الله بن لهيعة وهما
ضعيفان اه وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال ستكون قننة لا يسكن منها جانب الاثاخر جانب حتى ينادي
مناد من النخلة ان أميركم فلان اه وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدا وايس
في الحديث تصرح بذكر المهدي وانما ذكره في أبوابه وترجمته استئناسا (فهذه) جملة
الاحاديث التي خرجهما الاثمة في شأن المهدي وخرجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم
يخلص منها من النقد الا القليل والاقول منه وورعنا تلك المنكرين لشأنه عمار واه محمد
ابن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن حسن البصري عن أنس بن مالك
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي الا عيسى ابن مريم وقال يحيى بن معين في
محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل
مجهول واختلف عليه في اسناده فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن ادريس
الشافعي ومرة يروى عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم
مر سلا قال البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن أبان بن أبي عياش وهو
متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف
مضطرب وقد قيل في أن لا مهدي الا عيسى أي لا تكلم في المهدي الا عيسى يحاولون
بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث
جريح ومثله من الخوارق * وأما التصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون
في شيء من هذا وانما كان كلامهم في المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنهما من نتائج المواجه
والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى
عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري
من الشيعة كما ذكرناه في مذاهبتهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت

التأليف في مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون الوهية الامام بنوع من الحلول
 وآخرون يدعون رجعة من مات من الاثمة بنوع التنازع وآخرون منتظرون مجي من
 يقطع عونه منهم وآخرون منتظرون عود الامر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما
 قدمناه من الاحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية
 الكلام في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول
 والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بالوهية الاثمة وحلول الاله فيهم
 وظهر منهم أيضا القول بالقطب والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الامام
 والقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند
 طريقهم في لباس الخرقه أن عليا رضى الله عنه ألبس الحسن البصري وأخذ عليه
 العهد بالترام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجند من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من
 وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في
 طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم راحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها
 مما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب
 وامتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في
 الفاطمي المنتظرون وكان بعضهم عليه على بعض وياقنه بعضهم من بعض وكأنه مبنى على
 أصول واهية من الفريقين وربما استدل بعضهم بكلام المتجيمين في القرانات وهو من
 نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من
 هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب
 وابن قسي في كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تليذه في شرحه
 لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه الغارز وأما ما ورد في بعض حواري الاقل
 أو يصرح مفسر وكلامهم وحاصل مذاهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة
 بهم أظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة
 الملك ثم يعود تكبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع
 الامور الى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم يخلفها ثم يعقبها
 الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا الموضع من شأن
 النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي
 لهذا الفاطمي والدجل بعدها كتابة عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد
 ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل
 النبوة قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذي لا يوهنه انكار

من لم يزاو له وجه وجب أن تكون الامامة فمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله
 عليه وسلم أما ظاهره كبنى عبد المطلب وأما باطنه عنى كان من حقيقة الآل والآل
 من اذا حضر لم يغيب من هو آله وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه
 خاتم الاولياء وكفى عنه بلبنة الفضة اشارة الى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال
 صلى الله عليه وسلم مثل فيمن قبلي من الانبياء كمثل رجل ابتقى بيتا وأكمله حتى اذا لم يبق
 منه الا موضع لبنة فأتاك تلك اللبنة فيفسخون خاتم النبيين باللبنة حتى أكتلت البنيان
 ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويعملون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة
 ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الاولياء أي حائزا لمرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان
 خاتم الانبياء حائزا للمرتبة التي هي خاتمة النبوة فكيف كان عن تلك المرتبة
 الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة
 في التمثيل في النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب
 والفضة فيجعلون لبنة الذهب كتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كتابة عن
 هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء وقال ابن العربي فيما
 نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهره
 يكون من بعد مضي خ فبح من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل
 وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين والجميم المعجمة
 بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما
 انصرم هذا العصر ولم يظهر حل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده
 وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر والسبع مائة فانه الامام الناجم
 من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة
 فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة
 ثلاث وأربعين وسبع مائة من اليوم الحمدي وابتداء اليوم الحمدي عندهم من يوم
 وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع
 النعلين الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء وليس
 هو بنو وإنما هو ولي ابتعته روحه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه
 كالنبي في أمته وقال علماء أمتي كانبيا بني اسرائيل ولم تزل البشرية تتابع به من أول
 اليوم الحمدي الى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وثنا كدت وتضاعفت بتباشير المشايخ
 يتقرب وقته واذا لاف زمانه منذ انقضت الى هلم جزا قال وذكر الكندي أن هذا
 الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويجدد الاسلام ويظهر العدل ويقبح جزيرة

الاندلس ويصل الى رومية فيفتقها ويسير الى المشرق فيفتقها ويفتح القسطنطينية
ويصير له ملك الارض فيستقوى المسلمون ويعلموا الاسلام ويظهر دين الخليفة فان من
صلاة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت
وقال الكندي ايضا الحروف العربية غير المجهمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة
عددها سبع مائة وثلاثة واربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر
فيصلح الدنيا وتنتهي الساعة مع الذئب ثم يبقى تلك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة
وستين عاما عدد حروف المعجم وهي ق ي ن دولة العدل منها اربعون عاما قال ابن
ابي واظيل وما ورد من قوله لامهدي الاعيسى فمعناه لامهدي تساوي هدايته ولايته
وقيل لا يتكلم في المهد الاعيسى وهذا مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء في الصحيح
انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنا عشر خليفة
يعني قرشيا وقد اعطى الوجود ان منهم من كان في اول الاسلام ومنهم من سيكون
في آخره وقال الخلافة بعدى ثلاثون واحدى وثلاثون اوسنة وثلاثون وانقضاؤها
في خلافة الحسن واول امر معاوية فيكون اول امر معاوية خلافة اخذ ابا وائل
الاسماء فهو سادس الخلفاء واما سابع الخلفاء فعمربن عبدالعزيز والباقيون خمسة من
اهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لا تقر نهارا يري الامم اى انك خليفة في اولها
وذريتك في آخرها ورجعنا استدلل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو
المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك
كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفق
كنوزهما في سبيل الله وقد اتفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي
بهلك قيصر وينفق كنوز في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية
فتم الامير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة
حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكره في بعض
الروايات سبعين واما الاربعون فانها مدة ومدة الخلفاء الاربعة الباقيين من اهل
القائمين بامرهم من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات ان
مدة بقاء امره واهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا
جاري على الخلافة والعدل اربعين اوسبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكا انتهى
كلام ابن ابي واظيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر
من اليوم المحمدي حين تغشى ثلثه ارباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن اسحق
في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات انه اذا وصل القران الى الثور على رأس حضيض

بحرفين

بحرفين الصاد المجهمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وسقاة من الهجرة ينزل المسح
فيحكم في الارض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة
البيضاء شرق دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين من عقرتين صفراوين مصريتين
واضعهما كفيه على ارجحة الملكين لهلة كائما خرج من ديماس اذا طأ طأ رأسه قطر
واذا رفعه تمخدر منه جان كاللولؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق
والى البياض والحرة وفي آخره يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج
منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد اربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى
جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أبابكر وعمر يحضران بين يمين قال ابن ابي واظيل
والشبهة تقول انه هو المسيح المسيح من آل محمد قلت وعليه جل بعض المتصوفة
حديث لامهدي الاعيسى اى لا يكون مهدي الا المهدي الذي نسبته الى الشريعة
المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموحية في الاتباع وعدم النسخ الى كلام من
أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واضحة ومحكمات مختلفة
فينقضي الزمان ولا أثر لشي من ذلك فيرجعون الى تجديد رأي آخر متمثل كما راه من
منه ومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الاول منهم
والآخر * واما المتصوفة الذين عاصروا هم فأكثروا يشيرون الى ظهور رجل مجدد
لاحكام الله وعراسهم الحق ويحيون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من
ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه بمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب الباسي
كبير الاولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا
أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر
ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده اهل الحديث من أخبار
المهدي قد استوفينا جميعه ببلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم
دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكه عصية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم
أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أرى انك هنا وعصية
الفاطميين بل وقرينش أبجع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أم آخرون قد
استعلت عصيتهم على عصية قرينش الاماني بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين
من بني حسن وبني حسين وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم
عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم واما رثهم وآرائهم يلقون الأفاضل الكثرة فان صح
ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بان يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في
اتباعه حتى تتم لشوكه وعصية وافية باظهار كلمته وحل الناس عليها وأما على غير هذا

الصاد عند الفارسية
تسعين والصاد
بستين قاله نصير
اه

الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة لا يجوز نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيد فيجبون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقلد الماشهور من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما يبنونه أكثر ما يجيبون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بأفريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يصدقون رباطا بحاسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المؤمنين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو فاعنون بدعوته زعماء لا تستدلهم لأغرابه تلك الأمم وبعدهم على يقين المعرفة بأحوالهم من كثرة أوقلة أو ضعف أو قوة ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخبر وجهه عن ربيعة الدولة ومنال الأحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة عيية تمامها وسواسا وحقا وقتل كثير منهم أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبي قال خرج رباط مائة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري نسبة إلى تويزر مصغرا وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فهدس عليه السكسوى من قتله يابا وانجمل أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتمل إلى بلد المزمرة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني شيخنا المذكور بغربية في مثل هذا وهو أنه صحب في حجة في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلسان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا عظما كثيرا التمدد والخياد م قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالانققات في أكثر البلدان قال وتأكدت الصحة بيننا في ذلك الطريق فأنكشفت لي أمرهم وأنهم انما جاؤا من موطنهم بكر بلا لطلب هذا الأمر واتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلسان قال لأصحابه ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وبدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبة المكاتبة لأهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبة بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استمكن ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن أن عصبة

الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما في المغرب الآن التعصب لشأنه لم يترك لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القرية نزعة من الدعاء إلى الحق والقيام بالسنة لا يتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها ما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الآن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين انما يقصدون بها الأقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل القرية ومنها توبتهم فتجد ذلك المتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبقى وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان بين هذا الأجر من اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفقا فها من منع لا تستحكم الصبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر ويحذف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بأفريقية لرجل من كهب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد دينيا من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبا يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها ويتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ (فصل في ابتدء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن سمن البحر)

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول وأتقائها والتطلع إلى هذا طبيعة البشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروف ولقد نجد في المدن صنفان من الناس يتحلون المعاش من ذلك اعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول

يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشر والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحساب وتطرق في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المتدل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لا تقرر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر محجوبون عن الغيب الامن أطلقه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية أو أكثر ما يعنى بذلك ويتطلع اليه الامراء والملوك في آحاد دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يتقبونه أو دولة يتحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد أخبروا بحسب ما يكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لاسحق وسطح في تاويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تاويل وسطح لرؤيا الموبدان حين بعث اليه كسرى بهامع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات جديدة نائية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حديثان كثير ومعه فمما يكون لزنا من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجليل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقد يزعم بعض من اعلمهم أنه كان نبيا لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكنبر والله أعلم وقد يستند الجليل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثل ما يفتونهم في السؤال عنه * وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدة نها على العموم وفيما يرجع الى الدولة وأعمالها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثارا متولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بن امريئيل مثل كعب الاحبار وروهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر ما تورة وتأويلات محتملة ووقع لبعضهم وأمثالهم من أهل البيت كثير من ذلك مستفدهم فيه والله أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية وإذا كان مثله لا يشكر من غيرهم من الاولياء في ذوبهم وأعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم أرى الناس بهذه الرتبة الشريفة والكرامات الموهوبة وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العاتية من القرانات وفي الموالي والمساكن وسائر الامور الخاصة من الطوالع لها

وهي شكل الفلك عند حدونها فلندكر الآن ما وقع لأهل الاثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين * أما أهل الاثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسة مائة سنة وتقص ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكرك ذلك دليلا وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقد مر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها هو خمسة مائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وايس في الحديثين ما يشهد لنبي مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فاما فيه الإشارة الى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين مدة الملة من مدرك آخر لو ساعده التعميق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه الى المئة فتنتي من الالف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك انما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابني أخيط من أحبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه يحيى حين سمعا من الاحرف المقطعة الم وتأولاه على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت احدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء يحيى الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد المر فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد ايس علينا أمرنا يا محمد حتى لا ندرى أقلبلا أعطيت أم كنيت ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدرككم لعل أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن اسحق فقل

(١) هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندي قاله نصر الله

قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات اه ولا يقوم من القصة
 دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست
 طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم
 انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة واما أبو ياسر وأخوه محبي عن يؤخذ
 رأيه في ذلك دليلا ولا من علماء اليهود لانهم كانوا ياديه بالجواز غفلا عن الصناعات والعلوم
 حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وانما يتلقون مثل هذا الحساب كما تتلقفه
 العوام في كل ملة فلا ينهض للبهلي دليل على ما ادعاهم من ذلك ووقع في الملة في حدثان
 دولتهما على الخصوص مسند من الآثار الجاهلي في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن
 اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مرزوم عن عبد الله بن فروخ
 عن أسامة بن زيد اللبي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان
 والله ما أدري أنى أصحابي أم نساؤه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من
 قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدا الا قدماء لما بأسه واسم
 أبيه وقبيلته ومكتب عليه أبو داود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه
 فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحا فهو محمل ويفتقر في بيان اجاله ونعيين مبهماته
 الى آثار أخرى بجود أسانيدها ووقوع اسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير
 هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضا قال قام رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فينا خطيبا فآثر لشيئا يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدث عنه
 حفظه من حفظه ونسبه من نسبه قد علمه أصحابه هؤلاء اه واقتضى البخاري ما ترك شيئا الى
 قيام الساعة الا ذكره في كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون الى
 قيام الساعة الا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسبه من نسبه اه وهذه الاحاديث كلها
 محمولة على ما ثبت في الصحيحين من احاديث الفتن والاضطراب لا غير لانه المعهود من
 الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها
 أبو داود في هذا الطريق شاذة منكرة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي
 مرزوم في ابن فروخ أخا حاد بنه منا كبير وقال البخاري يعرف منه ويشكر وقال ابن عدي
 أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فانما
 خرج له البخاري استشهدا ادا وضعفه يحيى بن سعيد واحد بن حنبل وقال ابن خاتم يكتب
 حديثه ولا يخرج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابي
 داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر * وقد يستندون في حدثان

الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار
 والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر
 كان أصله أن هرون بن سعيد النجاشي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر
 الصادق وفيه علم ما سبق لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على
 الخصوص وقع ذلك الجفر ونظائره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي
 يقع لمثلهم من الاولياء وكان مکتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون النجاشي
 وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لان الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا
 الاسم علماء على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب
 المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم يتصل روايته ولا عرف عنه وانما
 يظهر منه شواهد من الكلمات لا يصحها دليل ولودع السند الى جعفر الصادق لكان فيه
 نم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صرح عنه أنه كان يحذر
 بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصع كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه
 وعصاه فخرج وقتل بالجور جان كما هو معروف واذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فاطنك
 بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالاصل الكريم تشهد لغروعه الطيبة
 وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى أحد وفي أخبار
 دولة العبيدين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقي في لقاء أبي عبد الله الشيعي العبيد
 الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثنا به وكيف بعثاه الى ابن حوشب داعيته ثم
 بالين فأمره بالخروج الى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعونه ثم هناك
 وان عبيد الله لما بنى المهدي بعد استئصال دولتهم بأمر يمية قال بيثها ليقتسم بها
 القواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الجمارأي يزيد بالمهدية وكان يسأل عن
 منتهى موقفه حتى جاءه الخبر يلوغه الى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر
 وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفريه وقتله ومثل هذه الاخبار عندهم
 كثيرة وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول الى الاحكام النجومية أما في الامور
 العامة ممثلا الملك والدول فمن القرانات وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين
 زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر في تلك
 المثلثة من التثلث الايمن ثم بعده الى آخر كذلك الى أن يتكرر في المثلثة الواحدة ثلثي
 عشرة مرة تستوي بوجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم
 يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة بثلثي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين
 وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على التثلث الايمن وينقل من المثلثة الى

الثلاثة التي تليها أعنى البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبله في الثلاثة وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالصغير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك الى أن يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل ثلاثة اثني عشر مرة وبعدهما اثنين وأربعين سنة فتقل الى مائة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعده عشرين سنة يقتربان في برج آخر على تثلثه الايمن في مثل درجة أو دقائقه مثال ذلك وقع القرن أول دقيقة من الحمل وبعده عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعده عشرين يكون في أول دقيقة من الاسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعدهما ستين وأربعين ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعد هذا اقتران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تفسير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القراءات قران النسيين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع ورج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر العادة والنحو في وقت قرائنها على قدر تفسير الدليل فيه قال جراس بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ الى العقرب له أثر عظيم في الملة الاسلامية لانه كان دليلا فامولدا النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هناك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وورعناهم بعض بيوت العبادة وقد يقال انه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع أحكام القراءات كانت في غاية الاحكام وذكرنا ان البطني أن الملة تنتهي الى ثلثمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن النجيين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دالمهم الزهرة وكانت في شرفها قسطنطين الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القراءات القسمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران

مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بقرب من برج الحوت ومدة ذلك ستائة وعشرين سنة وكان ظهور رأي مسلم عند انتقال الزهرة ووقع القسمة قول الحمل وصاحب الجذ المشتري وقال يعقوب بن اسحق الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستائة وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستائة وثلاث وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء وبعض هذه الحروف الواقعة في أول السور ي حذف المكرر واعتباره بحساب الحمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سأل هرمنز افريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها أربعائة وسبعاً وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس الى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص الى الزهرة وينتقل القران من الهوائية الى العقرب وهو ماني وهو دليل العرب فهذه الادلة تقتضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأل كسرى ابرويز أليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر وقال نوفيل الرومي النجم في أيام بني أمية ان ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن حيثها في قران الملة فحينئذ ما أن يفترا العمل به أو يتجدد من الاحكام ما يوجب خلاف الظن قال جراس واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكنونات وذلك عندما يقطع قلب الاسد أربعاً وعشرين درجة التي هي حد المريخ وذلك بعد مئتي تسعمائة وستين سنة وذكر جراس أن ملك زابلستان بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان أتخفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات بحروب أخيه وبعده قد اللواء الطاهر وأن المأمون أعظم حكمة فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ويكون ما يريده الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر التركة من شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيجيئون وسيملكون بلاد الروم ويكون

ما يريد الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصه بن
 داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والذين أشاروا إلى ظهورهم بعد الديلم هم
 السلجوقية وقد انتضت دوائهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القرآن إلى
 المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزجر وبعدها
 إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو
 أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة
 الأولى من القرن الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة
 ولم يستوف الكلام على ذلك * وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن انقارن
 الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لأن له دلالة عندهم على حدوث الدواة وجهاتهم من
 العمران والقائمين به من الامم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم
 وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو عمر في كتابه في القرائن وقد توجد هذه الدلالة من
 القرن الاصحرا إذا كان الاوسط دال عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول * وقد كان
 يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرائن الكائنة في الملة
 كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال
 حدثان دولة بني العباس وأنها نيات وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنهم اتفق
 في اتصاف المائة السابعة وأن بانقراضها يكون انقراض الملة ولم تقف على شيء من خبر
 هذا الكتاب ولا رأيت من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلا كمالك التتر
 في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء
 منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر
 الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه
 وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان
 وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدى عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث
 إلى الربيع والحسن في غزاتهم مامع الرشيد أيام أبيه فجتهم أجوف الليل فاذا عندهما
 كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدى فيه عشرين سنين فقلت هذا الكتاب
 لا يخفى على المهدى وقد مضى من دولته ما مضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيم اليه نفسه
 قالوا الخليفة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقالت له انسخ هذه الورقة
 واكتب ~~م~~ كان عشر أربعين ففسد فوالله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة
 والاربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول
 منظوما ومنشورا ووجزا ما شاء الله أن يكتبوه وبأيدى الناس متفرقة كثيرة نهاوتهم

الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها
 منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه
 المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روى
 الراى وهي متداولة بين الناس وتحتب العائنة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير
 منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها منصوصة بدولة ملوثة لأن
 الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبته من يد موالى بنى حمود
 وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم يمد أهل المغرب أيضا قصيدة تسمى التبعية
 أولها

طربت وماذا لى طرب * وقد يطرب الطائر المغتضب

وما ذاك منى للهو أراه * ولكن لتذكر بعض السبب

فربما من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار
 فيها إلى القاطمى وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ملحمة
 من الشعر الزجل منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرائن لعصره العلويين
 والخبين وغيرهم واذكر ميثه قتيلا بقاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خمارا * فافهموا يا قوم هذا الاشارا

نجم زحل أخبر بذي العلاما * وبدل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العماما * وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودى * يصلب بيادة قاس في يوم عبد

حتى يجيئه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على القفراد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرائن التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم
 المغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب على روى الباء في حدثان دولة بنى أبي
 حفص تونس من الموحدين منسوبة لابن الباروقال إلى قاضي قسنطينة الخطيب
 الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيرا بما يقول له وله قد قدم في التنجيم فقال لي أن هذا ابن
 البارليس هو الحافظ الاندلسي الكاتب مقتول المستنصر وانما هو رجل خياط من
 أهل تونس توأطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والذي رحمه الله تعالى ينشد هذه
 الايات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قاب * يغري سارقه الاشتب

ومنها

ويبعث من جيشه قائدا * ويبقى هنالك على مر قب
قتلى الى الشيخ اخباره * فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سيرة * وتلك سياسة مستجلب
ومنها ذكر احوال تونس على العموم

فاما رأيت الرسوم انعمت * ولم يرع حق لذى منصب
نخذ في الترحل عن تونس * وودع معاملها وذهب
فسوف تكون بها قننة * نصف البرى الى المذهب
ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بنى أبي حنص هؤلاء بتونس فيها بعد
السلطان أبي يحيى الشهر عاشر ماو كههم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها
وبعد أبي عبد الله شقيقه * ويعرف بالوئاب في نسخة الاصل
الا أن هذا الرجل لم يملكه بعد أخيه وكان معنى بذلك نفسه الى أن هلك ومن الملاحم في
المغرب أيضا الملحمة المنسوبة الى الهوشى على لغة العامة في عروضة البلاد التي أولها
دعنى بدعى الهتان * فترت الامطار ولم تقتر
واستقت كلها الويدان * وأنى على وتغدر
البلاد كلها تروى * قاوى ما ميل ماتدرى
ما بين الصيف والشتوى * وانعام والربيع تجرى
قال حين صحت الدعوى * دعنى نبكى ومن عذر
انادى من ذى الازمان * ذا القرن اشنت وتغرى

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الاقصى والغالب عليها الواضع لانه لم يصح منها
قول الا على تأويل تحرفه العامة أو الحارث فيه من يتعلمها من الخاصة ووقفت
بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتى في كلام طويل شبه الغار لا يعلم تأويله
الا الله لخلله أوقاف عديدة ورموز مغرزة وأشكال حيوانات تامة ورؤس مقطعة
وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روى اللام والغالب أنها كلها غير
صحيحة لانها لم تنشأ عن أصل على من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضا أن هناك ملاحم
أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لان ذلك انما
يؤخذ من القرائن ووقفت بالمشرق أيضا على ملحمة من حدان دولة التركة منسوبة
الى رجل من الصوفية يسمى الباجرى وكهاها الغار بالحروف أولها

ان شئت تكشف سر الجفر ياسائلى * من علم جفروصى والد الحسن
فافهم وكن واعيا حقا وجلسه * والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن

قوله قاما رأيت
أصله فان رأيت
فريدت ما وادعت
في ان الشرطية
المحذوف نونها
خطا وفي نسخة
قما رأيت والاولى
هي الموجودة في
النسخة التونسية
قاله نصره مصححه

أما الذى قبل عصرى لست أذكره * لكننى أذكر الاتى من الزمن
بشهر يبرس يبقى بجاء بعد خستها * وحاء ميم بطيش نام فى الككن
شين له أثر من تحت سمرتته * له القضاء قضى أى ذلك المن
فصرو الشام مع أرض العراق له * وأذر بيجان فى ملك الى اليمن
ومنها

وآل بوران لما نال طاهرهم * القانك الباتك المعنى باليمن
خلع سين ضعيف السن سين أنى * لالو فاق ونون ذى قرن
قرم شجاع له عقل ومشورة * يبقى بجاء وابن بعد ذوبين
ومنها

من بعد بقاء من الاعوام قتلتهم * بلى المشورة ميم الملك ذوالسن
ومنها

هذا هو الأخرج الكلبى فاعن به * فى عصره قن ناهيك من فتن
يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم * عار عن القاف قاف جد بالقتن
بقتل دال ومثل الشام أجمعها * أبدت بشجوع على الاهل والوطن
اذا أتى زلزلت يا ويح مصر من الزلزال ما زال حاء غـ برم مقتن
طاء وظاء وعين كلهم حبسوا * هاككا ويتفق أموالا بلاغن
يسير القاف قافا عند جمعهم * هون به ان ذاك الحصن فى سكن
وينصبون أخاه وهو صالحهم * لاسلم الالف سين لالك بنى
تمت ولايتهم بالحاء لا أحد * من السنين يدانى الملك فى الزمن
يقال انه أشار الى الملك الظاهر وقدم أليه عليه بمصر

يأتى اليه أبوه بعد هجرته * وطول غيبته والتخلف والزن

وأياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعها كان فى القديم كثيرا ومعروف
الاتصال (حكى) المورخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام مقتدر وراق ذكرى يعرف
بالدانية يلى الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة
ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل
على ما يريد منهم من الدنيا وأنه وضع فى بعض دقار ميم مكررة ثلاث مرات وجاء به
الى منسلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو منسلح مولى المقتدر وذكر عنه ما رماه
ويناله من الدولة ونصب لذلك علامات يومها عليه فبذل لها أغناميه ثم وضعه للوزير
ابن القاسم بن وهب على منسلح هذا وكان معزولا بقاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير

مثل هذه الحروف وعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثاني عشر من الخلقاء وتستقيم
الأمور على يديه وبقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق
وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه
الى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور والعلامات
الى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته مثل هذه الحيلة العربية في الكذب والجهل بمثل
هذه الانغارات والظواهر ان هذه المحمة التي ينسبونها الى الباجريتي من هذا النوع *
ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الخفيع من العجم بالديار المصرية عن هذه المحمة وعن
هذا الرجل الذي تنسب اليه من الصوفية وهو الباجريتي وكان عارفاً بطرائقهم فقال
كان من القنطرة المبتدعة في خلق اللحية وكان يتحدث بما يكون بطريق الكشف
ويؤي الى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما
يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقت عنه رواع الناس بها وجعلوها
محمة من موضة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك
رموزها وهو أمر ممنوع اذ الرمز انما يهدي الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما
مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها قرأت من
كلام هذا الرجل الفاضل شفا لما كان في النفس من أمر هذه المحمة وما كالتهدى
لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(الفصل الرابع من الكتاب الاول)

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يمر من في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولازم

(فصل) في أن الدول أقدم من المدن والامصار وأنها انما توجد ثانية عن الملك *
وبيانه أن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعوا اليها الترف
والدعة كما قد متناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالمدن والامصار ذات
هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتمل الى
اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تم بها
البلاوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطراراً بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم اليه
مضطهدين بعض الملك أو مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي بكثرة الملك والدولة
فلا بد في تصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكل
تشيدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر
الدولة حينئذ عمر لها فان كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة

وتراجع عمر انما هو خربت وان كان أمد الدولة طويلاً ومدة مهامتها متصحة فلا تزال المصانع
فيها نشاد والمنازل الرحبة تكثر وتهذونظاً الاسواق يتباعدون وينقسم الى أن تتسع
الخطوة وتبعد المسافة وينقسم ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر
الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغت عددها بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف
حمام وكانت مشغلة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوزا لاربعين ولم تكن
مدينة وحدها يجمعها سور واحد لا فراط العمران وكذا حال القيروان وقروطة
والمهدية في الملة الاسلامية وحال مصر القاهرة بعد ما فيها بلغنا هذا العهد وأما بعد
انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما أن يكون لغواحي تلك المدينة وما قاربها
من الجبال والبساتين بادية يتدها العمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر
عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبغراق العجم من المشرق الموجود
لها العمران من الجبال لأن أهل البداوة اذا انتهت أحوالهم الى غاياتها من الرفه
والكسب تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فيزلون المدن والامصار
ويتأهلون وأما اذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بتراصف
السكان من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياساتها فيزول حنظها ويتناقص
عمر انما شيئاً قشياً الى أن يذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالشرق
والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد
انقراض مخططيها الا ان ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وسياسة تغني بها عن
اختطاط مدينة ينزلها فتحمفظ تلك الدولة سياساتها وتزايد مبانها ومصانعها بتزايد
أحوال الدولة الثانية وترفعها وتستجد بعمر انما عمر آخر كما وقع بفاس والقاهرة ولهذا
العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ (فصل في ان الملك يدعوا الى نزول الامصار)

وذلك أن القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار
لامرين أحدهما ما يدعوا اليه الملك من الدعة والراحة وحط الانقال واستكمال
ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمور
المنازعين والمشاعين لأن المصر الذي يكون في نواحيهم بجباية يكون ملجأ لمن يروم
منازعتهم والخروج عليهم وانقراض ذلك الملك الذي سمو اليه من أيديهم فيعصم بذلك
المصر ويغالبهم مغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام
العساكر المتعددة فيمنع الامتناع ونكابة الحرب من وراء الجدران من غير حاجة

الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصاة انما احتيج اليها في الحرب للثبات لما يقع من بعد كسرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجد وان فلا يضطرون الى كبير عصاة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنارعين مما يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضع شوكة استيلائها فاذا كانت بين اجنابهم اصارا تنظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانحراف وان لم يكن هناك مصر استخروا ضرورة لتكميل عمرانهم اود وخط انقاعهم وليكون شجاعي خلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائهم فتعين ان الملك يذعوا الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

٣ (فصل في ان المدن العظيمة والبياسك المرتفعة انما يتبناها الملك الكثير)

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وانما تكون على نسبتها وذلك ان تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وورعما استعين في ذلك في أكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حل أثقال البناء عجرا القوة البشرية وضعهذه عن ذلك كالمحال وغيره ورعما يتوهم كثير من الناس اذا نظروا الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب انما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتحيل لهم اجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها تناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويفضل عن شأن الهندام والمحال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجرام عند أهل الدولة المعتمدين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا أكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسميها العاقبة عادية نسبة الى قوم عاد واهلهم انما عظم اعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم راس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العبيدين من الشيعة باقر بنية والصنهاجين وأثرهم ياد الى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الاغالبية في جامع التبريز وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان ابي سعيد بعد اربعين سنة في المنصورة بآثار تليسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الزاكية عليها ما ناله أيضا لهذا

العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت اليها أخبار أهلها قريبا وبعدا ويتقنا أنهم لم يكونوا بافراط في مقادير أجسامهم وانما هذا راي واع به القصاص عن قوم عاد وعود والعمالقة ونجد بيوت عمود في الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الجازي أكثر السنين ويشاهدونهم لا تزيد في جوتها ومساحتها وسماكتها على المتعاهد وانهم ليسوا لغون فيما يعتقدون من ذلك حتى انهم يزعمون ان عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابله سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها فقبر حارة ولا ياردة وانما هي كوكب مضى لامرأج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

٤ (فصل في ان البياسك العظيمة جدا لا تستقل بناها الدولة الواحدة)

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية قد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج الى عارضة ندر أخرى مثلها في أزمدة متعاقبة الى أن تتم فيبتدئ الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الايدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ما ناله للبيان بظنه من براه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق اليه سبعين وادبا وعاقه الموت عن اتمامه فأتته ملوك حير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الزاكية على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها وبشهادة ذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد بشرع في اختطاطها وتأسيسها فاذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في اتمامها بقيت بها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضا ما نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير لان الهدم رجوع الى الاصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء نضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسست مقرطة القوة وأنها ليست أتر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في ايوان كسرى لما اعترم الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبة يستشير في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ما ناله يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا المالك لاهل ذلك الهيكل

فاتهمه في انصيحة وقال اخذته لنعرة للعجم والله لا صر عنه وشرع في هدمه وجمع
الأيدي عليه واتخذله الفوس وجاء بالنار وصب عليه الخل حتى اذا أدركه العجز بعد
ذلك كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره ثانياً في التجاني عن الهدم فقال يا أمير
المؤمنين لا تفعل واستقر على ذلك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم
مصنع من مضان العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون
في هدم الأهرام التي بمصر وجمع القعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقبه فانتهاوا
الى جوبين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهى هدمهم وهو الى
اليوم فيما يقال منفذ ظاهر وزعم الزاعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم
وكذلك حنانيا المعلقة الى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم
وتشجيد الصنائع فجاءت تلك الحنانيا فيجاءون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط
الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في
أيام صباى كثيرا والله خلقكم وما تعملون

○ فصل فيما يجب مراعاة في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المرافاة

(اعلم) أن المدن قرار يتخذ الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتوزر
الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى
وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق
لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها بجمع اسياج الاسوار وأن
يكون وضع ذلك في ممتنع من الامكنة اما على هضبة متوعدة من الجبل واما باستدارة بحر
أو نهر باقى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على
العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ويمارعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية
طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا ومجاورا
للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها
فأسرع المرض للحيوان السكائن فيه لا محالة وهذا ما شاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب
الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب ببلد قابس من بلاد
الجزيرة باقر بقة فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حنى العفن بوجه ولقد يقال
ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها
حذر ظهر فيه اناء من نحاس محتوم بالرصاص فلما فاض ختامه صعد منه دخان الى
الجوف وانقطع وكان ذلك مبدءا أمراض الحيات فيه وأراد بذلك أن الاناء كان مشتملا

على بعض أعمال الطلسمات لويانه وأنه ذهب سره بذهابه فرجع اليها العفن والوباء
وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم
واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعته والذي يكشف لك
الحق في ذلك أن هذه الالهوية العفنة أكثر ما يهيجها المتعفن الاجسام وأمراض
الحيات ركودها فاذا تخللتها الرياح وتفتت وذهبت بها عينا رثما لا خف شأن العفن
والمرض البادى منها للحيوانات والبلد اذا كان كثيرا ساكنا وكثرت حركات أهله
فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على
الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتوجهه وبقي
ساكنا كدأ وعظم عفته وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت اقر بقة
مستحبة العمران كثيرة الساكن غوج بأهلها موجافا كان ذلك معينا على غوج
الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف
ساكنها ركدها وها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير
وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة
الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثرت ساكنها اتقل حالها عن ذلك وهذا مثل
دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد
ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد
على نهر أو يوازئها عيون عذبة ترة فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن
حاجة الماء وهي ضرورة فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من
المرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم اذا صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان
للتناج والضرع والركوب ولا بد لها من المراعى فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق
بجألهما لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضا المزارع فإن الزروع هي الاقوات
فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله
ومن ذلك الشجر للعطب والبناء فان الحطب مما تنعم البلوى في اتخاذه ولو قود النيران
للاصطلاح والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب
من ضرورياتهم وقد يراعى أيضا قربها من الجبل لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد
النائية الا أن ذلك ليس بمغاية الا في هذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو
اليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما
يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لا في الاسلام في
المدن التي اختطوها بالعراق واقر بقة فانهم لم يراعوا فيها الا اهم عندهم من مراعى

الابل وما يصلح لهما من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى الساعة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقريوات والكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب الى الخراب لما لم تراع فيها الامور الطبيعية
(فصل) وعما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين اثنى من الامم موفرة العدو تكون صريحاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصابات ولا موضعاً متوعر من الجبل كانت في غرة لبيات وسهل طرقها في الاساطيل البحرية على عدوها وتحيقه لهما ما يأمن من وجود الصريح لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كلاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلاو متى كانت القبائل والعصابات موطنين بقربها بحيث يلغهم الصريح والنعر وحيث كانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى استنهاكها بذلك منعة من العدو وينسوا من طرقها لما يكادونه من وعدها وما توقعونه من اجابة صريحها كما في سبتة ومجاية وبلد القل على مغرها فانهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها بركة وافر يقية وانما اعتبر في ذلك الخفاة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس في الملامح مرات متعددة والله تعالى أعلم

(فصل في المساجد والبيوت العظيمة في الاسلام)

(اعلم) أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعاً اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب ويغوبها الاجور وأخبرنا بذلك على السن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهلاً للطرق السعادة لهم * وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبا ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في التماس بالحج اليه فبناءه هو وابنه اسمعيل كانصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالبحر من بيت المقدس بناء داود سليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حو اليه * والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمر الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين

الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان لهذه الشريف في تربتها هذه المساجد الثلاثة قرعة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها وضاعضة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كمل ظهورها في العالم *
(فأما مكة) * فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وانما اقتبسوه من محل الآية في قوله واذ رفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وصكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرهما من هاجر ما هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالقلاة فوضعهما في مكان الميت وسلم عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم وهو روافقة من جرهم بهما حتى احتلواهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوا الى زمزم كما عرف في موضعه فاختار اسمعيل بموضع الكعبة يتأوى اليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زراً بالغنم وجاء ابراهيم صلوات الله عليه من الزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبني اسمعيل ساكنيه ولما قبضت أمه هاجر وقام بتوهم من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لآمن بنى اسمعيل ولا من غيرهم من دناءة نأى فقد نقل أن التبايع كانت فتح البيت وتعظمه وأن عاصكها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحاً ونقل أيضاً أن القرس كانت تحججه وتقرب اليه وأن غزالي الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قريشهم ولم يزل بطرهم الولاية عليه من بعد واد اسمعيل من قبل خولتهم حتى اذا خرجت خراعة وأقاموا بها بعدهم ماشاء الله ثم كنز ولد اسمعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وسامت ولاية خراعة فقبلتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى خلقت بشوبى راهب الدور والى * بناها قصي والمضاض بن جرهم ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم وانكسرت سقيفة بساحل جذة فاشترىوا خشب اللبنة فو كانت جذرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً وكان الباب مصقاً بالارض فجعلوه فوق القامة اثنتا عشرة ذراعاً ودخله السبول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصر واعن قواعده وتركوامنه سنة

أذرع وشبرا أداروها بجدار قصير بطاف من ورائه وهو الحجر وبقى البيت على هذا البناء
 إلى أن تحصن ابن الزبير مكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع
 الحصين بن غير السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط
 الذي رموا به على ابن الزبير فأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في
 بنائه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك
 حديثي عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا
 فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابرح حتى عاينوه
 وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب
 ونصب من فوقها الاستار حفظا للقبلة وبعث إلى صنعاء في النضفة والكلس فخملها
 وسأل عن متطع الجارة الأولى فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس
 إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصتين
 بالأرض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفايح
 الأبواب من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد
 بالنصبقات إلى أن تصدعت حيطانها ثم لما نظروا بن الزبير شاورا عبد الملك فيما بناء
 وزاده في البيت فأمره به بدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال أنه
 ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت أني كنت حملت
 أبأخيبي في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحجر
 وبناه على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب
 الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيئا فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء
 الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لجهة ظاهرة بين البنائين والبناء متميز عن البناء
 بقدر أصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض ههنا أشكال قوى لما فاته لما يقوله
 الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس
 الجدران أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدران إنما قامت على بعض
 الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد
 من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما لا يقع بعض طوافه داخل البيت
 وإذا كان الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو انما بنى على أساس إبراهيم فكيف
 يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين إما أن يكون الحجاج
 عديم جميعه وأعادته وقد نقل ذلك جماعة الآن العيان في شواهد البناء بالتمام ما بين
 البنائين وتميز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصنعة يرد ذلك وإما أن يكون

ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته وانما فعل ذلك في الحجر فقط
 ليدخله في الآت مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد
 ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء
 للطائفتين ولم يكن عليه جدران أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر
 الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا
 دون القمامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعد
 الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك
 لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك
 أن جعله مهبط اللوح والملائكة ومكانا لآبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب
 الحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب لغيره من كل من خالف
 دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من الخيط الأزارا
 يستتره وحى العائذ به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف
 ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمه من طريق
 المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثانية من جبل
 المنة طع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن غرة ومن طريق جدة سبعة أميال
 إلى منقطع العنابر * هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها
 من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الأصمعي لأن الناس يذك بعضهم بعضا
 إليها أي يدفع وقال مجاهد بكة أبدلوا همما كما قالوا لا زب ولازم اقرب الخرجين
 وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء المسجد كله وبالميم الحرم
 وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والمولود يبعث إليه بالاموال والذخائر
 كسرى وقيصر وقصة الاسيا فوغز إلى الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتضر
 زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم حين افتتح مكة في الحب الذي
 كان فيه سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان المولود يهدون للبيت فيه سبعمائة ألف
 دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول
 الله لو استغنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال
 الأزرق وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال جلست إلى شيبة بن عثمان وقال جلست
 إلى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لأدع فيه اصفراء ولا يضاء الا قسمتها بين المسلمين
 قلت ما أنت بقاعل قال ولم قلت فلم يفعل صاحبك فقال هما اللذان يقتدي بهما وخرجه
 أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الافطس وهو الحسن بن

الحسين بن علي بن علي تزين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة محمد
الى الكعبة فأخذ ما في خزانها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينفع
به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجناه وتصرف فيه وبطلت الخبيرة من الكعبة
من يومئذ * (وأما بيت المقدس) وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام
الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه بصبونه على الخبيرة التي
هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبله لصلاتهم * وذلك
أن موسى صلوات الله عليه لما خرج بني اسرائيل من مصر لئلا يكفهم بيت المقدس كما
وعده الله أباهم اسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ
قبة من خشب السنت عين بالوحى مقدارها وصفتها وهياكلها وثمانيلها وأن يكون
فيها التابوت ومائدة بصحافها ومناارة بفتاديلها وأن يصنع مذبحا للقربان وصف ذلك
كله في التوراة أكمل وصف صنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي
فيه الألواح المصنوعة عوضا عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع
المذبح عندها وعهد الله الى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان ونصبوا
تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون اليها ويقربون في المذبح أمامها ويتعرضون
للوحى عندها ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الخبيرة
بيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجد على الخبيرة مكانها فلم يتم له ذلك
وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربعة سنين من ملكه ولحمائة سنة من وفاة موسى
عليه السلام واتخذ عمده من الصقر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه
بالذهب وصاغ هياكله وتمثيله وأوعيته ومنازله ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره
قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلداً به
داود تحمله الاسياد والكهنة حتى وضعه في القبر ووضع القبة والأوعية والمذبح
كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بختنصر بعد
ثمانمائة سنة من بنيائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهيكل ونزل الاجار ثم لما
أعادهم ملوك الفرس بناء عزير بنى اسرائيل لعهد باعانه بهم ملك الفرس الذي
كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختنصر وحملهم في بانه حدودا دون بناء
سليمان بن داود عليه ما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداوتهم ملوك يونان والفرس والروم
واستفعل الملك ابني اسرائيل في هذه المدة ثم لبى خسمان من كهنتهم ثم لصمهم
هيردوس ولبى به من بعدهم وبنى هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام
ونابى فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء بطليموس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم

خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم يدين المسيح عليه
السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصارى تارة وتركه
أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمته هيكلانه وارتحلت الى المقدس في طلب
الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساسة بأنه رمى بخشبة على الارض
والتى عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات
كنيسة القمامة كأنهم على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت
ب طرح الزبل والقمامات على الخبيرة حتى غطاها حتى مكانها اجزاء بزعمهم الما فعلوه بقبر
المسيح ثم بنوا بآراء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي
الامر كذلك الى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الخبيرة فأرى
مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة
وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت ثم
احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بمائة الف من
الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة
وفي مسجد دمشق وكانت العرب تعظمه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يعث الفعلة
والمال لبناء هذه المساجد وأن ينفقوا على أنفسهم فأساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على
ما اقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت
في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجية الى بيت
المقدس فملكوه وملكوا معه عامة تغور الشام وبنوا على الخبيرة امة تدعى كنيسة
كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي
بملك مصر والشام ومحاذي العبيدين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من
الفرنجية حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من تغور الشام وذلك نحو
ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الخبيرة وبنى المسجد على
النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث
الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أى قال
بيت المقدس قيل فكلم بينهم ما قال أربعون سنة فان المدعيين بناء مكة وبين بناء بيت
المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لأن سليمان بنى به وهو ينفق على الالف بكثير *
واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يعد
أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل أن الصابئة
بنوا على الخبيرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية

تضع الاصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها وانصابه الذين ينواهيكل الزهرة
كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة
ووضع بيت المقدس وان لم يكن هنالك بناء كما هو المعروف وأن أول من بنى بيت المقدس
سليمان عليه السلام فتقدهم فيه حل هذا الاشكال * (وأما المدينة) * وهى
المسماة ببيت فقي من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من
أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاؤهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى
حصونها * ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها
فهاجر اليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذى
كان الله قد أعد له لذلك وشرفه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا
الانصار وسمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكمامات وغلب على قومه وفتح
مكة وملكها ووطن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فأهمهم ذلك فخطبهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملجده
الشريف فيها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا يخفى ووقع الخلاف بين
العلماء في تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص
الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل
ذلك عبد الوهاب في المعونة الى احاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو
حنيفة والشافعي * وأصبحت على كل حال نائية المسجد الحرام وجنح اليها الامم
باعتدالهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق
من عناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدرجه على ترتيب محكم في أمم ورايين
والدينا * وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلم في الارض الا ما يقال من شأن مسجد
آدم عليه السلام بسريديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شئ يعول عليه وقد كانت
للامم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس
وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها
في غزوانه وقد ذكر المسعودى منها بونا السخام من ذكرها في شئ اذهى غير مشروعة ولا
هى على طريق ديني ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكتفى في ذلك ما وقع في التواريخ
فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبيله

(فصل في ان المدن والامصار بأفريقية والمغرب قليلة)

والسبب في ذلك أن هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وكان

عمرانها كله بدو ولم تستقر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم
من الافرنجة والعرب لم يطل أمدهم ~~لهم~~ فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد
البداءة وشؤونها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر
لأنهم أعرق في البدو والصنائع من نواحي الحضارة وانما تتم المباني بها فلا بد من الخدق
في تعلمها فلم يكن للبربر احتمال لها لم يكن لهم تشوق الى المباني فضلاً عن المدن وأيضاً
فهم أهل عصيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصية أجح الى
البدو وانما يدعوا الى المدن الدعة والسكون ويصيرساكنة بما على حمايتها فوجد
أهل البدو لذلك يستكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ولا يدعوا الى ذلك الا
الترف والغنى وقيل لما هو في الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثره
بدوياً أهل خيام وظوا عن وقباطن وكث في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره
قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لان
العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتهم والتحامها
الافى الاقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الانساب لان لجة النسب أقرب وأشد
فتمكون عصيته كذلك وتزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذى
يذهب بالبساطة ويصير عبداً على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه
التوفيق

٨ فصل في ان المباني والصنائع في الملة الاسلامية قليلة بالانصبة الى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه اذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن
الصنائع وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الاسلام ولما تملكوها
لم ينقسخ الامد حتى تستوفى رسوم الحضارة مع انهم استغنوا بما وجدوا من مبانى
غيرهم وأيضاً فكان الدين أول الامر مانعاً من المغالاة في البناء والاسراف فيه
في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق
في القصب الذى كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أليات ولا
تطاولوا في البناء والزمو السنة تلتزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس
أن لا يرفعوا شيئاً فوق القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقر بكم من السرف ولا يخرجكم
عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتعرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك
والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمبانى ودعيتهم اليها

أحوال الدعة والترف حينئذ يشدو المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بقراض
الدولة ولم ينفسح الامد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك
غيرهم من الامم فالقروم طالت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم
وكذلك العرب الاولى من عاد وغودو والعمالة والتابعة طالت آمادهم ورسخت
الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الأيام أثرا واستبصر
في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

٩ (فصل في ان المباني التي كانت تحتلها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل)

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعده عن الصنائع كما قد مناه فلا تكون المباني وثيقة
في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمر به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار
في اختطاط المدن كما قلناه في المصانع وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فانه
بالنشاوت في هذه تتفاوت جودة المصرورداءة من حيث العمران الطبيعي والعرب
يعزل عن هذا وانما يراعون مراعى ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو
كثروا يسألون عن زكاة المزارع والمنابت والاهوية لا تنقأ لهم في الارض ونقلهم
الجوب من البلد البعيد وأما الرياح فالقفر مختلف لاهاب كل ما والطعن كقيل لهم
بطبيها لان الرياح انما تنجذب مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا
الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الامراعى ابلهم وما يقرب
من القفر ومالك الطعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة
تمد عمرانها من بعدهم كما قد مناه فيحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير
طبيعية لقرارهم ولم تكن في وسط الامم في عمرها الناس فلا قول ودلة من انحلال أمرهم
وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجها لما أتى عليها الخراب والانحلال كان لم تكن والله
يحكم لامعقب لحكمه

١٠ (فصل في مبادئ الخراب في الامصار)

اعلم ان الامصار اذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر
والجير وغيرهما مما يباع على الحيطان عند التأتق كالزجاج والرخام والريج والزجاج
والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ يوابوا آلتها فاسدة فاذا عظم عمران
المدينة وكثرت مساكنها كثرت آلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصنائع الى أن تبلغ
غايتها من ذلك كما سبق شأنها فاذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لاجل
ذلك فقدت الاجادة في البناء والاحكام والمعالة عليه بالتتميق ثم تقل الاعمال لعدم

الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتنقص ويصير بناؤهم
وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء
أكثر المصانع والقصور والمنازل بقله العمران وقصوره عما كان أولا ثم لا تزال تنقل
من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جلة فيعودون الى البداوة
في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التتميق بالكلمة فيعود بناء
المدينة مثل بناء القرى والمدن ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص الى غايتها
من الخراب ان قدر لها به سنة الله في خلقه

١١ (فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرخاء لا يلزمها اتفاق)

الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته
في معاشه وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون
طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا بالقوت من الخطة مثلا لا يستقل
الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار
للآلات وقائم على الدق واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلج وتوزعوا
على تلك الاعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت
لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم
فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى
فيها بالآل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف
في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويسجلونه منهم
بأعواض موقية فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب
الكسب والرزق أن المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم
فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأتق
في المساكن والملابس واستجداء الآتية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه
كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صنعائها والقيام عليها فتستغرق أسواق
الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصروخرجه ويحصل اليسار للمتحلى ذلك من قبل
أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت
عوائده وحاجاته واستتبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب
في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية

والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعواند من الترف لا توجد في الاخر فاما كان عمرانه من الامصارا كثيرا ووفر كان حال اهله في الترف ابلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف القاضية مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والامير مع الامير والشرطي مع الشرطي * واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال قاس مع غيره من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجدينهما ابونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بقاس اوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف اهله وكذا ايضا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع مادونهم ما الى أن تنتهي الى المداشر الذين اعتملهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما ذلك الالتغاوت الاعمال فيها فكانها كلها اسواق للاعمال والخرج في كل سوق على نسبه فالقاضي بقاس دخله كفاء خرج وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الاحوال أعظم وهم بقاس أكثر لنفاق سوق الاعمال بما يدعوا اليه الترف فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسطنطينة والجزائر وبكرة حتى تنتهي كما قلنا الى الامصار التي لا توفى اعمالها بضرورتها ولا تعد في الامصار اذهى من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الامصار الصغيرة ضعفاء الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن اعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأكلونه كسبا فلا تتم مكاسبهم وهم لذلك مساكين محاييج الا في الاقل النادر واعتبر ذلك حتى في احوال الفقراء والسؤال فان السائل بقاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بقاس السؤال بسألون أيام الاضاحي أثمان ضخماهم ورأيهم يسألون كثيرا من احوال الترف واقتراح المأكول مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغريبال والانية ولوسأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجروا بغنا هذا العهد عن احوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون من النقلة الى مصر لذلك ولما يلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو اموال مختزنة لديهم وأنهم أصغر صدقة واينارا من جميع أهل الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الامصار التي لديك فعظمت لذلك احوالهم * وأما حال الدخل والخرج

فتسكافى في جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر كل شئ يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنده من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف احوالها في هجرانها أو غشيانها فان بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبه منها أكثر بساحتها وأقربها بثر الجيوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويخلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتغلي مشبعها ورياب بيوت أهل الخصاصة والفقراء انك اسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها ديب ولا يخلق بجوها طائر ولا تأوى الى زوايا بيوتهم قارة ولا هرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناس بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يسهلها الاستغنائهم عنها في الاكثر لوجود امثالها لديهم واعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرة والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غنى عن العالمين

(فصل في اسرار المدن)

١٢

اعلم أن الاسواق كلها تشمل على حاجات الناس فيها الضروري وهي الاقوات من الخبثه وما في معناها كالباقل والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكمالي مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضرورى من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قل ساكن المصر وضعفت عمرانه كان الامر بالعكس * والسبب في ذلك أن الجيوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيقيم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الاكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته فتفضل عنده وعن أهل بيته فضله كبيرة تستدخلة كثيرا من أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شئ فتخص أسعارها في الغالب الا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات المعاوية ولولا احتكار الناس لها لما توقع من تلك الآفات لبدات دون ثمن ولا عوض لكثرة ما بكثرة العمران * وأما سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لاتعم بها البلوى ولا يصير فقر اتخاذها

أعمال أهل مصر أربعين ولا الكثير منهم ثم إن المصر إذا كان مستجرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستمتاع بها كل بحسب حاله في قصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغوا ويكثر المستامون لها حتى قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبدل أهل الرفة والترف أثمانها بأسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه * وأما الصنائع والأعمال أيضا في الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الأولى كثرة الحاجة لما كان الترف في المصر بكثرة عمرانها والثاني اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم وإمتنان أنفسهم بسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها وانما كانت كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى إمتنان غيرهم وإلى استعمال الصنائع في منافعهم فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاجحة ومنافسة في الاستثمار بما يعتز العمال والصنائع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك * وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فاقواتهم قليلة ثقل العمل فيها وما يتوقعونه أصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويشتكرونه فيعجز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما ما رافقتهم فلا تدعو إليها أيضا حاجة بقله الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخس في سعره وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب الحضر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يسهم وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أعلى من الأسعار في البادية إلا المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرت في الأمصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة علاجه في الفلج ويحافظ على ذلك في أسعارها كما يقع بالاندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما أجازهم النصارى إلى سيف البحر وبلادة المتوعدة الخبيثة الزراعة النكدية الثبات وما كوا عليهم الأرض الزراعية والبلد الذي فاحت أحوال إلى علاج المزارع والقدن لأصلاح نباتها ولحماها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلتهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعيرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالسلام مع سواحلها لأجل ذلك وبحسب الناس إذا هو بالغلاء الأسعار في قطرهم أنها أقله الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلما فهم علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أرضوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح الأقل من أهل الصنائع والمهن أو الطراز على الوطن من الغزاة الجاهدين ولهذا يختص بهم السلطان

في عطائهم

في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوقاتهم من الزرع وانما اليب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه * ولما كانت بلاد البر بالعكس من ذلك في زكا منابهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جلة في الفلج مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخس الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه

١٣ (فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران)

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعد تلك الحاجات لما يدعوا إليها فتقلب ضرورات وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدهام الأغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال فتكثر تلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانها ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوى لم يكن دخله كثيرا إذا كان ساكنا فكان كاسدا للأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأهل كسبا ولا ما لا يتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدو يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر إلى المال وكل من يشوف إلى المصر وسكاه من أهل البادية فسريع ما يظهر عجزه ويقتضخ في استبطانه الأمن يشتم منهم تأهل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري إلى الغاية الطمعية لأهل العمران من الدعة والترف حينئذ ينتقل إلى المصر وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترفعهم وهكذا شأن بادية عمران الأمصار والله بكل شيء محيط

١٤ (فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بالرف والفقير مثل الأمصار)

(اعلم) أن ما توفّر عمرانها من الاقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم * والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما ساقى ذكره من أن سبب الثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتألفونه حسب ما يند كذا في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيستزيد الرفه لذلك وتتسع الأحوال ويحجب الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بتفاق الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها وتتقن في اتخاذ المعامل والحصول

واختطاط المدن وتشيد الامصار * واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر الشام
وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما
كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواسرهم
وعظمت مناجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الامم
النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفعتهم واتساع أحوالهم أكثر من أن
يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال
أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى
والرفعة غرائب تـسـير ان كان بحديثها ووربعاً تتلقى بالانكار في غالب الامر ويحجب من
يسمعها من العجائز أن ذلك لزيادة في أموالهم أولان المعادن الذهبية والفضية أكثر
بأرضهم أولان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فعند
الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب
وجميع ما في أرضهم من البضاعة فائما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال
عند اموفور الذين لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يتغنون بها الاموال ولا يستغنوا
عن أموال الناس بالجملة * ولقد ذهب النجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في
المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب
والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك
صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما
أعطوا في ذلك السبب النجمي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه
من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره ووفرة العمران تفيد كثرة
الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفعة من بين الآفاق
لأن ذلك ليجرد الآثار النجمي فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك وأن
المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها أمر لا بد منه * واعتبر حال هذا
الرفعة من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت
أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها
بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة به اعلى ما بلغ من الرفعة وكثرة الجبايات واتباع
الاحوال في نفقاتهم وأعطيائهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القبروان الى
صاحب مصر لحاجته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في
سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعذبها الارزاق الجنود واعطيائهم ونفقات
الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت

أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك
لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده
نقصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال افريقية بعد أن كان عمرانها
متصلا من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة وهي
اليوم كلها أكثرها قفار وخلاء وصحارى الاما هو منها بسبب البحر أو ما يقاربه
من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ (فصل في تأمل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومنفعتها)

(اعلم) أن تأمل العقار والضياع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة
ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها
عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفعة ما عسى أن تبلغ وانما يكون ملكهم وتأملهم لها
تدرجاً ما بالورثة من آباءه وذوي رحمه حتى تتأذى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد
وأكثر ذلك أو أن يكون بحواله الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى
عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعى المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقله المنفعة
فيها يتلاشى الاحوال فتخص قيمها وتتملك بالانحسار اليسيرة وتختل بالميراث الى ملك
آخر وقد استجد المصر شبابه باستقبال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال راقية حسنة
تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعتها حينئذ فتمت قيمها ويكون
لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحواله فيها ويصبح مال الكهان أغنى أهل المصر
وليس ذلك بسعيه وكتابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك * وأما فوائد العقار
والضياع فهي غير كافية لما لكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسيابه
وانما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان
أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما هو الخشية على من يترك خلفه من
الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ماداموا عاجزين عن
الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من
الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار
قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه وأما القول منه واجراء أحوال المترفين فلا
وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحواله الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه
والعالى في جنسه وقيمه في المصر الا أن ذلك اذا حصل ربما استدت اليه عين الامراء
والولاة واعتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار

ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

١٦ (فصل في حاجات المتولين من أهل الامصار الى الجاه والدافعة)

وذلك أن الحضري اذا عظم ماله وكثر العقار والضياع تأله وأصبح أغنى أهل المصر ورمقه العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوبه وبما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تلك ما ييده وينافسون فيه ويحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربة حكم سلطاني وسبب من المواخذة ظاهر ينتزع به ماله واكثر الاحكام السلطانية جائرة في الغالب اذا العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تدود عنه وجهه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالصة له أو عصية يتحاماها السلطان فيستظل بظلمها ويرتفع في أنسها من طوارق التعدي وان لم يكن لذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام والله يحكم لامعقب حكمه

١٧ فصل في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترجع باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الام في القلة والكثرة تفاوتها غير منحصرة تقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها تكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه والمهارة فيه وبقدرا ما يتزايد من أصنافها تزايد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجليل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصنائع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح أمددها وتكرير أمثالها تزايدها استحكما ورسوخا واكثر ما يقع ذلك في الامصار لاستمرار العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجي من قبل الدولة لان الدولة تجمع أموال الرعيمة وتنفعها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر وهم الاكثر فتنعم بذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحسبهم لديهم الصنائع في سائر قنونه وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة

ومقرها وما ذاك الا المجاورة السلطان اهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه فاقرب من الارض الى أن ينتهي الى الجحوف على البعد وقد قد من أن السلطان والدولة سوق للعالم فالصنائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت الصنائع جملة ثم انه اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحد بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحو من ألف وأربعمائة سنة رسيخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائد والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى انهم اتخذ عنهم في الغالب الى اليوم ورسيخت الحضارة أيضا وعوائد في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة * وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسيخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ لا كل فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسيخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة آلافا من السنين وأعتبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة الباطن والفرس بها من لدن الكلدانيين والسكانيين والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا رسيخت عوائد الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بنى أمية آلافا من السنين وكتبت الدولتين عظمة فارتفعت فيها عوائد الحضارة واستحكمت * وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الافرنجة الى افريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأقار وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا يعنون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجدهم ما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه اذ كانوا برابرة منغمسين في البداوة ثم انتفض برابرة المغرب الاقصى لا قرب العهد وعلى يد ميسرة المطفرى أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وان يابغوا لا دريس فلا تعد دولته فيهم عربية لان البرابرة الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدو بقيت إفريقية للاغلبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء مما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان

وورث ذلك عنهم كرامة ثم صنهاجة من بعد هم وذلك كله قليل لم يبلغ أربع مائة سنة وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقى أثر خفي من حضارة العمران فيها وإلى هذا العهد يؤنس فمين سلفه بالقلعة أو القيزان أو المهدية سلف قبحه من الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصري بها وكذا في أكثر أمصار إفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمدا منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وإفريقية حظ صالح من الحضارة عني عليه الخلاء ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصارها منذ أول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائده أهل مصر بكثرة المترددين بينهم * ففتن لهذا السرقاته خفي عن الناس واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الامة أو الجليل وعظم المدينة أو المضر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومناجرهم وإذا أقاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأعماله كله العمران وكثرتهم فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكمكم لأمعق الحكمة

١٨ (نصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية العمران وانها مؤذنة بفساده)

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية وأن الحضارة غاية للبداوة وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقه له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في المعقول والمقول أن الأربعين

للإنسان غاية في ترانيد قواه وغوها وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوة والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فاعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لانه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجداء أحواله والكلف بالصنائع التي تؤتى من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهمة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأني في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأني فيها وإذا بلغ التأني في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أما دينها فلا تستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزاعها وأما دنياها فليكثر الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويحجز الكسب عن الوفاء بها * ويأني أن المضر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهلها والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فتي كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قد منا أن المضر الكثير العمران يختص بالغلاء في أحواله وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استيفائها وهو زمن وضع المكوس في الدول أكثر خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك دخلا في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكتهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتابعون في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبايع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص فن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بالألوان اشرفي تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفينة والتحميل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس إلى الفسق في ذلك والغوص عليه واستجماع الخيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلافة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبه مر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الخشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب

وذوى المحارم الذين تقتضى البداءة الحياء منهم في الاقتداع بذلك وتجدهم أيضا أبصر
بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه يتألمهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب
على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقالا كثرهم الامن عصمه الله ويعوج بحر
المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة
ورولدانهم ممن أهل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب
ويوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب
الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل باى توجه كان وفسد
خلق الخريف لم ينفعه زكاه نسيه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت
وذوى الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار من تخليج للعرف الدينية في
معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسففة واذا كثر ذلك
في المدينة أو الامة تأذن الله بخرابها وانقرضها وهو معنى قوله تعالى واذا أردنا أن
نهلك قرية أمرنا مترقيها ففسدوا فيها الحق عليها القول فدمرناها تدميرا * ووجهه حينئذ
أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لثمة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم
أحوالهم واذا فسدت أحوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت
وهذا معنى ما يتوله بعض أهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج
تأذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحاشى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك
ولا أنه خاصية في النارنج وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة
ثم ان النارنج والليم والسرور وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايه الحضارة
اذ لا يقصد به في البساتين الاشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفنن في مذاهب الترف
وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في
الدفلى وهو من هذا الباب اذا دفلى لا يقصد به الاتلون البساتين بنورها ما بين أحر
وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاصد الحضارة الانغماس في الشهوات
والاسترسال فيها الكثرة لترف فيقع التفنن في شهوات البطن من المأكول والملاد
ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك
الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل واحد به اذ
هو غير رشدة لان المياه مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام
عليهم فيملكون ويؤدى ذلك الى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو
يؤدى الى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدى الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب
مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد انشريعة

واعتبارها

واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترفع وأنه
اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول
ان الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان
باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري
لا يقدر على مباشرة حاجاته اما عجزا لما حصل له من الدعة أو ترفعا لما حصل له من المربي
في النعيم والترفع وكلا الأمرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة
خلق السعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترف والنعيم في قهر
التأديب فهو بذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضا غالبا فاسدت
منه العوائد وطاعتها وتلونت به النفس من مكانتها كما قررناه في الاقل الزادروا اذا
فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار معها على الحقيقة
وبهذا الاعتبار كان الذين يربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقدمين
أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل
يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

١٩ (نصل في ان الامصار التي تكون كرامى للملك تحرب بحراب الدولة وانتقاضها)

قد استقرينا في العمران أن الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي يكون
كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهى في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك
يتخلف والسبب فيه أمور * (الاول) * أن الدولة لا بد في أولها من البداءة المقتضية
للتجاني عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمقارم
التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصر الذي كان كرسيا
للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فحين
تحت أيديها من أهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا
لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرها لما يدعوا اليه خلق الدولة من الانقباض
عن الترف في جميع الاحوال وقلة القوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة
المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر * (الامر
الثاني) * أن الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة
والحروب والعدواة تقتضى منافاة بين أهل الدولتين وتكثر احداهما على الاخرى في
العوائد والاحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمتنافي الاخر فتكون أحوال
الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة وممتبشة وقيحة وخصوصا أحوال

الترف فتفقد في عرفهم بغير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في مصر * (الامر الثالث) * أن كل أمة لا بد لها من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكا آخر صار له الأول وأما مصر تابعة لامصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسع الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز لأن نطاق فيجده مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة انما هي توفرا العمران كما قد مناه فتتقص حضارته وعقدته وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبنى العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مراکش إلى فاس وبالجملية فاختار الدولة الكرسي في مصر بخل بعمران الكرسي الأول * (الامر الرابع) * أن الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشيائها تنحوي إليهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل مصر الكرسي أشياع الدولة آمنة الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان مصر لأن لهم في الغالب مخاطمة للدولة على طبقاتهم وتوقع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شبيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة فينتقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكيتها ببعضهم على نوع التغرب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الباعة والهميل من أهل الفلح والعبارة وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتها وأشيائها من يشتد به المصر وإذا ذهب من مصر أعيانهم على طبقاتهم نقص ما كنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فإظهار من قدرته على تغيير تلك الأوصاف وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراشي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار * والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقررت في علوم الحكمة أنه لا يمكن انشكال أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من

العدوان الداعي إلى النزاع فتعين السياسة لذلك أما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا يتفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه واختلال العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو القرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فاختلالها متعاقبة على العمران حافظ لوجوده وبقائه وقرية الشبه بعضهم من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هي العصية والشوكة وهي مستقرة على أشخاص الدولة فإذا ذهبت تلك العصية ودفعتها عصية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة ياجعهم وعظم الخلل كما قررناه أولا والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ (فصل في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع ودون بعض)

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل مصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعاتهم ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في مصر والحاجة إليه وما لا يستدعي في مصر يكون غفلا إذا فائدة لمتحملة في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والتجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحوالها فأنما يوجد في المدن المستجرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصانع والدهان والطباخ والصغار والقراش والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك مصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لأنها انما توجد في الأمصار المستحضرة المستجرة العمران لما يدعوا إليه الترف والغنى من النعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفرغ عنها القومة لقله فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ (فصل في وجود العصية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض)

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قد مناه أضعف مما يصحكون بالنسب وأنه تحصل به العصية بعضا مما تحصل بالنسب وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا إلى أن يكونوا

للمحاورة قرابة قرابة وتجدد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر
منه فيفترون شيعا وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية
احتاج أهل أمصارها الى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلادهم ورجعوا الى
الشورى ونزع العلية عن السقطة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغلب والرياسة
فتطمع المشيخة بخلاص الجوع من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل
صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيعة والاحلاف ويذلون ما في أيديهم
للاوغاد والاشاب فيعصو صب كل صاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على كفايته
ايقص من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التفرير حتى يخضع منهم الشوكات النافذة
ويقل الاطفا راخادشة ويستبدعصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه
فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وديما
يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات
والزخوف والحروب والاقطار والممالك فيتمتعون بهم من الجلوس على السرير
واتخاذ الآلة واعداد المواسك للسيف في اقطار البلد والتختم والحسيبة والخطاب
بالتويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما اتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها
بأهل انما دفعهم الى ذلك تقلص الدولة واتحاد بعض القرايات حتى صارت عصية وقد
يتزده بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السداجة فرار من التعريض بنفسه
للسخرية والعبث وقد وقع هذا بآفة رقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد
الجزيرة من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سموا
الى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم
واستبدوا بأمرها على الدولة في الاحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة حموضة
وأقطعوا جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم يعزل عنه وأورثوا ذلك
أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك
وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق حتى محاذلك
مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار
الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصاير الجزيرة
أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن
علي ونقلهم كلهم من امارتهم الى المغرب ومحام تلك البلاد آبارهم كاند كرفي
أخباره وكذا وقع بسبب لا خردولة بني عبد المؤمن وهذا الغلب يكون غالباً في أهل
السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في المصرو قد يحدث التغلب لبعض

السقطة من الغوغاء والدهماء واذا حصلت له العصبية والاتحام بالاوغاد لا سباب يجزها
له المقدار فتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا غاقدين للعصبة والله سبحانه وتعالى
غالب على أمره

(فصل في لغات أهل الامصار)

٢٢

(اعلم) أن لغات أهل الامصار انما تكون بلسان الامة أو الجليل الغالين عليها والمختطين
لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية
وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرايه والسبب في ذلك
ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود والملك
وكلها موادله والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهي
بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان
العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهى هررضي الله عنه عن
بطانة الاعاجم وقال انها خب أي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية
وكان لسان القائلين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس
تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعار الاسلام وطاعة
العرب وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي
لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الالسنه العجمية دخيلة
فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمخالطته في بعض أحكامه وتغيراً واخره وان كان
بقي في الدلالات على أصله وسمى لساناً حضرياً في جميع أمصار الاسلام وأيضاً أكثر
أهل الامصار في الله لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها
بما كثروا العجم الذين كانوا يهاوون وأرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت
لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء فان فسدت أحكامها بمخالطة الاعاجم شأفاً
وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من
العرب فانها كانت أعرق في العروبية ولم تملك العجم من الديلم والسجوقية بعدهم
بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية
فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة
الذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر
والكلام الا قليلاً بالامصار فلما ملك التترو والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام
ذهب ذلك المريح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك

الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد
الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الاقليل يقع
تعليمه صناعات بالقوانين المتدايرة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى
لذلك ورجعت اللغة العربية المضربة بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين
طلبها فانحفظت ببعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراء فلم يبق له أثر ولا عين
حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس
والله أعلم بالصواب

(الفصل الخامس من الكتاب الاول)

في ما ينشأ من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

(فصل) في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الاعمال البشرية
* اعلم أن الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته ويحميه في حالته وأطواره من لدن نشوءه
الى أشده الى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم
للانسان وامتن به عليه في غير ما آتاه من كآبه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في
الارض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من
شواهد ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف
وأيدى البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يده هذا امتنع عن الآخر
الابحوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب
لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعراض عنها قال الله تعالى
فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل لذلك بغرسه كالطمر المصلح للزراعة وأمثاله الا أنها
انما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت
بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو
المقتنى ان عادت منفعة على العبد وحصلت له ثمرة من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي
ذلك رزقا قال صلى الله عليه وسلم انما لك من مالك ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو
تصدقت فأمضيت وإن لم ينفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى
المالك رزقا والمالك منه حينئذ يسمى العبد وقد رتبته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه
يسمى بالنسبة الى المالك كسبا ولا يسمى رزقا اذ لم يحصل به منفعة وبالنسبة الى الوارثين
متى انتفعوا به يسمى رزقا وهذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة
في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا يملك عندهم لا يسمى رزقا وأخرجهوا

الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم
والمؤمن والكافر ويخصص برحمته وهدايته من يشاء وإليه في ذلك حجج ليس هذا موضع
بسطها * ثم اعلم أن الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في
الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله واستغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند الله
الرزق والسعي اليه انما يكون باقتناء الله تعالى والها معه فالكسب من عند الله فلا بد
من الاعمال الانسانية في كل مكسب ومعتقوله لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع
فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الانساني
كإتراء والالم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خلق الحجرين المعدنين من
الذهب والفضة قيمة لكل متول وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب وان
اقتنى سواهما في بعض الاحيان فانتهاه لوقته صدق تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة
الاسواق التي هما عنها يعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة * واذا تقرر هذا
كله فاعلم ان ما يفيد الانسان ويقتنيه من المتولات ان كان من الصنائع فالمفاد
المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه
للقنية وقد يكون مع الصنائع في بعضها غير هائل التجارة والحياكة معهما الخشب
والغزل الا أن العمل فيهما أكثر فقيمتها أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة
ذلك المضاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لولا العمل لم تحصل
قنيته او قد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة
عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الاقوات بين الناس فان
اعتبار الاعمال وانفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في
الاقطار التي علاج الفلح فيها وموته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلح فقد
بين ان المقادير والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين
مسمى الرزق وانه المستفاد به فقديان معنى الكسب والرزق وشرح صماهما * واعلم
أنه اذا فقدت الاعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى الى
الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها ويفقد لقله الاعمال
الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد
رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العائشة في البلاد اذا تناقص عمرانها
انها قد ذهب رزقها حتى ان الانهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون
انما يكون بالانبات والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحال في ضروع الانعام
فما لم يكن انبات ولا امتراء نصبت وغارت بالجملة كما يحجب الضرع اذا ترك امتراؤه وانظره

في البلاد التي تعهد فيها العميون لا يام عمر انهم يأتي عليها الخراب كيف تغور رماها
جمله كما نهم تسكن والله يقدر الليل والنهار

٢ (فصل في وجوه المعاش وامناذ ومذاهب)

(اعلم) أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش
كانه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعه على طريق
المبالغة ثم ان تحصيل الرزق ويسمى كسبه اما ان يكون بأخذ من يد الغير واتزاعه
بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية واما ان يكون من الحيوان
الوحشي باقتناصه واخذ برمييه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا واما ان يكون من
الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرقة بين النسل في منافعهم كاللبن من الانعام
والحرير من دوده والعسل من نحله أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه
واعداؤه لاستخراج ثمره ويسمى هذا كله فلها واما ان يكون الكسب من الاعمال
الانسانية اما في مواد معينة وتسمى الصنائع من كابة وتجارة وخياطة وحياكة
وفرسية واما في ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتيازات والتصرفات واما
ان يكون الكسب من البضائع واعداؤها للاعواض اما بالتقلب في البلاد
واحتكارها وارتقاب حواله الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش
وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الادب والحكمة كالحرير وغيره فانهم
قالوا المعاش اماره وتجارة وفلاحة وصناعة فاما الامارة فليست بعذبة طبيعية
للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية
وأهلها في الفصل الثاني واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية
للمعاش أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية
لا تحتاج الى نظروا علم ولهذا تنسب في الخلقة الى آدم أبي البشر وأنه معلها واثام
عليها اشارة الى أنها أقدم وجوه المعاش وأنها الى الطبيعة واما الصنائع فهي
ثانيها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانتظار ولهذا لا توجد
غالبا الا في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى
ادريس الاب الثاني للخلقة فانه من تنبسطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى
وأما التجارة وان كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها انما هي
تحيلات في الحصول على ما بين القيمين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب
من تلك الفضلة ولذلك أباح الشرع فيه المكاسب لما أنه من باب المقامرة الا أنه ليس

أحد المال الغير مجاف لهذا الاختص بالمشروعية

٣ (فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي)

اعلم أن السلطان لا يتله من اتحاد الخدمة في سائر أبواب الامارة والملك الذي هو بديل
من الجندي والشرطي والكاتب ويسمى كفي في كل باب من يعلم غناؤه فيه ويتكفل
بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم
حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جدا ولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسيبها
ان أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق
التم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجرا من ماله وهذه الحالة غير
محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل أحد عجز ولانها تزيد في
الوظائف والخرج وتدل على العجز والخس للذين ينبغي في مذاهب الرجولية التزهد
عنهما الا أن الغوث تقلب طباع الانسان الى ما لوفوا فهو ابن عواده لا ابن نسبه
ومع ذلك فالخديم الذي يستعصى كفي به ويوثق بغناؤه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك
لا بعد وأربع حالات اما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما
وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا وثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس في احدهما
فقط مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو
المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه اذ هو باضطلاع وثقته غنى عن أهل
الرتب الدنيا ومحتمل لئلا الاجر من الخدمة لا قدره على أكثر من ذلك فلا يستعمله
الا الامراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه واما الصنف الثاني وهو من
ليس بضطلع ولا موثوق فلا ينبغي اعاقل استعماله لانه يحجب بخدومه في الامرين معا
فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل
على ماله فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق الاستعمال الصنفين
الاخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذاهبان
ولكل من الترجيح وجه الا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من
تضييعه ويحاول على التحرز من خيائنه جهدا استطاعة واما المضطلع ولو كان مأمونا
فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذ قانونا في الاستكفاء بالخدمة والله
سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٤ (فصل في ان ابتغاء الاموال من الغنائم والكنوز ليس بمعاش طبيعي)

اعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرمون على استخراج الاموال من تحت

الارض ويتغنون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الامم السالفة محتزنة كلها تحت الارض محتوم عليها كلها بطلاسم صهرية لا يفض ختامها ذلك الامن عثر على علمه واستحضر ما يحمله من الجور والدعاء والقربان فأهل الامصار بافريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب الى أن يجدوا السبيل الى استخراجها وأهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالين لذلك الى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تعيده الارض حتى يظنه خسقا أو مثل ذلك من الهدر ونجد كثيرا من طلبة البر بالمرغوب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون الى أهل الدنيا بالاوراق المتخزمة الحواشي اما بخطوط عجمية أو بجملة ترجم منهن خطوط أهل الدقائن باعطاء الامارات عليها في أماكتها يتغنون بذلك الرزق منهم بما يعثرونهم على الحفر والطلب ويموتون عليهم بأنهم انما جعلهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الاعمال السحرية يقوم بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو معزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتقار والتسرف به بظلمات الليل مخافة الرقباء ويموتون أهل الدول فاذا لم يعثروا على شيء رذوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الاقل ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل على ذلك في الاكثر زيادة الترف وعوائده وخروبه ما عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تنقبط اليها فاجتزأ الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه الا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة لئلا لذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ونهذافا أكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها فتجد الكثير منهم

مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلمهم يعثرون منه على دفين أو كنز يزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الاموال الدفينة كلها في مجارى النيل وأنه أعظم ما يترد فينا أو محتزنة في تلك الآفاق ويموت عليهم أصحاب تلك الدفاتر المقتولة في الا تذار عن الوصول اليها بجرية النيل نتراب ذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سماع ذلك منهم على نضوب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر وتوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلمهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحر فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسجونها الى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسانا تراها فيها وهي هذه

يا طالب السحر في التغوير * اسمع كلام الصدق من خبير
دع عندك ما قد صنقوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتي ونصحتي * ان كنت ممن لا يرى بالزور
فاذا أردت تغوير البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفها * والرأس رأس الشبل في التقوير
ويداه ما سكاك للجبيل الذي * في الدلو ينسحل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها * عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطآت غير ملامس * مشى اليب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر * تربيعه أولى من التكرير
واذبح عليه الطير والطخه به * واقصده عقب الذبح بالتخير
بالسندروس وباللبان وميعة * والقبط واللبسه بشوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق * لا أخضر فيه ولا تكمير
ويشده خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص الحمير
والطالع الاسد الذي قدينا * ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بعد عطارد * في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطآت بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين فلم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجبية وتنتهي التخرقة والكذب بهم الى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم ثم يقصدون

ضعفاء العقول بأشكال هذه الحقائق ويعشون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه
ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته ويطلبون بالمال لاشتراء العقاقير
والبحورات لحل الطلاسم وبعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم
ومن فعلهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع وليس عليه من حيث لا يشعرون بينهم
في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفي عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر
وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم
ولا خبر * واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق
لا على وجه القصد إليها وليس ذلك بأمر تميم به البلوى حتى يتدخر الناس أموالهم تحت
الأرض ويحتمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد
في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد
والطلب وإضافته اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه فكيف
ينصب عليه الأدلة والامارات لمن يتغيبه ويكتب ذلك في الأصناف حتى يطلع على
ذخيره أهل الأعصار والاتفاق هذا يناقض قصد الإخفاء وإيضاً فاعمال العقلاء
لا بد وأن تكون أغراض مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فإنه يختره لولده أو
قريبه أو من يؤثره وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وانما هو للبلاء والهلاك
أو لمن لا يعرفه بالكلية عن سياق من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه * وأما
قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الأموال من
الذهب والفضة والجواهر والامتنعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس
والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الانسانية ويزيد
فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر
إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعى له فإن نقص
المال في المغرب وافريقية فلم ينقص بلاد الصقالية والافرنج وإن نقص في مصر
والشام فلم ينقص في الهند والصين وانما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها
أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ
والجواهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص
والقصدير ينالها من البلاء والقناء ما يذهب بأعيانها لا قرب وقت وأما ما وقع في مصر
من أمر المطالب والكنوز فسيببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين
وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر والآلات على مذهب
من تقدم من أهل الدول فلما انتقلت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقر وأعلى ذلك

في قبورهم وكشف قواعده فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك
وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد
ويغتر على الدفن فيها في كثير من الاوقات أما ما يدفونه من أموالهم أو ما يكرمون به
موتاهم في الدفن من أوعية ونوايت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور
القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن
المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى أنهم حين ضربت المكوس على الأصناف
آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحق
والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة إلى الكشف عنه والدرع
باستخراجهم وما حصلوا الا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج
من وقع له شيء من هذا الوسواس والتلبى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب
معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان
ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير
حساب

○ (فصل في ان الجاه مفيد للمال)

وذلك اننا نجد صاحب المال والخطوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من
فاقد الجاه * والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل
التراف والحاجة إلى جاهه فالتناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري
أو حاجي أو كالي فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه
الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه
فهو بين قيم للأعمال يكتبها وقيم أخرى تدعوها الضرورة إلى انخراجها فتتوفر عليه
والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لا قرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً
وثروة وله هذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقداً الجاه
بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره لا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء
هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير مما يشهد لذلك اننا
نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهر بحسن الظن بهم واعتقد
الجمهور معاملته الله في ارفادهم فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم
والاعتمال في مصالحهم أسرع اليهم الثروة وأصبحوا ميسرين غير مال مقنني
الاما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأي من ذلك

اعداد في الامصار والمدن وفي البدو يسعي لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يقطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

٦ فصل في ان المعادة والكسب انما يحصل غالباً بالاهل الخضر والتملق وان هذه الخلق من اسباب المعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستقيمه البشر انما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل لجهل لكان فاقداً للكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك غوكسبه أو نقصانه وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح ونصير تلك الأعمال في كسبه وقيمتها أموال وثروته فيستفيد الغنى والبسار لا قرب وقت ثم أن الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى إلى من لا يملك ضرراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينظم معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون وأنه وإن ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاءه ثم أن هذا التعاون لا يحصل إلا بالأكراه عليه لجهلهم في الأكثر لصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار أن أفعالهم انما تصدر بالفكر والرؤية لا بالطبع وقد يمنع من المعاونة فيعين حله عليهم أفلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورجة ربك خير مما يجمعون فقد بين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالأذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحكمهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العديل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولو كان الأول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم أن كل طبقة من طبقات

أهل الثمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بني الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويرداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقاً قلل لا يخلو وفاقد الجاه وان كان له مال فلا يكون يساره إلا بقدر عمله وأمواله ونسبة سعيه ذاهباً وآيماً في تنميته كما كثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم ثروة وانما يرمقون العيش رقيقاً ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقتربان بحصوله علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها وأن باذله من أجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يده فيكون بذله يسيراً عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتعلق كما يسأل أهل العز والملوك والافئدة عذر حصوله فلذلك قلنا أن الخضوع والتعلق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان أكثر أهل الثروة والسعادة به هذا التعلق ولهذا نجد الكثير من يتخلق بالترفع والشم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في الكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة * واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة كالعالم المتبحر في علمه أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم أهل الأنساب من كان في آباءه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون بعاراً أو أسمعه ومن حال آباءهم في المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقربائهم اليهم وورائهم عنهم فهم مستمكون في الحاضر بالامر المعلوم وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كالأفئدة بنفسه بذلك واحتياجا إليه ويتجند هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لأصحاب الجاه ولا يمتنعون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لا اعتقادهم الفضل على الناس فيستكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك وبعده مذلة وهو انوا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم أياهم بقدر ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إياية الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طباع

البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لاحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر وأفوق ذلك بقليل وأما النروفة فلا تحصل له أصلاً ومن هذا اشتريين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشي يسره والله المقدّر لأرب سواه ولقد يقع في الدول اضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويثس من سواهم من ذلك وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكانهم خول له فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتهى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة وامطة من السلطان لغناؤه في كثير من مهماته فوجد كثير من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بخدمته وبعصمه ويتزلف إليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتلق له ولحاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جلته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبان قومها الذين ذلوا واضعائهم ومهدوا أكافهم فغترون بما كان لا يأتهم في ذلك من الآثار لم تسمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثارهم ويجرون في حضار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويأعدهم ويميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون إلى دالة ولا ترفع اغداً بهم الخضوع له والتلق والاعمال في غرضه متى ذهب إليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزددهم ذلك إلا بعدا من السلطان ومقتاوا يثار هؤلاء المصطنعين عليهم إلى أن تنقرض الدولة وهذا امر طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٧ فصل في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامانة

والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قد مناه قيمة الاعمال وأنهم متفاوتة بحسب الحاجة إليها فإذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وإن احتج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعسوم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الاكثر وإنما يستقيم بأقامة من اسهم صاحب الدولة بحاله من النظر في المصالح فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراحم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم إلا القليل وهم أيضاً شرف بضائعهم أعز على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشغلة على اعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتدال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بعزل عن ذلك فذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحث بعض الفضلاء فنكر ذلك على وقوع يدي أوراق مخترقة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالع فيه أرزاق القضاة والائمة والمؤذنين فوقفت عليه وعلم منه محبة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لأرب سواه

٨ (فصل في ان الظواهر من طائفت المستضعفين وأهل العانية من البسوة)

وذلك لانه أصيل في الطبيعة وبسيط في منجاء ولذلك لا تجده يتحمله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين ويختص متحمله بالمدلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الادخله الذل وجعله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بالآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغمم المفضي إلى التحكم والبد العالوية فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتحولات واعتبار الحقوق كاهما مغرماً للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه

وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ (فصل في معنى التجارة ومذايبها واصنافها)

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أياما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح إما أن يحتزن السلعة ويحتج بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلم لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة لذلك الى المعنى الذي قرره والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأربسواه

١٠ (فصل في اى اصناف الناس يحترف بالتجارة وانهم ينبغي لاجتناب حرفها)

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الاسواق أو نقلها الى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى أصل المال يسيرا لأن المال اذا كان كثيرا عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المثل في الأثمان المجحف بالربح كتحطيل المحاولة في تلك المدة وبمغانها ومن الجود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يتقيد بالكتاب والتهادة وغناء الحكام في ذلك قليل لأن الحكم انما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوال الصعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التساهل من الربح الا بعظم الغناء والمثقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فان كان جريشا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المباحكة مقداما على الحكام كان ذلك أقرب له الى النصفة بجزائه منهم ومما حكته والافلا بد له من جاء يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معاملته فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعا في الاول وكرها في الثاني وأما من كان غافدا للتجارة والاقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لانه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير ماله للباعة ولا يكاد ينصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصا الرعايا والباعة شرهون الى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الاحكام لاصبحت أموال الناس نهبا

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ (فصل في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشرف والملوك)

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايبة ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خاتمتها وهي أعنى خلق المكايبة بعيدة عن المروءة التي تخلق بها الملوك والاشراف وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلاية وتعاهد الايمان الكاذبة على الايمان ردا وقبولا فأجد بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماها اشرف نفسه وكرم جلالة الأتة في التاديبين الوجود والله يهدي من يشاء بفضل وكرمه وهو رب الاولين والاخرين

١٢ (فصل في نقل التاجر للسلع)

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الاما تم الحاجة اليه من الغنى والفقر والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلته وأما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلته حينئذ باعوا من الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض قد كسد سوقه وتفسد أرباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فاما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف فليحتر ذلك جهده ففيه نفاق سلته أو كادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وكفل بحوالة الاسواق لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعده مكانها أو شدة الغرور في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها اذا قلت وعزت غلت أثمانها وأما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سائلا بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعدهم عن طريقهم ومشتقتهم واعتراض المفازة الصعبة الخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيهم الماء الا في أماكن معلومة يهتدى اليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لا ينافيها تختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من

تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى
المشرق لبعده الشقة أيضا وأما المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه
فقد أتتهم قلة وأرباحهم ناهية لكثرة السلع وكثرة ناقلها والله هو الرزاق ذو القوة
المتين

(فصل في الامتكار)

١٣

ومما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة في الامصار أن احتكار الزرع لتجني أوقات
الغلاء مشؤم وأنه يعود على فائده بالتلف والخسران وسببه والله أعلم أن الناس
لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يذلون فيها من المال اضطرابا فتبقى النفوس
متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها من كبر في وبال على من يأخذه مجانا ولعله الذي
اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجانا فالنفوس
متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وماعد الاقوات
والمأكولات من المبيعات لا اضطراب للناس اليها وانما يعتمد عليها التفنن في
الشهوات فلا يذلون أموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبق لهم تعلق بما أعطوه
فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه
من أموالهم فيفسد ربحه والله تعالى أعلم * وسعت فيما يناسب هذا حكاية
ظريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبل قال حضرت عند
القاضي بناس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليقي وقد عرض عليه
أن يختار بعض الاقارب الخزينة لحرأيته قال فأطرق مليا ثم قال لهم من مـ
الجر فاستصمك الحاضرون من أصحابه ومحبا وسألوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت
الجبايات كلها حراما فاختار منها ما لا يتابعه نفس معطيه والجر فل أن يذل فيها أحد ماله
الا وهو طرب مسرور بوجوده غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة
والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

(فصل في ان رخص الاسعار ضرر بالمحترفين بالرخص)

١٤

وذلك أن الكسب والمعاش كما قد ناهى الله بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء
البضائع والسلع وأخبارها يتجني بها حوالة الاسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحا
ويحصل منه الكسب والمعاش للمعترفين بالتجارة دائما فاذا استديم الرخص في سلعة
أو عرض من مأكول أو ملبوس أو معقول على الجملة ولم يحصل لتاجر حوالة الاسواق
فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي

فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولا بالزرع فانه اذا استديم رخصه يفسد
به حال المحترفين بسائر أطوارهم من القمح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده
فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالاتفاق على رؤس
أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال
المحترفين أيضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحث الى صيرورته مأكولا
وكذا يفسد حال الجناد اذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل القمح زرعا فانها
تقل جبايتهم من ذلك ويحجزون عن إقامة الجندي التي هم بسببها ومطالبون بها
ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا اذا استديم الرخص في السكر والعسل ففسد
جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات اذا استديم فيها
الرخص فاذا الرخص المفرط يحجب بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا
الغلاء المفرط أيضا وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة
الاسواق وعلم ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين أهل العمران وانما يحدد الرخص
في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطراب الناس الى الاقوات من بين
الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران فيم الرق بذلك ويرجع جانب
القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله
سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

(فصل في ان خلق التجارة نازل من خلق الرؤساء وبعدة من المروءة)

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب القوائد
والارباح ولا بد في ذلك من المكايبة والمماحكة والتخلف وعمارسة الخصومات
واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الارصاف نقص من الذكاء والمرؤة
وتجرح فيها لان الافعال لا بد من عود آثارها على النفس فأفعال الخير تعوديا ثارا
الخير والذكاء وأفعال الشر والسفسفة تعود بفساد ذلك فتتمكن وترجح ان سبقت
وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في
النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف
التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور ومخالف الاشرار الباعة أهل الغش
والخلاية والفجور في الاعمال اقرارا وانكارا كانت رذالة تلك الخلق عنه أشد وغلبت
عليه السفسفة وبعد عن المرؤة واكتسابها بالجملة والافلا بد له من تأثير المكايبة
والمماحكة في مروءته وفقدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي

قد مناه في الفصل قبله أنهم يدرعون بالجاه ويعوض لهم عن مباشرة ذلك فهم نادرو وأقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثة عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره واتخافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر فتكون مرؤاتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوحش ولا يوافقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون

١٦ (فصل في أن الصنائع لله إمام العلم)

(اعلم) أن الصناعة هي ملكة في أمر على فكري وبكونه علمياً هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة تنقلها بالمباشرة أو عبر لها أو أكمل لأن المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون الملكة ونقل المعاينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج أصنافاً من ركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لاسمياً في الأمور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصة الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الأول الحياكة والحزارة والتجارة والحداة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي

معاناة الكتب بالانتساخ والتجديد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

١٧ (فصل في أن الصنائع إنما تكمل بحال العمران الحضري وكثرة)

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتمتد المدينة انما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فإذا اعتدت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد ينتد إلى الكليات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم انما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجداد ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كماله ولا مستجداد وانما يوجد منها بقدر الضرورة اذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا خرج العمران وطلبت فيه الكليات كان من جللتها التأنيق في الصنائع واستجدادها فكم ملت بجميع ممتعاتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخزاز وصنائع وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الاصناف إذا استبحر العمران إلى ان يوجد منها كثير من الكليات والتأنيق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لتصلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصغار والحماشي والطباخ والسفاح والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتجميعها فان هذه الصناعة انما يدعوا إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد إذا سكن العمران خارجاً عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور الحجم والجر الانسية وتخييل أشياء من العجائب بايهاهم قلب الاعيان وتعليم الحدا والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الانتقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصارهم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمراتها بالمسلمين

١٨ (فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدائها)

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد انما ترسخ
بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال واذا
استحكمت الصبغة عسر نزاعها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استجرت في الحضارة
لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من
الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الا لان
أحوال تلك القديفة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال
وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد فانما نجد فيها
رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد
أما صاها كالمباني والطبخ وأصناف الغذاء واللهم من الآلات والاوراق والرقر
وتضيء القروش في القصور وحسن التزيين والاوزاع في البناء وصوغ الآتية من
المعادن والخزف وجمع المواين واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التي يدعو
اليها الترف وعوائده فيجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم
فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميزين جميع الامصار وان كان عمرانها قد
تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدة وما ذاك الا لما قد مناه من
رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدهما من
دولة الطوائف الى هلم جرت اقبلت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر الاما ينقل عن
العراق والشام ومصر أيضا طول آما الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكلت
جميع أصنافها على الاستجداء والتعميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه
الى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب وهذا أيضا حال تونس فيما
حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها
في ذلك من الصنائع في سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف
برسوم منها تنقل اليها من مصر اقرب المسافة بينهم ما وتردد المسافرين من قطرها الى
قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هنالك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم بحكم
صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال
مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما ان أكثر ساكنها من شرق الاندلس حين
الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمرانها ليس بمناسب
لذلك لهذا العهد الا أن الصبغة استحكمت فقليل لا ما تحول الازوال محلها وكذا نجد
بالقيروان ومراكش وقلعة بن حماد أثر اباقيها من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا
أو في حكم الخراب ولا يتقطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا

تدله على ما كان بها كآثار الخط المحو في الكتاب والله اخلاق العليم

١٩ (فصل في ان الصنائع انما تستجدوا وتكثر اذا كثر ظاهرها)

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الانسان لا يسمع بعمله أن يقع مجا نالانه كسبه ومنه
معاشه اذا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود
عليه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها اتفاق كانت حينئذ الصناعة
بمشابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة
ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها
فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ
ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضا فهمنا سائر آخر
وهو أن الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فيمضي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها
وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هي
السوق الاعظم وفيها اتفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فانفق منها
كان أكثر باضرورة والسوق وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافعة
والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ (فصل في ان الامصار اذا قاربت الخراب انقصت منها الصنائع)

وذلك لما بينا أن الصنائع انما تستجد اذا احتيج اليها وكثر طلبها واذا ضعفت أحوال
المصر وأخذ في الهرم بانقراض عمرانه وقله ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى
الاقتصار على الضروري من أحوالهم فقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان
صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيقر الى غيرها ويعت ولا يكون خلف منه فيذهب
رسم تلك الصنائع جلة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من
الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في التناقص ما زال المصر في التناقص الى
أن تضحل والله اخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ (فصل في ان العرب ابدوا انفسا عن الصنائع)

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران اخضري وما يدعوا اليه من
الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس
عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي
أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو ومفقودة لديهم بالجله ومفقودة
مراعيها والرمال المهية لتساجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل

الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وبعمم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك رسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رتخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرتخت فيهم أحوال الحضارة ومن جلتها الصنائع كما قدمناه فلم يعم رسوخها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أعم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترقى مثل عاد وعود والعمالقة وحبر من بعدهم واتباعه والاذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوقرت الصنائع ورثت فلم تبلى إلى الدولة كما قدمناه فبقيت مستحكمة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجد من حوله الثياب والحري فيها والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٢ (فصل في صناعه نقل ان يجيد بها ملكه في اخرى)

ومثال ذلك الخياط اذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورثت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات النفس وألوان فلا تردهم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها فاذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن النظر ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجيد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبه بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلويحه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

٢٣ (فصل في الاشارة الى مهمات الصنائع)

اعلم أن الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العدا الا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فخصها بالذكر وتترك ما سواها فاما الضروري فالغلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة وأما الشريفة بالموضوع فكالزوائد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها يحصل حياة المولود ويتم غالب موضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم وأما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقدمة لها عن النسيان ومبلغه تنمى النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني وأما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر رجائها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله أعلم بالصواب

٢٤ (فصل في صناعة الفلاحة)

هذه الصناعة غرتها اتخذها الاقوات والحبوب بالقيام على ائارة الارض لها وازدوا عنها وعلاج نباتها وتعهدهم بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتخصيل أسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبداد واذ قد منا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفون سالات أحوالهم كلها نائية على البداوة فصنائعهم نائية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد

٢٥ (فصل في صناعة البناء)

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للابدان في المدن وذلك أن الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد كاتخاذ

البيوت المكشوفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الجبلية
 الفكرية ففهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال أهالي الثاني والثالث والرابع
 والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم من
 ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم
 المعتدلون المتخذون للمأوى قديما كانوا في البسيط الواحد بحيث يتناكرون
 ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء
 أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصر أو احدى يحوطهم الحكماء من
 داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الانتصاف ويتخذون المعامل
 والحصون لهم ولن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الامراء وكبار القبائل
 في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم
 واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة ففهم من يتخذ
 القصور والمصانع العظيمة الساحة المشقة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة
 اكثر ولده وحنه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالجارية ويلحم بينها بالكس ويعلى
 عليها بالاصبغة والحصص ويبالغ في ذلك بالتجديد والتميق اظهار البسطة بالعناية في شأن
 المأوى ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير للاختزان لا قوائمه والاصطبلات لربط مقرباته
 اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم ومنهم من
 يبنى الدورية والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يتقي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه
 واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه
 الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة
 ويبالغون في اتقان الاوضاع وعلاو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه
 الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الاقاليم المعتدلة
 من الرابع وما حواله اذا الاقاليم المنحرفة لانباء فيها وانما يتخذون البيوت حظائر من
 القصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها
 متفاوتون ففهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالجارية
 المتجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكس الذي يعقد معها ويلحم
 كنهها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذها الرحان من الخشب مقدار طولها
 وعرضها باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على
 أساس وقد يوضع ما بينهما من ابرام صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع
 من الخشب يربط عليها بالجمال والجدران ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما

بلوحي آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكس ويركز بالمرأكة المعدة حتى
 ينعم ركزه ويحتلط أجزاءه ثم يزداد التراب ثانيا والثالث الى أن يعتلى ذلك الخلاء بين اللوحيين
 وقد تداخلت أجزاء الكس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحيين على
 الصورة ويركز كذلك الى أن يتم وينظم الألواح كلها سطر من فوق سطر الى أن ينظم
 الحائط كله ملتصقا كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع
 البناء أيضا أن تجمل الحيطان بالكس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين
 على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المنسدة للحام فاذا تم له ما يرضاه من
 ذلك علامه من فوق الحائط وذلك الى أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد
 الخشب المحكمة التجارة أو الساذجة على حائط البيت ومن فوقها الألواح كذلك
 موصولة بالديسار ويصب عليها التراب والكس ويسط بالمرأكة حتى تتداخل
 أجزاءها وتلتحم ويعلى عليها الكس كما يعلى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع
 الى التخيخ والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الحصص يخمر بالماء
 ثم يرجع جسدا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريجا بمشاقب الحديد الى أن
 يبقى له رونق ورواء وربما عولى على الحيطان أيضا بطع الرخام والآجر والخزف أو
 بالصدف أو السج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكس على نسب
 وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة الى غير ذلك
 من بناء الجباب والصهاريج لسفح الماء بعد أن تعدي البيوت قصاع الرخام القوراء
 المحكمة الخراط بالقوحدات في وسطها النبع الماء الجاري الى الصهرج فيجلب اليه من
 خارج في القنوات المقضية الى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصنائع
 في جميع ذلك باختلاف الخلق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثر ونربما
 يرجع الحكماء الى نظرها ولا فيهاهم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس
 في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الاعلى والاسفل
 ومن الانتفاع بظواهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من
 ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية
 والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعى بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو
 قذاته لتضايق الجوار أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج
 الى الحكم عليه به سده ودفع ضرره عن جاره عندهم من براه أو يحتاج الى قسمة دار أو
 عرصه بين شرين يكتن بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعة دار أو
 ويختل جميع ذلك الاعلى أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد

والقسط ومرا كز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة
أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجالوة ومرفوعة بحيث لا تضرب بما
مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست
لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها
فانافذنا أن الصنائع وكالها انما هو بكال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فاذلك
عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تنفق في أمر البناء إلى غير قطرها كما وقع
للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث
إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة الماهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له
غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل
تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر
بشيء من مسائله وكذلك في جبر الانتقال بالهندام فإن الاجرام العظيمة اذا شيدت بالججارة
الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتحمل لذلك بمضاعفة قوة
الحبل بادخاله في المعالق من أثقاب مقطرة على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة
الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة
بين البشر وبمثالها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس أنها من
بناء الجاهلية وإن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجماني وليس كذلك وانما يتم
لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فقههم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

٢٦ (فصل في صناعة التجارة)

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى
جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان
منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر بما هو معروف لكل أحد ومن منافعها
اتخاذها خشبا اذا يبيت وأول منافعها أن يكون وقودا للنيران في معاشهم وعصيا
للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لمناجستهم من أثقالهم ثم بعد ذلك
منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيخذون منها العمود والوتاد لخيامهم
والحدود لظعانهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف
لبيوتهم والاعلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالتحشية مادة
لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل
واحد من صورها هي التجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب

أولا اما بخشب أصغر منه أو ألواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو
في كل ذلك يحاول بصنعة اعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك
الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم
اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف
أو باب أو كرسى أو ما عون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من
الصناعة كالمية ليست من الضروري في شيء مثل القفط في الابواب والكراسي ومثل
تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم برسمه وتشيكلها ثم تواف على نسب
مقدرة وتلحم باللسان ترقيده ورأى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الاشكال على
تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ أنق ما يكون وكذلك في جميع
ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى
هذه الصناعة في انشاء المراكب البحرية ذات الألواح والديسروهي أجرام هندسية
صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في الماء بقوامه وكذا كالمية يكون ذلك الشكل
أعوان لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك
الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل وهذه الصناعة من أصلها
محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن اخراج الصور من القوة إلى
الفعل على وجه الاحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير اما عمومها وخصوصها
وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة
اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الاصول
في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات
وميلانوس وغيرهم وفيما يقال أن معلم هذه الصناعة في الخليفة هو نوح عليه
السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر
وان كان ممكنا أعني كونه نجارا إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من
التنقل عليه لبعده الآماد وانما عناه والله أعلم الإشارة إلى قدم التجارة لأنه لم يصح
حكايه عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كانه أول من تعلمها فقههم أسرار
الصنائع في الخليفة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢٧ (فصل في صناعة الحياكة والنمياط)

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفق فالاولى
لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في الطول واخا ما في العرض لذلك

النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فتبها الاكسية من الصوف للاشمال
ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على
اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للاعضاء البدنية ثم
تلم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاتاً وتبيناً أو تفصيلاً على حسب نوع الصناعة
وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وانما يشتملون
الاثواب اشتمالاً وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذهب
الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم الخيط في اللحم لما أن مشروعية الحج شمله
على نبد العلائق الذبويه كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق
العبد قلبه بشئ من عوائد ترفه لا طيباً ولا نساء ولا مخيط ولا خفا ولا تعرض لصيد ولا
لشي من عوائده التي تلوث بها نفسه وخلقه مع أنه يفقد هاب الموت ضرورة وانما يجي
كأنه وارد الى المحضر ضارعا بقلبه مخاضا لربه وكان جزاؤه ان تم له خلاصه في ذلك أن
يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمته سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحك بهم في طلب
هدايتهم اليك * وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدف ضروري
للشرف في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحرف فلا يحتاج أهله الى دف ولهذا يلغنا
عن أهل الاقليم الاول من السودان أنهم مراة في الغالب ولقد هم هذه الصنائع بنسبها
العائنة الى ادريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء وربما ينسبونهم الى هرامس وقد
يقال ان هرامس هو ادريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

(فصل في صناعة التوايسد)

٢٨

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الا آدمي من بطن أمته من الرق
في اخراجها من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلح بعد الخروج على ما ذكره وهي
مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى
التسائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النساء تعطينا
الجنين وكأنهن تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى
غاياته والمدة التي قدر الله ملكته وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل
الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب
الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم
وهذه كلها آلام يشد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض
الشيء بفمز الظهر والوركين وما يجاذي الرحم من الاسفل تساوق بذلك فعل الدافعة

في اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنه او على ما تهدي الى معرفة عسره ثم
اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من
سريته بمعاء وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث
لا تتعدى مكان الفضلة ولا تنضر بمعاء ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي
أو بماتراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو
رطب العظام سهل الانعطاف والانشاء فربما تغير أشكال أعضائه وأوضاعها القرب
التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله
الطبيعي ووضعها المقدر له ويرتد خلقه سوياً ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها
بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لانها ربما تأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند
ذلك أن تراجع المسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات
فتعفن ويسري عفنها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في اعانة
الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتخرج
أعضائه بالادهان والذرورات القابضة لتشدّه وتجفف رطوبات الرحم وتجفك لرفع
إهائه وتسعته لاستفراغ بطون دماغه وتفرغ غره باللعوق لدفع السدد من معاء
وتجوية بها عن الالتصاق ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق
وما لحق رحمها من ألم الانفصال اذا المولود ان لم يكن عضو طبيعياً فحالة التكوين في
الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع
وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج
وهذه كلها أدواء تجدد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدّة
الرضاع من أدواء في بدنه الى حين انفصال تجدد هن أبصر بهن من الطبيب الماهر
وما ذاك الا لأن بدن الانسان في تلك الحالة انما هو بدن انساني بالقوة فقط فاذا جاوز
الفصال صار بدن انسانياً بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب أشدّ فهذه الصناعة
كما تراه ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها
وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما بخلق الله ذلك لهم
معجزة وخرقا للعادة كما في حق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أوبالهام وهداية يلهم
لها المولود ويقطر عليهم افيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك
فقد وقع كثيراً ومنه ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم ولدته سرور واحتوتها واضعا
يديه على الارض شاخصاً يبصره الى السماء وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك وأما
شأن الالهام فلا يتكرر واذا كانت الحيوانات العجم تحتص بفرائب من الالهامات

كالنحل وغيرهما فاطنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصا بمن اختص بكرامة الله * ثم
 الإلهام العام للمولودين في الاقبال على التدبى أوضح شاهد على وجود الإلهام العام
 لهم فشان العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى
 وحكما الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات
 وخصوصا في النوع الانساني وقالوا وانقطعت أشخاصه لاستحالة وجودها بعد
 ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدر انما ولدوا دون
 هذه الصناعة وكفالتها الى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلا ووجود الصنائع دون السكر
 ممنوع لانها غمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته ايام وذهابه
 الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانيا لاقتضات فلسفية
 وأوضاع غريبة تندرج في الاحقاب برزعة فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة
 مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقبض له حيوان يخلق فيه الهام لتربيته والحنو عليه الى
 أن يتم وجوده وفصاله وأظن في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حتى بن يقطان
 وهذا الاستدلال غير صحيح وان كانوا فقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدلت
 به فان دليله مبني على اسناد الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار
 يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة
 الى هذا التكلف * ثم لو سلمناه جدلا لا فائدة ما ينبغي عليه اطراد وجود هذا الشخص
 بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الإلهام
 يخلق في الحيوان الاعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق
 الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكل المذهبين شاهدان
 على أنفسهم ما بالبطلان في مناحيهم ما قررته لك والله تعالى أعلم

٢٩ (نحل في صناعة الطب وانما محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية)

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة
 للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم
 أن أصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
 الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء وأصل كل داء البردة فاما
 قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الداء فالحمية الجوع وهو
 الاحتماء من الطعام والمأني أن الجوع هو الداء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما
 قوله أصل كل داء البردة فعني البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم

هضم الاول وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله
 بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى أن يصير دما ملائما لاجزاء البدن من
 اللحم والعظم ثم تأخذ النامية فينقلب الحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة
 الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير حراً بالالفعل من البدن وتفسيره أن الغذاء اذا حصل
 في الفم ولا كنه الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلت من اجبه بعض الشيء
 كما تراه في اللقمة اذا تناوتها طعاما ثم أجدتها مضغاً فترى من اجها غير مزاج الطعام
 ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى أن يصير كيما وساو وهو صفو ذلك المطبوخ
 وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المعانة لا ينقل الى المخرجين ثم تطبخ حرارة
 الكبد ذلك الكيوس الى أن يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء
 وترسب منه أجزء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ
 الغليظ منه فهو البلم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار
 الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار يطبخ به الروح الحيواني وتأخذ
 النامية مأخذها في الدم فيكون الحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته
 من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والنخاط والدمع هذه صورة الغذاء
 وخروجه من القوة الى الفعل الحما ثم أن أصل الامراض ومعظمها هي الحيات وسيبها
 أن الحيات الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك
 الغذاء دون نضج وسيبها غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي
 أو ادخال الطعام الى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزي
 ويترك الاول بجاله أو يتوزع عليهم ما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك
 الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على انضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء
 الاول فضله غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ
 البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان
 اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتزايد
 مع الايام وكل ذي رطوبة من الممتزجات اذا لم يأخذها الطبخ والنضج يعضن فيبقى ذلك
 الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالنخاط وكل متعضن فيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة
 في بدن الانسان بالحما واختبر ذلك بالطعام اذا ترل حتى يتعضن وفي الزبل اذا تعفن أيضا
 كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهاذا معنى الحيات في الابدان وهي رأس
 الامراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحيات علاجها بقطع الغذاء عن المريض
 أسابيع معلومة ثم يناوله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك في حال الصحة علاج

في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك الغفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن أما في الاعضاء الرئيسة أو في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض وأصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله من فروع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض في أهل الحضرة والامصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة ما كملهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالاغذية من التوابل والبقول والقواصك رطبا وبياضا في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم إن الاهوية في الامصار تنفسد بمخالطة البحر العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منتشرة لارواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثر افكان وقوع الامراض كثيرا في المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فكلهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما ينظرون أنها جيلة لا تستقر ارضهم الا ادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والقواكح انما يدعوا اليه ترف الحضارة الذين هم يعزل عنه فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يحتاجها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة الغفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا أهليين أو لاختلاف الاهوية ان كانوا طواغيتا ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجودو يفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمراضهم أصح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه وماذا لا الاستغناء عنه اذ لو احتج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو الى سكاه سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ (فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية)

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذا الكتابة من خواص الانسان التي

يبرز بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيدة فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها وبطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتساعى في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمرة وللهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار الخارج عن انما عن الحد ابلغ وأحسن وأسهل طريقا للاستحكام الصنعة فيها كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعقد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأني ملكته على أتم الوجوه وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووقورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد كان الخط العربي بالغامبا لغيره من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحيري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسيب التبابعة في العصبية والمجدين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقرين فيما ذكر يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب ابن أمية وأخذها من أسلم بن سدره وهو قول ممكن وأقرب من ذهب الى أنهم تعلموها من اباد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ابادا وانزلوا ساحة العراق فلم ير الواعلي شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضارية وانما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز انما القنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحير هو الاليق من الاقوال وكان الحير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حير تعلمت مضر الكتابة العربية الا أنهم لم يتدبروا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذهب ولا ماثلة الى الاتقان والتميز لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أو قريش من كتابتهم لهذا العهد

أقول ان كتابهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة
 الأمصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن
 وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لا قول الإسلام غير بالغ إلى الغاية
 من الأحكام والاتقان والاجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش
 وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة
 بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته
 رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتصى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه
 أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوجيه من كتاب الله
 وكلامه كما يقتضي لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا وإن نسبة
 ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسمه ونبه العلماء بالرسم على مواضعه
 ولاتفة تن في ذلك إلى ما رزعه بعض المغفلين من أنهم كانوا يحكمين لصناعة الخط وأن
 ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكها وجه ويقولون
 في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأيديته
 تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما جعلهم
 على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط
 وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال باجاده وطلبوا تعليل
 ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم
 إذا لم ينح من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيت في ما مر والكمال في الصنائع اضافي
 وليس بكمال مطلق إذا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وانما يعود على
 أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالة على ما في النفوس وقد
 كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتزهره
 عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست الآتية كمالا في
 حقنا نحن اذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى
 العلوم الاصطلاحية فإن الكمال في حقه هو تزهره عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك
 للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة
 إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه
 واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان إلا أنها كانت دون الغاية والخط
 الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك واقتحموا
 افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما

استجرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي
 معروف الرسم وتبعه الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقر من أوضاع
 الخط المشرقي وتحت ذلك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع
 والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر
 العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم
 وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكة بما
 لا كفا له وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتنافسوا فيه ثم لما انحلت نظام الدولة الإسلامية
 وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلاف فانتقل شأنها من
 الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها نافقة لهذا العهد وله بها
 معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث
 المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد اختلفت أحسنها وحذق فيها
 درية وكابا وأخذها قوانين علمية فتجنى أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا
 في الاقطار عند ثلاثي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم
 النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافر بقية من لدن الدولة اللتونية إلى هذا
 العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب
 خطهم على الخط الافريقى وعنى عليه ونسى خط القيروان والمهدي بنسيان عوائدهما
 وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما إليها
 اتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم بيلاد الجريد الذين
 لم يخاطوا كتاب الاندلس ولا تروا بجوارهم انما كان يغدون على دار الملك بتونس
 فصارت خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة
 الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترفع بتراجع العمران نقص حينئذ حال
 الخط وفقدت رسومه وجه التعليم فساد الحضارة وتناقص العمران
 وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمنا من أن الصنائع
 إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب
 الأقصى لون من الخط الاندلسي أقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى قاس
 قريبا واستعملهم إياهم سائر الدولة ونسى عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه
 لم يعرف فصارت الخطوط بافر بقية والمغربين ما تله إلى الرداءة بعيدة عن الجودة
 وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لتصحيحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة
 ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد

تقرأ الأبعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول
والله أعلم

٣١ (فصل في صناعة الورقة)

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها
بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب
ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية
بحر زار بالعراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة
وتنفاق أسواق ذلك لديهم ما فكثر التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس
على تنافسها في الآفاق والأعصار فاتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين
المعانيين للانساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكمية والدواوين واختصت
بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولاً لا تنساخ العلوم وكتب
الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد
لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كما ذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع
ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشرى بالمكتوبات وميلابها الى الصحة والاتقان
ثم طما ببحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك
فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه
واتخذها الناس من بعده صحفاً للمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في
صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين
العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها واضعها لانه الشأن الاهم من التصحيح
والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاككم بها المجتهد في طريق
استنباطها وما لم يكن تصحيح المتن باسنادها الى مدونه فلا يصح اسناد قول لهم ولا قبا
وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والاجيال والآفاق حتى لقد قصرت
فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط اذ غرتم الكبري من معرفة صحيح
الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد
ذهبت وتختضت زبدة في ذلك الاتهامات المتلقاة بالقبول عند الامة وصار القصد الى
ذلك لغوامن العمل ولم يتبق غرة الرواية والاستغفال بها الا في تصحيح تلك الاتهامات
الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية
واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق

والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد
في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام والصحة ومنها هذا العهد بأيدي الناس
في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها الى
الآن ويشدون عليها يد الضمانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جولة بالمغرب
وأهل الانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبدعوة أهله وصارت
الامتهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البر برصائف مستعجبة
برداء الخط وكثرة الفساد والتخفيف فتتغلق على متصفحتها ولا يحصل منها فائدة
الا في الاقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في النسيان غالب الاقوال
المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تلتقي من تلك الدواوين على ما هي عليه
وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقله بصرهم بصناعته وعدم
الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا اثاره خفية بالاتجاه وهي
على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من الغرب والله غالب على أمره ويغنا
لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل
على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما ذكره بعد الآن الخط الذي بقي من
الاجادة في الانساخ هنالك انما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كما قد
بالمغرب وأشد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٢ (فصل في صناعة النسا)

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة
يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ثم تواف تلك النغم بعضها الى
بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية
في تلك الاصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الاصوات تتناسب فيكون صوت
نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزأ من أحد عشر من آخر واختلف هذه
النسب عند تأديتها الى السمع يخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب
منها لذوذا عند السماع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا
عليها كما هو مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع
أصوات أخرى من الجادات اما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها لذة
عند السماع فمنها هذا العهد أصناف منها ما يسمى بالشبابية وهي قصة جوفاء بأبحاش
في جوانبها معدودة يتفخ فيها قصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك

الابحاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابحاش وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلذ السمع بادراكها للنسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلاحي وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل اختلافها من قطعتين منفردتين كذلك بالابحاش معدودة ينقح فيها بقصبة صغيرة توصل فينقذ النقيع بواسطة اليها وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك الابحاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع الى أن يكون انقراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل برى القلم وينقح فيه بقصبة صغيرة تؤدى الريح من الفم اليه فيخرج الصوت نحياد ويا وفيه ابحاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ما ذودا ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة مثل الربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار على بساطها مشدودة في رأسها الى دساتر جائلة لتأقي شدة الاوتار ورخوها عند الحاجة اليه بادارتها ثم تقرر الاوتار ما بعد آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليه ابهامه أن يطل بالشع والكندرو ويقطع الصوت فيه بخفاف اليد في امراره أو نقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الاوتار توقع بأصابعها على أطراف الاوتار فيما يقرر أو يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الاعواد بعضها بعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمجموع وتبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي ادراك الملائم والمحسوس انما ندرك منه كيفية فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملوسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لانه المدرك واليه تؤدى الحاسة ولهذا كانت الرياحين والازهار والطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح الغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها فاذا كان المرئي متناسبا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذنب حينئذ مناسباً للنفس المدركة فلهذا يدرك الملائمات ولهذا تجد العاشقين المهتمين

في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه ان كنت من أهل له وهو اتحاد المبدأ وان كل ماسواك اذا نظرت وتأملته رأيت بذلك وبينه اتحادا في البداية يشهد لك به اتحاد كما في التكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترط بين الموجودات كما نقوله الحكماء فتود أن تخرج بما شاهدت فيه الكمال لتعديه بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والتكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقربها الى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها وشكله الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب الى فطرته فلهي كل انسان بالحسن من المرقى أو المجموع بمقتضى الفطرة والحسن في السموع أن تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الاصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدّة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولا أن لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المثل بل لابد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فانه من باب وثانيا تناسبها في الاجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الاصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد المضبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالضممار وكثير من القراء بهذه المشابة يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنهم المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعاتي فانه لا ينبغي أن يختلف في حظره اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المدد من يطلعه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين واعتباراً أحدهما قد يخل بالآخر

اذا تعارضا وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع
التلحين والاداء المعترف في القرآن بوجه وانما امر ادهم التلحين البسيط الذي يهتدى
اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه في رد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم
بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه
القرآن عن هذا كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع يذكر
الموت وما بعده وليس مقام التذاد اذ دار الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة
الصحابه رضي الله عنهم كافي أخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتي من ما زامن
من امير آل داود فليس المراد به التريد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة
والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في
العمران اذا توفروا وتجاوز حد الضرورى الى الحاشى ثم الى الكمال وتفقدوا فحدث
هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من
المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الغارغون عن سائر أحوالهم تغنى في مذهب
الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم
وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان ملوك الفرس اهتمام بأهل هذه
الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها
وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من أفاقهم ومملكة من ممالكهم وأما العرب
فكان لهم أولافن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة
حروفها المنحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء
منه مستقلا لا فائدة لا ينقطع على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة
أولافن تناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ ثم تأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام
عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه
بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكمات لقرايحهم في أصابة
المعاني وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء
والمنحركة الساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف في
كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم يتحلوا علما ولا عرفوا صناعة
وكانت البداوة أغلب نحلهم ثم تغنى الحداة منهم في حداثا بلهم والفتيان في فضاء
خلواتهم فرجعوا الاصوات وترغوا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا
كان بالتلليل أو نوع القراءة تغبيرا بالغين المحبة والياء الموحدة وعلماها أبو اسحق
الزجاج بأنها تذكري الغابر وهو الباقي أى بأحوال الآخرة وربما ناسبوا في غذائهم بين

النفقات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه
السناد وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار
في طرب ويستحق الخلود وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو
من أوائلها ولا يعد أن تنقطن له الطباع من غير تعليم شأن البساطط كلها من الصنائع
ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك
الدنيا حازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال
التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس يافع في دين
ولامعاش فهجروا ذلك شيئا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر
الذي هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفق بما حصل لهم من غنائم
الام صاروا الى نصارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ واقتربوا من الفنون من
الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعا بالعبيدان
والطباير والمغازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فطنوا عليها أشعارهم
وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب حاتمولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا
شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن مريح
وأناظره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن
المهدي وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ينفد
ماتبعه الحديث بعده وبجباله لهذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت
آلات الرقص في الملابس والقضبان والأشعار التي يقرن بها عليه وجعل صنفا وحده
واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكترج وهي تماثيل خيل مسرحة من الخشب
معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويبدرون
ويثاقفون وأما نال ذلك من اللعب المعذ للولائم والاعراس وأيام الأعياد ومجالس
الفراغ واللهو وكذا ذلك ينفد وأما صارا العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصلين
غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه الى المغرب غيرته منه فلحق بالحكم
ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمه وركب للقائه وأسنى له
الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالاندلس من
صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطما من بابا بيلية بحر زاخر وتناقل منها
بعد ذهاب غضايرتها الى بلاد العدو وبافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها
الآن منها صباية على تراجع عمرائها وتنقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في
العمران من الصنائع لانها كالمية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ

والفرح وهي ايضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله أعلم

٢٢ (فصل في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وفهما الكتابية وحساب)

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للانسان انما توجده في القوة وأن خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجديد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولان ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضاً فتكون ذاتا روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلا قريدا والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحسنة في التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في محالطتهم ثم القيام بأمر الدين واعتبار آدابها وشراطينها وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم والانظار بخلاف الصنائع ويانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس في الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما راهم تلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وجنون قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعودا للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

(الفصل السادس من الكتاب الاول)

في العلوم والصنائع والتعليم وطرق وسائر وجهه وما يبرز في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ (فصل في ان العلم والتعليم طبيعي في النيران البشرية)

وذلك أن الانسان قد شاركت جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذي يمتد في به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهني لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء

عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح آخره فهو مفكر في ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طريقة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من لصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بعرفة أو ادرأه أو أخذه عن تقدمه من الانبياء الذين يلغونه لمن تلقاه فيلحق ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظيره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحد بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الحقائق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتشوق نفوس أهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفته ويحيي التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر

٢ (فصل في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع)

وذلك أن الخلق في العلم والتقنية والاستيلاء عليه انما هو بمحصل ملكة في الاطاعة بعبادته وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك القن المتناول حاصلا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي لانما نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد وعيها مشتركين من شدة في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العاقل الذي لم يحصل علما وبين العالم التحرير والملكة انما هي للعالم أو الشاغل في الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كاللحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل وبديل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والالكان واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف يتخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته بتجديد الاصطلاحات في تعليمه متخالف فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا اقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك

من نقص الصنائع وفقدانها كما هو وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب
والاندلس واستجرحا عنهما ما كان فيهما من العلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة
ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع
التعليم من المغرب الاقليلا كان في دولة الموحدين عمرا كثر مستفاد منها ولم ترسخ
الحضارة عمرا كثر ابدا دولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم
تتصل أحوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة عمرا كثر ارتحل
الى المشرق من افریقیة القاضي أبو القاسم بن زیتون لعهد واسط المائة السابعة
فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحدث في العقليات
والنقلات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد
الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى
تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنه أهل تونس وانصل سنده تعليمهم في
تلاميذه اجيالا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن
الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد
السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن
الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل
من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن
الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة
وحدث في العقليات والنقلات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية
وانصل سنده تعليمه في طلبتها ورجع الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذه وأوطنها
وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت
فاس وسائر أقطار المغرب خلوًا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة
والقيروان ولم يتصل سنده التعليم فيهم فعمر عليهم حصول الملكة والحدث في العلوم
وأبسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلية فهو الذي
يقرب شأنها ويحصل مرامها فيجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثيرين أعمارهم في
ملازمة المجالس العلية سكوتًا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من
الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من
يرى منهم أنه قد حصل تجدد ملكته فاصرة في علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم
القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والاخفطهم أباغ من حفظ سواهم لشدة
عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلية وليس كذلك وما يشهد بذلك في المغرب

ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس
خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها الطالب العلم
حصول مبتغاه من الملكة العلية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب
لهذه المدة لاجل عسرهما من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك
وأما أهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران
المسلمين بها منذ عشرين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب
اقتصروا عليه وانحفظ سنده تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلوا أثر
بعد عشرين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سنده التعليم فيها بتناقص
العمران وتغلب العدو على عاقبتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بعنايتهم أكثر من
شغلهم بما بعدهما والله غالب على أمره * وأما المشرق فلم ينقطع سنده التعليم فيه بل
أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت
الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا
أن الله تعالى قد أزال منها بأمصا أعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم
بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل وفورة
وعمرانها متصلا وسنده التعليم بها قائما فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم
العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في
طلب العلم ان عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة
وأعظم كياسة بطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة أكمل بقطرتهم من نفوس أهل
المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشبعون لذلك ويولعون
بها يبرون من كسبهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وايسر بين قطر المشرق والمغرب
تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا اقاليم المتخرقة
مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منخرقة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذي
فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل
المزید كما تقدم في الصنائع وزيدته الآن تحقيقا وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم
في المعاش والمساكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم
ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلم يبق في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع
ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع
يتلقاها الآخر عن الاول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر
يكسبها عقلا جديدا تستعده لقبول صناعة أخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك

للمعارف * ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحرا لانسبة والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويحجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واطاعة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قد من أن النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كسبالم يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العاقل يتفاوتنا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك ألا ترى الى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف تجد الحضري متعلما بالذكاء ممتلئاً من الكسب حتى ان البدوي ليعلم أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذال الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والاحوال الحضرية مما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها الكمال في عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها وليس كذلك فانما نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرنه انما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو روني الصنائع والتعليم فان لها آثارا ترجع الى النفس كما قد مناه وصدق أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب الى البداوة لما قد مناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادى الرأي انه لكمال في حقيقة الانسانية اختصاصا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

٣ (فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتنظم الحضارة)

والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قد مناه من جملة الصنائع وقد كما قد مناه ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترقي تكون نسبة الصنائع في الجوده والكمية لانه امر زائد عن المعاش حتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرف الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرنه الى العلم من نشأ في القرى والامصار غير المتقدمة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعى لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قد مناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستجدة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قرره بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدرا لاسلام واستوت فيها الحضارة فكيف زخرت فيها بحار العلم وتفننت وافي

اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والقنون حتى أربوا على المتقدمين وفاقوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وبذعر سكانها انطوى ذلك البساط بجاعليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جعلتها تعليم العلم وأكذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور به منذ ما تين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثر وامن ببناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المقلية يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليهم أو نصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجتوح الى الخير والتمس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والقواثد وكثر طاب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونقلت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

٤ (فصل في اصناف العلوم الواقعة في العمران لسنه الحمد)

(اعلم) أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلها وتعليمها هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف نقلي يأخذه عن وضعه والاول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركة البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانجازها براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره ويحسها على الصواب من الخطا فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق القروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحاج الى الالتحاق بوجه قياسي الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الاصل وهو نقلي ف يرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيوها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكلف يجب عليه أن يعرف

قوله حتى يقفه
نظره يستعمل
وقف متعبدا
فتقول وقفته على
كذا أي اطلعت
عليه قاله نصرا

أحكام الله تعالى المقرضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة
بالنص أو بالإجماع أو بالأحاطة فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه وأولاهذا هو
علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند
الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة إلى
صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليضع الوثوق
بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في
استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط
وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين
وهذا هو الفقه ثم إن الكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب
أن يعتقده مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الخير
والنعم والعذاب والقدر والحاج عن هذه بالدلالة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في
القرآن والحديث لا بد أن تتقدم العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فيها
علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما تكلم عليها كلها وهذه العلوم
النقلية كلها محتملة بالله الإسلامية وأهلها وإن كانت كل كلمة على الجملة لا بد فيها من
مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من
عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فبإنيته لجميع
الملل لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فهو جورة والنظر فيها محظور فقد
نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا
أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم والها والهم
واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة
فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى
حيما ما وسعه الاتباعي ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد تنفقت أسواقها في هذه
الأمم بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها وهذبت
الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل
فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك
والمغرب بما هو مشهور منها حساند كره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد كسدت
لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما
قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال
التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكاليس لكثرة عمرانه والحضارة

ووجود الاعانة لطالب العلم بالحراية من الاوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه
وتعالى هو الفاعل لما يريد ويده التوفيق والاعانة

٥ (علوم القرآن من التفسير والقراءات)

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة
الآن الصحابة روه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض
ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتوكل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع
طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من
الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات
أخر لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراءات
السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم
ككيفية اللاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن
وأباه الأكثر وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كالمدة والتسليم لعدم
الوقوف على كفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات
وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودققت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة
مخصوصة وعلم منفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل إلى أن
ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالى العاصريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون
القرآن لما أخذ به مولاة المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان
من أئمة القراء بمحضته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة
دانية والجزائر الشرقية فنفت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من
العناية بسائر العلوم عموما وبالقرآن خصوصا فظهر له هذه أبو عمر والداني وبلغ
الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايته أساسا وتعددت تآليفه فيها
وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير ثم ظهر بعد
ذلك فيما يليه من العصور والجيال أبو القاسم ابن فير من أهل شاطبة فعمد إلى
تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف
أ ب ج د ترتيبا أحكمه لتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ
لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعنى الناس بحفظها ونقلها
للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والاندلس وربما أضيف
إلى فن القراءات فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسمه
الخطية لأن فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء

في بآسد وزيادة الالف في لا اذبحته ولا اوضعوا والواو في جزا والظالمين وحذف
الالفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاآت ممدودا والاصل فيه مربوط
على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصعقي عند الكلام في الخط فلما
جاءت هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتج الى حصرها فكتب الناس فيها
أيضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمر الداني المذكور فكتب فيها
كتابا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم
الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الراي وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف
في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود وسليمان بن نجاح من موالي مجاهد
في كسبه وهو من تلاميذ أبي عمر والداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كسبه ثم نقل بعده
خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع
خلافا كثيرا وعزاء لنا عليه واشتهرت بالمغرب واقصر الناس على حفظها وهجرها بها
كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم * (وأما التفسير) * فاعلم أن القرآن
نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في
مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جلا جلا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية
بحسب الوقائع ومنها ما هو في العقائد الإيمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها
ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين الجمل
وعبر الناس من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى
الحال منها فنقلوا عنه كما علم من قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح أنها نعى النبي صلى
الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين
وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر
الأول والسلف حتى صارت المعارف علومًا ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك
ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي
والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم
صارت علوم اللسان صناعة من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الاعراب
والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب
لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتشوى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان
فاحتج الى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير
على صنعتين تفسير نقلي تمسند الى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ
والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة

والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الآن كتبهم ومنقولاتهم تشمل على
الغث والthin والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم
وانما غلبت عليهم البداوة والامية واذا تشوقوا الى معرفة شئ مما تشوق اليه النفوس
البشرية في أسباب المكنونات وبده الخليفة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل
الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من
النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا
ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما
أسلوا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يختلطون لها مثل
أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدوث والملاحم وأمثال ذلك وهو لا مثل كعب
الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلات التفاسير من المنقولات
عندهم في أمثال هذه الاغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى
الاحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ويتساهل المفسرون في مثل ذلك
وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين
يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بعرفة ما ينقلونه من ذلك الا أنهم بعد صيتهم
وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من
يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتعصب وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين
بالمغرب فخلص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب
متداول بين أهل المغرب الاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على
منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق * والصنف الآخر من التفسير وهو
ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب
المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن يتفرد عن الاول اذا الاول هو
المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض
التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتغل عليه هذا القرن من التفاسير كتاب الكشف
للزمخشري من أهل خوارزم العراق الآن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي
بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرف البلاغة فصار
بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكائده مع اقرارهم
برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على
المذاهب السنية محسنا للعجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتم مطالعته
انغراة قنونه في اللسان ولقد وصل اليه في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين

وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريزمن عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزييفها ويبين أن البلاغة انما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع امتناعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

(علوم الحديث)

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما يتطرق في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفان الله بعباده وتحقيقا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها فإذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعياب الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لأن العمل انما يجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو معرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط وانما ثبت ذلك بالنقل عن اعلام الدين بتعديهم وبرائتهم من الجرح والغفلة ويكون لذلك دليلا على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وغيرهم فيه واحدا واحدا وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت الى طرفين فحكم بقبول الاعلى وردا لاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحية ووضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقاب المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواية بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو منأولة أو اجازة وتفاوت رتبها ومال العلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تعميم أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور

السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فتمهم بالجواز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الجواز في أعصارهم في الأسانيد أعلى من سواهم وأمن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتحققهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدا هذا الامر نقلا صرفا شمر لها السلف ونحزوا الصحيح حتى أكلوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ ودعه أصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواية مختلفين وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبواب في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرّر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال انه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذافيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجعه ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهم في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل بأمن الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وأما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنة والعمل وهذه هي المائدة المشهورة في الملة وهي أتمها كتب الحديث في السنة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فسادا برأيه وكذا الغريب وللناس فيه تأييد مشهورة ثم المؤلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن غول علمائه وأتمهم أبو عبد الله الحاكم وتأليفه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتابه لاه آخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاميذه

قوله تسعة الذي في النوى على مسلم انه سبعة تقديم السنين فخره اه صححه

الدين النووي يمثل ذلك والفن شريف في مغزاده لانه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة
عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها
على المتقدمين اذا العادة تشهد بان هؤلاء الائمة على تعددهم وتلاحق عصورهم
وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا يغفلوا شيئا من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر
عذاب بعيد عنهم وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الاتهام المكتوبة
وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدھا الى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر
في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الاسانيد محكمة الى منتهائها ولم يزيدوا
في ذلك على العناية بأكثر من هذه الاتهام الخمسة الافي التليل * فأما البخاري
وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحه من أجل ما يحتاج
اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الجاز والشام والعراق ومعرفة
أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى ايمان النظر في التفقه في تراجمه
لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسنداً وطريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك
الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى
أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم
يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن النين ونحوهم ولقد
سمعت كثيراً من شيوخنا رجهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون
أن أحداً من علماء الامة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار * وأما صحيح
مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب
البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الامام
المأرزي من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه المعلم بقوانينه اشتمل على عيون من
علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وغمه وسماه اكمال
المعلم وتلاههما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما ما جاء
شرحاً وافيًا * وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فأكثر شرحها
في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك
ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث
المعمول بها من السنة * واعلم أن الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح
وحسن وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق
طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الائمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها
وأسانيدھا بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفتنون الى أنه قد قلب عن وضعه

ولقد

ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد
المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدھا فقال لا أعرف هذه ولكن حدثني
فلان ثم أتى بجميع تلك الاحاديث الى الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده وأقرؤا له
بالامامة * واعلم أيضاً أن الائمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار من هذه الصناعة
والاقلال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً
أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنه ما في كتاب الموطأ وغاية ثلثمائة حديث أو
نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أذاه
اليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل
البضاعة في الحديث فلهذا قاتل روايته ولا سبيل الى هذا المآخذ في كبار الائمة لأن
الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين
عليه طلبه وروايته والجد والتشهير في ذلك لياخذ بالدين عن أصول صحيحة ويتلقى
الاحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه
فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى
تركها لاخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل
روايته لضعف في الطرق وهذا مع أن أهل الجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق
لأن المدينة دار الهجرة وماوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد
أكثر والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف
رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسي وقلت من أجلها روايته فقل حديثه
لأنه ترك رواية الحديث متعمداً فخافاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم
الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً وأما غيره من المحدثين
وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه
من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوى فأكثر وكتب مسنده وهو
جليل القدر لأنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط التي اعتمده البخاري ومسلم
في كتابيها مجمع عليها بين الائمة كما قالوه وشروط الطحاوى غير متفق عليها كالرواية عن
المستور الحال وغيره فلهذا أقدم الصحاحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه
عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع
على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذ ذلك رية في ذلك فالقوم أحق
الناس بالظن الجليل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما
في حقائق الامور

الذي في شرح
الزرقاني على
الموطأ حكاية
أقوال خمسة في
عدة أحاديث أولها
خمسائة ثانياً
سبعمائة ثالثاً
ألف ونيغ رابعاً
ألف وسبعمائة
وعشرون خامساً
ستمائة وستون
وليس فيه قول بما
في هذه النسخة
قاله نصر الهوري

هـ هـ صححه

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والتدب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة ما من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي باللغة العرب وفي اقتضات ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرف في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فاحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضا فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا تنفي بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهم ما وهذه الآثار للخلاف ضرورة الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل قضا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالخاملين للقرآن العارفين بتأويله ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعهم منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب لأن العرب كانوا أمماتية فاخص من كان منهم قارئ الكتاب بهذا الاسم لغرضه يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأئمة من العرب بجماعة الكتاب وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهرروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المداولة كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس إلى الجلي والعلل المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكان هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة وشذأهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقهه انفراد به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بفضيلة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول وأهية وشذبت ذلك الخوارج ولم يحتمل الجمهور بمذاهبهم بل

أوسعوها جانب الإنكار والقدح فلا تعرف شيئا من مذاهبهم ولا تروى كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك وكل منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وإنكار الجمهور على منتهى ولم يبق إلا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين عن تكلف باتصال مذهبهم على تلك الكتب يروم اخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يحلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عتد بهم هذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبهم استهجانا وإنكارا وتلقوا كتبهم بالاعتقال والترك حتى إنهم يحضرون بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز * فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق بشيئ من أهل جملته وخصه صاملك والشافعي * وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصمعي إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المداولة المعتمدة عنده وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما يتقنون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لديهم واقعاتهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم والآخذين ذلك عنه وصار ذلك عندهم أصول الأدلة الشرعية فظن كثير أن ذلك من مسائل الاجماع فأنكره لأن دليل الاجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأئمة * واعلم أن الاجماع انما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم به في ذلك نعم الملة ذكرت في باب الاجماع الأبواب من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع لأن اتفاق أهل الاجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدتهم من قبلهم ولو ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس الملقب بالشافعي رحمه الله تعالى رحل إلى العراق من

بعد ما نلت ولقي أصحاب الامام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومن جاز طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف ما لا كارجحه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من عليته المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الامصار عندهؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثرت شعوب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا يدينه فصرحوا بالعجز والاعواز ويردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتساول تقليد لهم لمافيهم من التلاعب ولم يبق الا نقل مذهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قنده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا بمحصول اليوم لانه غير هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة فأما أحمد بن حنبل فقلده قليل بعد مذهب عن الائمة واصالته في معاضدة الرواية ولاخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشأم والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوائيد الباجي في رحلتهم وأما الشافعي فقلده بمصر أكثر مما سواها وقد كان اتشهر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاصموا الخنفية في الفتوى والتدريس في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشجنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشي من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشأم فعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلة التي ربيت في ظل الدولة الابوية بالشأم وعز الدين بن

عبد السلام أيضا ثم ابن الرقعة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي بعدهما الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر * وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وإن كان يوجد في غيرهم الا أنهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره عن لم فصل اليهم طريقته وأيضاً فالبداهة كانت غالبية على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل للمناسبة البداهة ولهذا لم يرل المذهب المالكي غصاعدهم ولم يأخذوا تنقيح الحضارة وهذبه كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام عالما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الاحقاق وتفريقها عند الاستنباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كما يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير والتفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعاً ملدون لما لك رحمه الله وقد كان تلميذه افرقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خوير سناد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الابرري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقته ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتيبي من تلامذته كتاب العتيبة ورحل من افرريقية أسد بن القرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة وأولاهم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمى الاسدية نسبة الى أسد بن القرات فقرأ بها يحنون على أسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب يحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب يحنون فأثقف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة يحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل

الاندلس على الواضحة والعقيدة ثم اختصر ابن أبي زيد المدقونة والمختلطة في كتابه المسمى
بالمختصر وخلصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب
واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل
الاندلس كتاب العقيدة وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه
الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب أهل إفريقية على المدقونة ما شاء الله أن
يكتبوا مثل ابن يونس والنجمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل
الاندلس على العقيدة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد
جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على
جميع أقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه
في كتابه على المدقونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة
قرطبة والقيروان ثم تسلكهم ما أهل المغرب بعد ذلك الى أن جاء كتاب أبي عمرو بن
الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وهدى أقوانهم في كل مسألة فجاء
كالمربح للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين
وابن المبشر وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني
سند وابن عطاء الله ولم أدر عن أخذها أبو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض
دولة العبيديين وذهب فقهاء أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية
ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب
وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه
الى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر وسمع مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية
في تلميذه ومنهم من انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد
يتداولون قراءته ويتداولونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد
شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة
أهل تونس وسابق حلفتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون
كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

٨ (علم الفرائض)

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول
أو ما سخطها وذلك اذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته
فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصحح الفريضة الاولى حتى يصل أهل الفروض جميعا

في الفريضة الى فروضهم من غير تجزئة وقد تكون هذه المناسبات أكثر من واحد
واثنين وتعدد لذلك بعدد أكثر بقدر ما تعدد محتاج الى الحساب وكذلك اذا كانت
فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصح على
الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل
الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحساب وكان غالبافه وجعلوه فنادوا بالانصاف
فيه تاليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الاندلس كتاب ابن ثابت
ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري إفريقية ابن النمر
الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تاليف كثيرة
وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصا بأعمال
رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول
والمنقول والوصول به الى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عند ما تجهل
الخطوط وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الامصار بها عناية ومن المصنفين
من يحتاج فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج الى استخراج المجهولات
من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملأوا بها
تاليفهم وهو وان لم يكن متداول بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم
لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكية في المتداول على أكمل الوجوه
وقد يحتاج الاكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وانها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه
أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بنساء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة
والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي الفرائض التكليفية في
العبادات والاعدات والموارث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية
وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها ويعين هذا
المراد أن حل لفظ الفرائض على هذا الفن مخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة
انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر
الاسلام يطلق على هذا الاعلى عمومته مشتقا من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع
وما كان المراد به في اطلاقه الاجمع الفروض كما قلناه وهي حقيقة الشرعية
فلا ينبغي أن يحمل الاعلى ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق برادهم منه والله سبحانه
وتعالى أعلم وبه التوفيق

٩ (اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والمخالفات)

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة الميمنة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن وبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل اليها منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعين دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلة ما لاجماع الصحابة على التكبر على مخالفتهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصارت الاجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الاشياء بالاشياء منها وما ينظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسلم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة ففاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشرط في ذلك إلحاق الصحيح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها الضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في مسنده والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل اليها منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتزداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع أمرها ونهايا وأما الاجماع فلا تفاقم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للامة وأما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة يحتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتمييز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك أن استفادة المعاني

على الإطلاق من تراكييب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لأهلهم لم تكن هذه علوم ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جيلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قبيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوم ما يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكييب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكييب الكلام وهو الفقه ولا يكتفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشتك لا يراد به معناه معاً والواو لا تقتضي القريب والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيمساءداها والامر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة ككاف في التمداد لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس وبمائل من الأحكام وينفتح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل من تين أو صاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنى عنه بما إن استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها إلى مزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فمأخوذ معظمها وأما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها القرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فافاناً بأرأسه سموه أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أمل في رسالته المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة

المنصوصة من القياس ثم كتب فقها الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا
أقول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك لأن كتابه الفقهاء فيها أسس بالفتن وألحق
بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النصت الفقهية
والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي
ما أمكن لانه غالب فنونهم زمقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى
من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القواني من مسائل الفقه ما أمكن
وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم ونعم الابحاث
والشروط التي يحتاج اليها فيه وكذا صناعة أصول الفقه بكاملها وتهدت مسائله
وتهدت قواعده وعن الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه
المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفي للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب
العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت
الاربعة قواعدها الفن وأركانها ثم تلخص هذه الكتب الاربعة فخلان من المتكلمين
التأخرين وهما الامام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي
في كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب
أسبل الى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتقرير
المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الامام سراج الدين الارموي في كتاب
التحصيل وتاج الدين الارموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما
مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التقيجات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب
المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس * وأما
كتاب الاحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقات المسائل فخصه أبو عمرو بن الحاجب في
كتبه المعروف بالختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تدوله طلبة العلم وعني أهل
المشرق والمغرب به وعطالته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن
في هذه المختصرات * وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من أحسن
كتابة فيها للامة قدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف
الاسلام البرزوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع
بين كتاب الاحكام وكتاب البرزوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن
الاولى وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يدولونه قراءة ويحناوولع كثير من علماء
العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعين موضوعاته
وتعديد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه والله يتقنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه

وكرمه الله على كل شيء تقدير * (وأما الخلافات) * فاعلم أن هذا الفقه المستنبط
من الأدلة الشرعية كثرة فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم
خلافًا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن
يقلدوا من شاؤوا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الأئمة الاربعة من علماء الامصار وكانوا
يمكن من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم
لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقار من
يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فأقيمت هذه المذاهب الاربعة أصول الملة
وأجرى الخلاف بين المتكلمين بها والآخرين باحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والاصول الفقهية وجرى بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه
تجرى على أصول صحيحة وطرائق قوية يحتج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك
به واجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون
الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفة
والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان
في هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة ومعارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم
كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي
يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد لأن المجتهد يحتاج اليها
للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج اليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن
يهدمها المخالف يادلتة وهو اعمرى علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأداتهم
ومران المطالعين له على الاستدلال فيميار ومون الاستدلال عليه وتآليف الحنفية
والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير
من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث وأما المالكية
فالأثر أكثر معتد بهم وليدوا بأهل نظر وأيضاً أكثرهم أهل المغرب وهم بادية
غفل من الصنائع الا في الاقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ ولا ي
زيد الدبوسي كتاب التعليقة وابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة وقد
جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبغي عليهما من الفقه الخلاف
مدرجاً في كل مسألة ما ينبغي عليهما من الخلافات * (وأما الجدل) * وهو
معرفة آداب المناظرة التي تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب
المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب
يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة الى
أن يضعوا آداباً وحكاماً ينف المناظران عنده حدودها في الرد والقبول وكيف

يكون حال المستدل والمجيب بحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون
مخصوصا منقطعاً ومجمل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه
الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في
الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره
وهي طريقتان طريقة البردوى وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والاجماع
والاستدلال وطريقة العميدى وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان
وأكثره استدلال وهو من المناسخ الحسنة والمغالطات فيه في نفس الامر كثيرة
وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبهه بالقياس المغاطي والسوفسطائي
الآن صور الأدلة والأقضية فيه محفوظة مراعاة تحزى فيها طرق الاستدلال كما
ينبغي وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى
بالارشاد مختصر أو تبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره جاؤا على أثره
وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف وهي لهذا العهد مهيورة لنقص العلم
والتعليم في الامصار الاسلامية وهي مع ذلك كالية وليست ضرورية والله سبحانه
وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم الكلام)

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المخرفين
في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو
التوحيد فلنقدم هنا الطريقة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق
والمساخذ ثم نرجع إلى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير إلى حدوثه في الملة ومادعا إلى
وضعه فنقول ان الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الافعال
البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها تقع في مستقر العادة وعنها
يتم كونه وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخرى ولا تزال
تلك الأسباب مرتبة حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه
لا اله الا هو وتلك الأسباب في ارتقائها تتفكح وتتضاعف طولاً وعرضاً ويحار العقل في
ادراكها وتعيدها فاذا لا يحصرها الا العلم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية
فان من جملة أسبابها في الشاهد القصور والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بإرادته
والقصد اليه والقصور والارادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة
تلو بعضها بعضها وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك

التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا
يطلع أحد على مبادئ الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هي أشياء يلقيها الله في
الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وانما يحيط
علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعة ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب
لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس
لان العقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل
من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الاسباب والوقوف معها فانه وادبهم
فيه الفكر ولا يحلونه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون
وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين
الهاكمين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف
أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من
الخوض في الاسباب على نسبة لانعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلتتحرز من ذلك بقطع
النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسباتها مجهول لانها
انما يوقف عليها بالعادة لا لقران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته
مجهولة وما أوتيت من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه
إلى مسبب الاسباب كلها وفعالها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا
الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال
صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك
الاسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وان سجد في بحر النظر والبحث عنها وعن
أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فانا الضامن له أن لا يعود الا بالخسبة فلذلك نهانا
الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على
الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك
واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادي رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في
نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في
المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف السموات وكذلك
الاعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشجعة
من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف
لا يقتضي فطرهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الا يحتمل لوجود ما منكر

للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فاعمل هذا الضربا من الادراك غير
مدركا لتالان ادراكا كائنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والخصر مجهول
والوجود أوسع ذاتا فامن ذلك والله من وراءهم محيط فاتهم ادراكا ومدركا في
الخصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك واعلم
بما يفعله لأنه من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك
بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميران صحيح فأحكامه بيقينية لا كذب فيها غير أنك
لا تطمع أن ترز به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية
وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال ومنال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي
يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير
صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته
فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفتن في هذا الغلط من يقدم العقل على
السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من
ذلك واذا تبين ذلك فاعمل الأسباب اذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكك ووجودنا
خرجت عن أن تكون مدركه فيفضل العقل في بقاء الاوهام ويحار وينقطع فاذا
التوحيد هو العجز عن ادراك الأسباب وكيفيات تأثيرها ونفويض ذلك الى خالقتها
المحيطة بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترقى اليه وترجع الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث
صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الادراك اذ انما
انما المتعبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكمي فان ذلك
من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان
المطلوب من الاعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفرغ
القلب عن شواغل ماسوى المعبود حتى يتقلب المرید الى ربانيا والفرق بين الحال
والعلم في العتائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم أن
رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر
مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين انزع عنه
واستنكف أن يبشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف
والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال
والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين
قربة الى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها
ففى رأى يتيما أو مسكينا بادراكه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد

يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم تصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذلك علمك
بالتوحيد مع انصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم
الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل
ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويحبى العلم
الثانى النافع فى الآخرة فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى
والنفع وهذا علم أكثر النظائر والمطلوب انما هو العلم الحالى الثانى عن العادة *
واعلم أن الكمال عند الشارع فى كل ما كلف به انما هو فى هذا فاطلب اعتقاده
فالكمال فيه فى العلم الثانى الحاصل عن الاتصاف وما طلب علمه من العبادات فالكمال
فيها فى حصول الاتصاف والتحقيق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها
هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم فى رأس العبادات جعلت قرة
عيني فى الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يجذفها منتهى لذته وقرّة عينه وأين
هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم
وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب فى التكليف كلها حصول ملكة راسخة فى
النفس يحصل عنها علم اضطرارى للنفس هو التوحيد وهو العقيدة لايمانى وهو الذى
تحصل به السعادة وأن ذلك سواء فى التكليف القلبية والبدنية ويفهم منه أن
الايمان الذى هو أصل التكليف وينبوعها هو بهذه المشابة ذم مراتب أولها
التصديق القلبي الموافق للسان وأعلىها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي
وما يتبعه من العمل مستولية على القلب يستتبع الجوارح وتدرج فى طاعتها جميع
التصرفات حتى تخترط الافعال كلها فى طاعة ذلك التصديق الايمانى وهذا أرفع مراتب
الايمان وهو الايمان الكامل الذى لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة اذ حصول
الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن منهاج طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم
لا يرنى الرانى حين يرنى وهو مؤمن وفى حديث هرقل لما سأل أباسفيا بن حرب عن
النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال فى أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه
قال لا قال وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الايمان اذا
استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمشابة الجبل
والقطرة وهذه هى المرتبة العالية من الايمان وهى فى المرتبة الثانية من العصمة لان
العصمة واجبة للانبياء وجوب سابقا وهذه حاملة للمؤمنين حصولا تابعا لاعمالهم
وتصديقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت فى الايمان كالذى يتلى عليك من

أقاريل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن
 الايمان قول وعمل ويزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وان تطوع
 رمضان من الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا
 اليه والى ملكته وهو فعل وأما التصديق الذي هو أقول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر
 أوائل الاسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر
 أوخر الاسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس
 ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق اذ التصديق موجود في جميع
 رتبته لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو الخاص من عبادة الكفر والقياس بين
 الكافر والمسلم فلا يجرى أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت
 في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهم * واعلم أن الشارع وصف لنا هذا
 الايمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كافها التصديق
 بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بالسنتا وهي العقائد التي تقررت في الدين
 قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملكه وكتبه
 ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد اليمانية المقررة في علم
 الكلام * ونشرها بجملة لتبين لك حقيقة هذا الدين وكيفية حدوده فنقول
 اعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي رزاه الافعال كلها اليه وأقرده به
 كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الايمان نجاة عند الموت اذا حضرنا لم يعترفنا بكنهه حقيقة
 هذا الخالق المعبود اذ ذلك متعذر على ادراكنا من فوق طورنا فكأننا أولاً واعتقاد
 تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والامساك أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا
 التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والاشابه المخلوقين ثم توحيد به بالاتحاد والام بتم
 الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الافعال شاهدة بقضيته الكمال الاتحاد
 والخلق ومريد والام يخص شئ من المخلوقات ومقدر لكل كائن والافعال ارادة حادثة
 وأنه بعد الموت تكميلاً لعنائه بالايحاد ولو كان لامر فان كان عبثاً فهو للبقاء
 السرمدى بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لا اختلاف
 أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك ونعم لطفه بنا في اليتاء بذلك وبيان
 الطريقين وأن الجنة للنعم وجهنم للعذاب هذه أمتهات العقائد اليمانية معللة بأدلتها
 العقائية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد اليها
 العلماء وحققها الأئمة لأنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مما رها
 من الآتي المتشابهة فدعنا ذلك الى الختام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى

النقل فحدث بذلك علم الكلام ولين لك تفصيل هذا الجمل وذلك أن القرآن ورد
 فيه وصف المعبود بالتزويه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي
 سلوب كلها ومسمى بحة في بابها فوجب الايمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه
 وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قابلة
 توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرة
 ووضوح دلالتها وعلوا استعمال التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها
 ولم يتعرضوا لمعناها بحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم أقرؤها كما جاءت
 أي آمنوا بأنهم من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها الجرازان تكون
 ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذذ بعضهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات
 وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بطواهر
 وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر
 موارد وأوضح دلالة لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات
 السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلو بطواهر
 هذه التي لنا عن أغنية وجمع بين الدالين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم
 جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لانه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات ان كان
 بالمعقولية واحدة من الجسم وان خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا
 في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه ويتوقف مثله على الاذن وفريق
 منهم ذهبوا الى التشبيه في الصفات ككثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت
 والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم الى التجسيم فنزعوا مثل الاولين الى قولهم صوت
 لا كالاصوات جهة لا كالجهاات نزول لا كنزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما
 اندفع به الاول ولم يبق في هذه الظواهر الاعتقادات اسلف ومذاهيبهم والايمان بها كما
 هي لا لا يكثر النفي على معانيها بغير ما مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه
 في عقيدة الرابطة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم
 فانهم يحرمون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون
 كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء
 وآلف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب
 فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدر والارادة والحياة زائدة على أحكامها يلزم
 على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها
 وقضوا بنفي السمع والبصر كونهما من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم

اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشيء ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وظلم ضرر هذه البدعة واقتضاها بعض الخلقاء عن أنهم حمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل خلافهم ايسار كثير منهم ودماؤهم كان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالدلة العقلية على هذه العقائد دفعافي صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري أمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة له ومعه فأنبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوا هذه البدع من القول بالصلاح والاصح والتحسين والتقيج وكل العقائد في ابعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وان يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لم هي له وكذلك على الامة وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحة اجماعية ولا تلحق بالعقائد فلذلك ألحقوها بما نزل هذا الفن وسموا مجرعه علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات الكلام النفسي وكثر اتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدرا للامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والانتظار وذلك مثل اثبات الجوهر النرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تدبر العقائد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية الا أن صور الأدلة تعتبر بها الاقضية ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون للاسبغ للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني امام الحرمين أبو المعالي غاملي في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم خصه في كتاب الارشاد واتخذ الناس اماما لعقائدهم ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعبارة للدلالة فقط يسير به الأدلة منها كما يسير من سواها ثم نظروا

في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للاقدمين فخالقوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت الى ذلك وربما أن كثيرا منها مقبوس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات فلما سيروها المعيار المنطقي ردتهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار اليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مبينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الايمانية وجمعوا لهم من خصوم العقائد تناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العليين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما * واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات الا أن نظره فيها مخالف انظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا انظر الفيلسوف في الالهيات انما هو نظره في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد والجملة فموضوع علم الكلام عند أهل انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد واذا تأملت حال الفن في حدوده وكيف تدرج كلام الناس فيه صدر ابعده صدروا عنهم يفرض العقائد صحيحة ويبتعض الحجج والأدلة علمت حينئذ ما قرره ذلك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه واقعا اختلطت الطريقة ثمان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفين من الآخر ولا يحصل عليه طلبة من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم الا أن هذه الطريقة قد بعث بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق في معرفة الحاجج لو فورد ذلك فيها أو أما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فانما هو الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه ومن أراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاف في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب

العلم اذ المجددة والمبتدعة قد انقضوا والا ئمة من أهل السنة كفونا أنهم فيما كتبوا ودقوا والادلة العقلية انما احتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها الا كلام تنزه الباري عن كثير من سماته وإطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مزجهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزحون الله بالادلة عن صفات الحدود وسمات النقص فتدل نبي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذا لم يحسن بحامل السنة الجهل بالجميع النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

١١ (علم التصوف)

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقلوبون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد له هذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس وانما سمي لأنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قلت والظاهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم في الغالب محتصون بلبسه كما كانوا عليه من مخالطة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بما خدمت ذكركم لهم وذلك أن الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك الاحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وارادات واحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة والفرح والحزن عن ادراك المولم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأه عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير قواماً للمريد واما أن لا تكون عبادة وانما تكون

صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للعبادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فالمريد لا بد له من الترقى في هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات تتأخر ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير في النتيجة أو دخل فنعلم أنه انما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه في سائر أعماله ويتطرق في دقائقها لان حصول النتائج عن الاعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجب ذلك بذوقه ومحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كانت شاملة وغاية أهل العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصين من نظر الفقه في الاجزاء والامتنال وهؤلاء يمشون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ليطالعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه الاذواق والمزاجات التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر الامر بمقام ما يترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم اذا اوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بالفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليهم والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقهم وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتب العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فنهجهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهوروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها انما تلتقي من صدور

الرجال كما وقع في سائر العلوم التي قوت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك * ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك الشيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح اذا رجع عن الحس اظهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في غور وتزيد الى أن يصير شهودا بعد ان كان علما وبه كشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيعرض حينئذ لمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الالهي وتقرّب ذاته في تحقيق حقيقة آمن الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الوقائع قبل وقوعها ويتصرفون بهم منهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعزّون منه اذا هاجهم وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم كثير منها ويتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقة منهم من بعدهم * ثم ان قوم من المتأخرين انصرفوا عن انبثاقهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في امانة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكري حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش الى الطس هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة * ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عندهم الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وان لم يكن هنالك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومناله أن المرأة الصغيلة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوزي بمواجهة المرنى فانه يتشكل فيه معوجا على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرنى صحيحا فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرأة فيما ينطبع فيها من الاحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكاموا في

حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك وقصرت مداركهم لم يشاركونهم في طريقتهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك وأهل القنباين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل ينفع في هذه الطريق ردا وقبولا اذ هي من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأقنى بالانغمض فالاغمض بالنسبة الى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الدياجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فانه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدة التي هي مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأقول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الابدان والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كثيرا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الابدان المتزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الانبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة الحمديّة وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المآل ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الاقل في تعقده وتضاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيلها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك ما داتها لها في نفسها اقوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولها وازيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وازيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ثم ذلك يتضمن القوة الانسانية وازيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لامن جهة الظهور ولامن جهة الخفاء ولامن جهة الصورة ولامن جهة

المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو الفصل لها كالانسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكأنها تكونها مقارة يتألف منها الجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وانما أوجها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما نقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل والموجودات المعقولة والمتوهمه أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جله لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد كالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والنار والسماء والكواكب انما وجدت لوجود الخواص المدركة لها المماثلة في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود وانما هو في المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما هو ادراك واحد وهو ان لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فانه اذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا ما يفصله الخيال قالوا فكذلك البقطان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموهوم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا المختصر رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لانه لا يقع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلمة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانساقط بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع ان الحقيقة من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المريد عند الكشف ربما عرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمرید عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لانه يخشى على المرید من وقوفه عندها فتخسر صفته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكاملين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن القارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا

بالحلول والهيئة الاثمة مذهب لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لا آخر من أهل العرفان وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جلال الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما نقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليخجلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفقه الى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا والافعل رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخاية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أزهذا الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشئ يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم اسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر القاطمي وما شئخوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنى أو اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا اتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكيس ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويترقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان في صدورهم عن موجد ها وتكونها كما تروا ثانيا التصرفات في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثيرين أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات تستشكل ظواهرها فذكر ومحسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الاذواق والمواجد في تأييدها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لاحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقيق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من

الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفراخي من أئمة الأشعرية على انكارها
لاتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهم بالتحدثى وهو دعوى وقوع
المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم اتفقوا على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن
دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب
لبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثرة من هذه
الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابه وأكبر السلف كثير من ذلك وهو
معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور
الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجدنا في عندهم وفاقا للوجدان
عندهم بعزل عن أدواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لأنهم توضع الال
للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك وتتركه فيما
تركاه من التشابه ومن رزقه الله فهم شئ من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر
الشريعة فأكرم بها سعادة وأما اللفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالسطحات ويؤاخذهم
بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات
تلكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور
فن علم منهم فضله واقتداؤه على القصد الجليل من هذا وإن العبارة عن المواجه
صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لا يزيدها أمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فؤاخذ بما
صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو
حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضا وهذا أفق الفقهاء وأكبر المتصوفة
بقتل الخلاج لأنه تكلم في حضوره وهو مالك له والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل
الرسالة أعلام الملة الذين أشرفنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا
النوع من الإدراك إنما همهم الاتباع والاقتراف مما استطاعوا ومن عرض له شئ من
ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفترون منه ويرون أنه من العوائق والمخن وأنه إدراك
من إدراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان
وعلم الله أوسع وخلق أكبر وشريعته بالهداية أم لك فلا ينطقون بشئ مما يدركون بل
حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه
والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع
والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريدين والله الموفق
للصواب

(علم تعبير الرؤيا)

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صانعة وكتب
الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما
كان في الملوك والأمم من قبل إلا أنه لم يصل إلينا إلا كتفا فيه بكلام المعبرين من أهل
الإسلام والأفكار وقيام وجوده في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها فلو كان
يوسف الصديق صلوات الله عليه بعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح
عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك
الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما بدى
به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انقضى من صلاة الغداة يقول لأصحابه هل رأى أحد
منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين
واعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو أن الروح القلبية وهو الجنار
اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحي يتشرف في الشريانات ومع الدم في سائر
البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية واحساسها فإذا أدركه الملال بكثرة
التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح البدن
ما يغشاه من برد الليل انخس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي فيستجم
بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم
في أول الكتاب ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان والروح
العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته اذ حقيقة ذاته عين الإدراك وإنما ينزع
من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو
قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقة ذاته وهو عين الإدراك فيعقل كل
مدرك فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك الحق من عالمه بقدر ما تجرد
له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم فاستعد
لقبول ما هنالك من المدارك الثلاثة من عالمه وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع
إلى بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك
الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه يتزعج من الصور
المحسوسة صوراً خيالية ثم يبدعها إلى الحافظة تحفظها إلى وقت الحاجة إليها عند
النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد
من المحسوس إلى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها

ما تدركه ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه
النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي الى الحس والخيال أيضا
واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث
الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور
متنزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي
في الحافظة التي كان الخيال أودعها اياها منذ البقطة فهي أضغاث أحلام * وأما
معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي اذا أدرك مدركه وألقاه الى الخيال فيصوره فانما
يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم
فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العدو فيصوره الخيال في صورة الحية فاذا
استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن
يتبين أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءه ما هو به تدي بقرائن أخرى تعينه
المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان
وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن
أوعية وأمثال ذلك ومن المرنى ما يكون صريحاً لا يفتقر الى تعبير الجلائم وأوضحها
أو اقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه وهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله
ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى
تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان
هي الاضغاث * واعلم أيضاً أن الخيال اذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوره
في القوالب المعتادة للحس مالم يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد
أعشى أن يصوره السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئاً
من هذه وانما يصوره الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي
المسموعات والمشعومات وليتخفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه
ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون
البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر
يقولون البحر يدل على الهم والامر القادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو
وفي موضع آخر يقولون هي كاتمسر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال
ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي
تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في البقطة ومنها في النوم
ومنها ما يتقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل مبدء لما خلق له ولم يرل

هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه
في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف
المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي
طالب الفيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمى وهو علم
مضى بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

(العلوم العقلية وامثالها)

١٣

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بجهة
بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة
في النوع الانساني منذ كان عمران الخليفة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة
والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الاول علم المنطقي وهو علم يصم الذهن عن
الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور والحاصلة المعلومة وفائدته تميز الخطا من
الصواب فيما يلتصق به الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على حقيقة الحق
في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات من الاجسام
العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية
والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن
بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها واما أن يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من
الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير
ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أو لها علم الهندسة وهو الناظر في المقادير على
الاطلاق اما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو
الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه
المقادير وما يعرض لها اما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها
علم الارتماطيق وهو معرفة ما يعرض لكم المتفصل الذي هو العدد ويؤخذ من
الخواص والعوارض اللاحقة والثالث علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم
بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وغرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو
تعيين الاشكال للافلاك وحصر أوضاعها وتعدادها لكل كوكب من السيارة والقيام
على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها
ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة
المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطيق أولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم

الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع
الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن
فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف
على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية
ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد الى آخرها واعلم ان اكثر من عني بها في الاجيال
الذين عرفنا اخبارهم الاثنان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم
فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة
والسلطان قبل الاسلام وعصرهم فكان لهذه العلوم مجور زاخرة في آفاقهم
وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط
عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم وأخذ ذلك عنهم الامم من فارس ويونان
فاختص بها القبط وطمي بحر هافهم كما وقع في المتلوه من خبر هاروت وماروت وشأن
السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تابعت الملل بحظر ذلك
وتحريره فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن الا بقايا يتناقلها متعلمو هذه الصنائع
والله أعلم بصحتها مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما
الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعاً لما كانت عليه
دولتهم من النخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان
سنة حين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستوى على كتبهم وعلومهم
مالا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد بن أبي
وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقلها للمسلمين فكتب اليه عمر أن
اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان يكن ضلالاً فقد
كفانا الله فطرحوها في الماء أوفى النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل اليها
واما الروم فكانت الدولة منهم اميونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب
وجملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم
أصحاب الرواق بطريفة حسنة في التعليم كانوا يقرؤون في رواق يظلمهم من الشمس
والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم
في تلميذه بقراط الذي ثم الى تلميذه افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر
الافروديسي وتامسطين وغيرهم وكان ارسطو معلماً للاسكندر ملكهم الذي
غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسطو في هذه العلوم قدما
وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر * ولما انقرض

أمر اليونان وصار الامر لقيصرية وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم
كما تقتضيها الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في
خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لأهل
الظهار الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء أمرهم
بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا اتبعهم السلطان والدولة وأخذوا من
الحضارة بالخط الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى
الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما معوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض
ذكر منها وما تسموا اليه افكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور الى ملك الروم
أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقايدس وبعض كتب
الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي
منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان يتحمله فابعث لهذه العلوم
حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين واتساعها بالخط
العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظارة من أهل
الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية انظارهم فيها وخالقوا كثيرا من آراء
المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين
وأرسلوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو
علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس
الى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقصر كثير
على اتحال التعاليم وما يضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت
الشهرة في هذا المتحل على مسلمة بن أحمد المجرى من أهل الاندلس وتلميذه ودخل
على الملة من هذه العلوم وأهلها داخله واستهوت الكثير من الناس بما جحدوا اليها
وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه * ثم ان المغرب
والاندلس لما ركبت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضحل ذلك منهما
الاقل من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة وبلغنا
عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم
وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على تيج من العلوم العقلية وتفريعهم واستحكام
الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هرة من بلاد
خراسان يشهر بسعد الدين التفناني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان
تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي شأنها ما يدل له على أن له اطلاعا على العلوم

الحكمة زقدما عالية في سائر النون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية يلاذ الافرنجية من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافذة الاسواق وأن رسومها هنالك متجددة ومجالس تعليمها مستعدة ودواوينها جامعة متوفرة وطالبها متكررة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

(العلوم العددية)

وأولها الارتباط بين وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف أما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الاعداد اذا اتوا الت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على تواليها والازواج على تواليها ومثل أن الاعداد اذا اتوا على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمستدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد الى العدد الاخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الاشكال على توالي الاضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض في عرض الاعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم الخمسات الخ وفي طوله كل عدد واسكاله بالغاما بلغ وتحدث في جمعها وقسمتها بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأنها يدخل في براهين الحساب والحكمة المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف وأكثرتهم بدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور راد هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم

(ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) وهي صناعة علمية في حساب الاعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عددا با حاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الاعداد اما بالافراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فان تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متفحة وبراهين منتظمة فنشأ عنها في الغالب عقل مضى درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره انه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلزمه مذهبها ومن أحسن التأليف المبسوطه فيها لهذا العهد يا مغرب كتاب الحصار الصغير لابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط اقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاء الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها رأعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فأنما هو اعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأملته والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوى المتين *(ومن فروع علم الجبر والمقابلة)* وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما نسبة تقضي ذلك فاصطالحوا فيها على أن جعلوا للجبهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب أولها العدد لان به يتعين المطلوب المجهول باستخراجها من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة ابهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال ودوا من مبهمة وما بعد ذلك فعلى نسبة الامس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج الى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويخطون المراتب الى أقل لاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد

وواحد تعين فالمال والجذور زول ابهامه بمعادلة العدد وتعين والمال وان عادل الجذور
يتعين بعديتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق
تفصيل الضرب في الاثنين وهي مهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل ولا يمكن المعادلة
بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد
وجذر مال مفردة أو مركبة تجي ستة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله
الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكاتبه في مسائله
الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من أهل الاندلس فأجادوا
ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق
أنهى المعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج
لها كلها أعمالا وأتبعه إبراهيم هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى
(ومن فروعه أيضا المعاملات) وهو يتصرف الحساب في معاملات المدن
في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف
في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والمكسر والصحيح والجذور وغيرها
والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المرات والدربة بتكرار العمل حتى
ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابة من أهل الاندلس تآليف
فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمع وأبي مسلم بن خالدون من
تلميذ مسلمة الجريطي وأمثالهم *(ومن فروعه أيضا القرائض)* وهي صناعة
حسابة في تصحيح السهام لذوى الفروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض
الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحها
على المال كله أو كان في الفريضة اقرارا وانكارا من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله
الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح ومهام الورثة من كل بطن صحاح حتى
تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها
من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على
ترتيب أبواب القرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من
الفقه وهو أحكام الوارثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير
وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهام باعتبار الحسب
الفقهى وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل
القرائن ثلث العلم وانما أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندى أن طواهر تلك
الاحاديث كلها انما هي في القرائض العينية كما تقدمت لافرائض الوراثات فانها أقل

من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما القرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا
الفن قديما وحديثا وأوعبوا ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله
كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الخوافي وكتاب ابن المنذر والجلجدي
والصردى وغيرهم لكن الفضل للخوافي فكاتبه مقدم على جميعها وقد شرحه من
شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطبي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب ولامام الحرمين
فيها تآليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا
للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء به صراطه
لارب سواه

(العلوم الهندسية)

هذا العلم هو النظر في المقادير اما المتصلة كالخط والسطح والجسم واما المنفصلة
كالاعداد وفيها يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزوياه مثل
قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل
أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منه ممتساويتان ومثل
أن الاربعة مقادير المتناسبة ضرب الاول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع
وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوكليدس ويسمى كتاب
الاصول وكتاب الاركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلين وأول ما ترجم من كتاب
اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين فمنها لحمين
ابن اسحاق واثابت بن قرة وليوسف بن الجراح ويشتمل على خمس عشرة مقالة أربعة
في السطوح وواحدة في الاقدار المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها الى بعض
وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور
وخمس في الجسمات وقد اختصره الناس اختصارا كثيرة كما فعله ابن سينا
في تعاليم الشفاء أفرد له جزءا منها اختصه به وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار
وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية باطلاق واعلم أن
الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فهمه لان براهينها كلها بينة
الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها الترتيبا وانتظامها فيبعد الفكر
بما رستها عن الخطا وينشأ صاحبها عقل على ذلك المهيع وقد زعموا أنه كُن مكتوبا
على باب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلا وكان شيوخنا رحمه الله يقولون
ممارسة علم الهندسة لفكر بمثابة الصابون للشوب الذي يغسل منه الاقدار وينقيه
من الاوضار والادران وانما لئلا أثرنا اليه من ترتيبه وانتظامه *(ومن فروعه

هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات) * أما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين ثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها او كتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولا بد منهم لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما ذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الاشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم يتطرق فيما يقع في الاجسام المخروطية من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض يبرهن هندسية متوقفة على التعليم الاول وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الاجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهيكل النادرة وكيف يتجمل على جزر الاثقال ونقل الهيكل بالهندام والميخال وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية يتضمن من الصنائع الغريبة والحيل المستطرفة كل عجيبه وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه الى بنى شاكر والله تعالى أعلم * (ومن فروع الهندسة المساحة) * وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما ونسبة أرض من أرض اذا قويت بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والقدن وبساتين الغراسية وفي قسمة الحوائط والاراضي بين الشركاء والورثة وأمثال ذلك والناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بئنه وكرمه * (المنظر من فروع الهندسة) * وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبير والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والسلعة دائرية وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبنى عليه معرفة رؤية الالهة وحصول الكسوفات وكثير من امثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهرهم أنفثيمس من الاسلاميين ابن الهيثم وغيره فيه أيضا تأليف وهو من هذه الرياضة وتفاريعها

(علم الهيئة)

وهو علم يتطرق في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع الافلاك لزمت عنها هذه الحركات الخمسة بطرق هندسية كما يبرهن على أن مركز الارض مباين لمركز ذلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكواكب الواحدية بعدد الميول له وأمثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها انما هو بالرصد فانما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعتمدون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التي توضع لرصدها حركة الكواكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركاتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس وأما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك فلم يتم ولمامات ذهب رجمه وأغفل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة وليست بعنيفة لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فاذا طال الزمان ظهرت تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور انما تعطى صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة بل انما تعطى أن هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات وأنت تعلم أنه لا يعد أن يكون الشيء الواحد لا زما متخالفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود المألوم ولا يعطى الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم ببطليموس على ما حقه شرأح الكتاب وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء وخلصه ابن رشد أيضا من حكماء الاندلس وابن السمع وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولا ابن الفرغاني هيئة مخصوصة قريبا وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا اله الا هو رب العالمين * (ومن فروع علم الازياج) * وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لاي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك

القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول
لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الاوج
والخفيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها
في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع
الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعد بلا وتقويم للناس فيه تأليف كثيرة
للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الجوزي وقبول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب
على زيج منسوب لابن اسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة ويرغمون أن
ابن اسحاق عقول فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ما هرا في الهيئة والتعاليم
وكان قد عني بالرصد وكان يعث اليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها
فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يرغمون ونلخصه ابن البتاني آخر سماء
المنهاج فولع به الناس لمسهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب
من ذلك لتنبئ عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها
بأوضاعها في عالم الانسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما ينبئ به بعد ونوضح
فيه أدلتهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

(علم النطق)

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود والمعرفة للمجاهيات والجميع المفيدة
للتصديقات وذلك أن الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع
الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان عنها بادراك
الكلمات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الاشخاص المتفقة
صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلية ثم ينظر الذهن بين
تلك الاشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق
أيضا عليها باعتبار ما اتفق فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكل الذي لا يجب دكليا
آخر معه يوافق فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما يجزئ من أشخاص الانسان
صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجزئ صورة الجنس المنطبقة
عليها ثم بينهما وبين النبات الى أن ينتهي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا
يوافقه في شيء فيقف العقل هناك عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي
به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم اما تصورا للمجاهيات ويعني به ادراك الساذج من غير
حكم معه واما تصديقا أي حكما بثبوت أمر لا من فرضا رسي الفكر في تحصيل المطلوبات

قوله البتاني يفتح
الموحدة وتشديد
المنشأة كما ضبطه
ابن خلدون
في ترجمته قبيل
آخر المحمد بن اه
مصححه

اما بأن تجمع تلك الكلمات بعضها الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في
الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة
ماهية تلك الاشخاص واما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا
وغاياته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل انما هي معرفة حقائق
الاشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد
يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل
المطالب العلمية ليميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكامل فيه
المتقدمون أول ما تكلموا به جلا جلا ومفترقا ولم يذهب طريقة ولم تجمع مسائله حتى
ظهر في يونان ارسطو فذهب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم
الحكمية وفاتحتها ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو
يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب
التصديقية على انحاء * ففهما ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون
المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يقيد به
وما ينبغي أن يكون مقدما له بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من
الظن وقد ينظر في القياس لاعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة اتجاها خاصة
ويقال للنظر الأول انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص
من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة واتجاه القياس على الاطلاق
فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية * الأول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها
تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات * والثاني
في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة * والثالث في القياس
وصورة اتجاها على الاطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة
* ثم الراجع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنج لليقين وكيف يجب أن تكون
مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لا فائدة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية
وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود اذا المطلوب فيها
انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والحدود لا تتحمل غيرها قل ذلك اختصت
عند المتقدمين بهذا الكتاب * والخامس كتاب الجدل وهو القياس المقصد قطع
المشاغب وإخغام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضا من
جهة افادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث افادته لهذا الغرض وهي مذكورة
هنا وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه

وقبه عكوس القضايا * والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغاط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا لما كتب لي عرف به القياس المغالطي فيحذر منه * والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحلهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات * والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء والتفرد عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم إن حكاء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورثت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكلمات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بهام مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعا وترجمت كلها في اللغة الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس وابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكلمات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحدقوا كتاب المقولات لأن نظر المنطق فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث اتساجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحدقوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلزم بعضهم بالسير منها اماما وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخوننجي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الماوراء وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بجمع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من غرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

(الطبيعات)

١٨

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الاجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون

في الارض من العيون والزلازل وفي الجوف من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للاجسام وهو النفس على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجوده بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم نلخصه في كتاب النجاء وفي كتاب الاشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فخلص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخاف وألف الناس في ذلك كثير لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بمخواجه من أهل المشرق ويبحث مع الامام في كثير من مسائله فأوفى على انظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(علم الطب)

١٩

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية بعد أن يبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بأمرجة الادوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنجسه وقبوله الدواء أو لا في السجية والفضلات والتبصير محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالي الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما أفردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعلاها وأكحالها وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التي لاجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وامام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصرا لعيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب ونا آيقه فيها هي الاتهام التي اقتدى بها جميع اطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازي والجوسي وابن سينا ومن أهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهو لهذا العهد في المدن

الاسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقضه وهي من الصنائع التي لا تستمدعها الا الحضارة والترق كما ينبغي بعد

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يتنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثا عن مشايخ الحلي وبمعاثره وربما يصح منه البعض الا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الرشى في شيء وانما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فأنه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلننا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العباديات وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمر ديننا كم فلا ينبغي أن يحصل شيء من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجي وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة المبطلون بالعسل والله الهادي الى الصواب لا رب سواه

(الفلاح)

٢٠

هذه الصناعات من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوئه بالسقي والعلاج وتعهد به بمنزلة ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهيكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعمدت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلاء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل الملّة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فافتدروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الاخر منه بجله واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الاخر منه مغفلا نقل منه مسألة في كيبه السحرية اتبها من مسائله كما ذكره عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله

وهي موجودة

(علم الالهيّات)

٢١

وهو علم ينظر في الوجود المطابق فأولا في الامور العادة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكمّ وكثرة الوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ الموجودات وانها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدأ وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجودة بين أيدي الناس ونحضره ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاء وكذلك لخصه ابن رشد من حكماء الاندلس وما وضعه المتأخرون في علوم القوم ودقوا فيها وردت عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في سباحاتهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيّات ومسائله بمسائلها فصارت كأنهم افن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والالهيّات وخطوهم ما فتنوا واحدا قدموا الكلام في الامور العادة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام بن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعها ومسائلها واحد والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقائد متفاعة من السريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت الا به فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس يجتمع الحق فيها فالتعليل بالدليل بعد ان لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة بل انما هو الناس حجة عقائدية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحة بالدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب السريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها ومحيط بها الاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا هدانا الشارع الى مدركه فينبغي أن نقدّمه على مداركنا ونفق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا

وعلماء ونسكت عملهم من ذلك وتفوضه الى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام أهل الاتحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح والبطالان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتمييزه بين الفنين فانهم ما محملطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما صاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتياج أهل الكلام كانه انشاء اطالب الاعتماد بالدليل وليس كذلك بل انما هو رد على المحدثين والمطلوب مقروض الصدق معلومه وكذلك جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخلطوا ومسائل الفنين بينهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدار في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وابدعها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان وينفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وابحاثها وتوابعها كما بيناه وبيئناه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ علوم السحر والطلسمات

هو علم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر ما بغير معين أو معين من الامور السماوية والاقول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفرد بين الناس الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل التبط والكلدانين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام انما كانت كتبهم مواظ ووحيد الله وتذكير بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار ولم يترجم لسان كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعوا بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصنف

كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غير هاهن التآليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السحابة لانها من توابعها لان حالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه * ثم جاء مسلمة بن أحمد الجرجاني على امام أهل الاندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهدبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده * ولقد تقدمت هاهنا مقدمة يبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الاخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصفة نفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعذبهم بالمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع ذلك من التأثير في الاكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية فأما تأثير الانبياء فقد دلهي وخاصة ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الاخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتي شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني معين من مزاج الاقلان والعناصر وأحوال الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعتمد صاحب هذا التأثير في القوى المتخيلة فيصرف فيها بنوع من التصرف ويبقى فيها أنواعا من الخيالات والحاكات وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرأين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هنالك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هنالك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والتعبدية هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها انما تذكر بالتوجه الى الاقلان والكواكب والعوالم العلوية والسياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كثيرا والكفر من مواده واسبابه كما رأيت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو كفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت المرتبتان الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة

لاحقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل فالقاتلون بأن له حقيقة نظروا الى المرتبتين الاولين والقاتلون بأن لاحقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولان نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بإذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكل لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسرانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقى من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعسيان من بصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجوده بالمسحور وأمثال تلك الممانى من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينقب من ريقه بعد اجتماعه في فيه بكري يخرج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعداءه لذلك تقا ولا بالعقد والزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفقه في فعله ذلك استعارة للعزيمة بالعزم وتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المتحليين للسحر ومجملهم من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع مخترق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيهم بالبجع فاذا معارها ساقة من بطونها الى الارض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيحتك قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيطر الارض

الخصوصية وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتحابة وهي ركز رد أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وخمسون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها اذا جمع كان مساويا للعدد الا آخر صاحبه قسمي لاجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الاعداد أثر في الالفه بين المتحابين واجتماعهما اذا وضع لهما مثلا أن أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها وشرفها ناظرة الى القمر نظرمودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الاول ويضع على أحد الثماليين أحد العددين والاخر على الآخر ويقصد بالاكثر الذي يراد استلافه أعني المحبوب ما أدري الاكثر كية أو الاكثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد يتفكر أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هنداصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجله الى قبالة وجهه فاخرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح الثيرين وسلامتهم من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مدة دار المنقال فسادونه من الذهب ونمس بعد في الزعفران محلولاء الماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون أن لمسه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المستحسن المختص بالشمس ذكرنا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعقب برقيقه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظرمودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في مواليه الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فرغموا أن له أثر في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكأب الغاية للسلمة بن أحمد الجربطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاءها وكال مسائلها وذكرنا أن الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسرا المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المتحليين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساء أو الجلد فيخترق ويشيرون الى بطون الغنم بالبجع فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم

البعاج لأن أكثر ما يتحمل من السحر بعج الانعام يرهب بذلك أهلها يعطونه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم من الحكم لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات ككفرية وأشرار الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم انما هو في مساوي الانسان الحرمن المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما نفعل فيما تشي فيه الدراهم أي مائلك ويبيع ويشترى من سائر المملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فاخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة وجودة وقفنا على الكثير منها وعما ينتها من غير رية في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فاما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعا أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الانسانية بأن لهما آثارا في بدنهما على غير المجري الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثارا عارضة من ككيفية الأرواح تارة كالصنونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فإن الماشي على حرف حائط أو على جبل منتصب إذا قوى عنده توهم السقوط سقط بلا شك وهذا تجد كثيرا من الناس يعقدون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والجبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك أثر للنفس في بدنهما من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فبان أن يكون لهما مثل هذا الأثر في غير بدنهما اذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لانها غير حادثة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج إلى حرقية إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع القلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبها في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكسب لسحره بل هو مفظور عندهم على تلك الجيلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوة النفسانية وبإمداد

الشیاطین في بعض الاحوال فيبينهما الفرق في المعقولة والحقيقة والذات في نفس الامر وانما استدلل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخبر وفي مقاصد الخبر والنفس المتحضرة للخبر والتحدى بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفرق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك وللنفس المتحضرة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الصكرات تأثيرا أيضا في أحوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالإمداد الالهي لأن طريقهم ونحلهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم وتغسكهم بكلمة الله وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيتها لانه متعبد فيما يأتيه ويذره للامر الالهي فلا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن آناه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب جاله ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحر فرعون مع موسى في معجزة العصا وكيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحلت كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كوايان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثني العدد منسوجا بالذهب في أوضاع فلكية رسمت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رسم بالقادسية واقعة على الارض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تراه من أهل الطلسمات والافاق مخصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا الا أن هذه عارضها المدد الالهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتغسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون وأما الشريرة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا لأن الأفعال انما أباح لنا الشارع منها ما يميننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يميننا في شيء منهما فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد كالنجامة التي فيها نوع ضرر بامتداد التأثير فتفسد العقيدة الايمانية برذالها إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبه في الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه قربى إلى الله فإن من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريرة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر وخصته بالخطر

والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى
التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه قائلوا والسحر مصروف عن مثل هذا
التحدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة
المعجزة على الصدق عقلية لأن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال
الصادق كاذبا وهو محال فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق
بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطريقين فالساحر لا يصدر منه
الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل
في أسباب الشر وكانهم على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء
وهو القوي العزيز لا ريب سواء

(فصل) ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان
عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الاحوال ويقرط في استحضاره وينشأ عن
ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن انصف به فيؤثر فسادا وهو
جعله فطرية أعني هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وإن كان منها
ما لا يكتب أن صدورها راجع إلى اختيار فاعلها واقطري منها قوة صدورها لانفس
صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل
وما ذلك الا لانه ليس بما يريده ويقصده أو يتركه وانما هو مجبور في صدوره عنه والله
أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر

(علم اسرار الحروف)

٢٢

وهو المسمى بهذا العهد بالسميات نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح أهل التصرف
من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد
صدورها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور
الحوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات
ومن أعظمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن الكمال الاسمائي مظاهره
أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي
سارية في الاكوان على هذا النظام والاكوان من لدن الابداع الاوّل تنقل في اطواره
وتعرب عن أسرارها لحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السميات لا يوقف
على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تأليف البوني وابن العربي
وغيرهما من اتباع آثارهما وحاصله عندهم وغرته تصرف النفوس الربانية في عالم

الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالامرار
السارية في الاكوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو قديم من
جعله لامزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمه الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر
واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا
بذلك الصنف فتشعرت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية
ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء
والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفذ فتعين
لعنصر النار حروف سبعة الألف والياء والطاء والميم والقاف والسين والذال وتعين
لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والصاد والطاء وتعين لعنصر
الماء أيضا سبعة الجيم والزاى والكاف والصاد والقاف والهاء والغين وتعين لعنصر
التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والسين والحروف النارية
لدفع الامراض الباردة ولما عطف قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها محاسنا وحكما
كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا لدفع الامراض
الحارة من نجيات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها محاسنا أو
حكما كضعيف قوى القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف
للقسبة العددية فإن حروف أبيجدالة على اعدادها المتعارفة وضعا وطبيعا فينبغي أن
أجل تناسب الاعداد تناسب في نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء دلالتها كلها
على الاثنين كل في مرتبة فالباء على اثنين في مرتبة الاحاد والكاف على اثنين
في مرتبة العشرات والراء على اثنين في مرتبة المئين وكالذي بينا وبين الدال والميم
والهاء دلالتها على الاربعة وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف وخرج للاسماء أوافق
كما للاعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوافق الذي يناسبه من حيث
عدد الشكل أو عدد الحروف وامتنح التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل
التناسب الذي بينهما فامساك التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين
الحروف والاعداد فأمر عسر على الفهم اذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وانما
مستندهم فيه الذوق والكشف قال البوني ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه
بالقياس العقلي وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهي وأما التصرف في عالم
الطبيعة بهذه الحروف والاسماء المركبة فيها وتأثر الاكوان عن ذلك فأمر لا يشكر
لثبوتها عن كثير منهم توأرا وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات
واحد وليس كذلك فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من

ترتيب طبائع
الحروف عند
المغاربة غير ترتيب
المشاركة ومنهم
الغزالي كما أن الجمل
عندهم مخالف في
سنة أحرف قات
الصاد عندهم بـتين
والضاد بـعين
والسين المهملة
بـثمانية والطاء
بـثمانية والفين
بـسعمائة والسين
بـألف قاله نصر
الهوري في

جوهر القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عديدة وبخورات
جالات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فأنتهار ربط الطبائع العلوية
بالطبائع السفلية وهو عندهم كالجيرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية
حاصلة في جلتها تجل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبها إلى صورتها وكذلك
الأكبر لا أجسام المعدنية كالجيرة تقلب المعدن الذي تسرى فيه إلى نفسها بالاحالة
ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لأن الأكبر أجزاءه كلها جسدانية
ويقولون موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية
والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل
الطلسمات وأهل الاسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله انما هو للنفس
الانسانية والهمم البشرية أن النفس الانسانية محبطة بالطبيعة وحكمة عليها بالذات
الآن تصرف أهل الطلسمات انما هو في استئزال روحانية الافلاك وربطها بالصورتا
بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع من اج يفعل الاحالة والقلب بطبيعة فعل
الجيرة فيما حصلت فيه وتصرف أصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف
من النور الالهي والامداد الرباني فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية ولا يحتاج
الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها ويحتاج أهل الطلسمات الى
قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استئزال روحانية الافلاك وأهون بها وجهة
ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد
التصرف في الاكوان اذ هو حجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من
كرامات الله لهم فان خلاصا صاحب الاسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت
الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبائع الحروف
والكلمات ونصرف بها من هذه الخفية وهو لا هم أهل السيمياء في المشهور كان اذا
لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى
أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب اسرار الاسماء اذا فاته الكشف الذي
يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلو في الوجهة وليس له
في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة وقد يمزج
صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء
الحسنى أو ما يرمم من أوقافها بل ولسائر الاسماء أوقافا تكون من حظوظ الكواكب
الذي يناسب ذلك الاسم كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم
هي من لدن الحضرة العمانية وهي برزخية الكمال الاسمائي وانما تنزل تفصيلها

في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة بمعتقدهم انما هو بحكم
المشاهدة فاذا خلاصا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقلد
كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلنا وكذلك قد يمزج أيضا
صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبهم بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات
المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الآن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما
هي عند أصحاب الاسماء من الاطلاع في حال المشاهدة وانما يرجع اليها مقتضاه أصول
طريقتهم السهرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر
واعراض وذوات ومعاني والحروف والاسماء من جملة ما فيه فكل واحد من
الكواكب قسم منها يخصه وينون على ذلك مبانى غريبة منكورة من تقسيم سور
القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة الجريطي في الغاية والظاهر من حال البوني
في انماطه أنه اعتبر طريقهم فان تلك الانماط اذا تصفحت وانصفت الدعوات التي
تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفت
قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب بسعونها قيامات
الكواكب أي الدعوة التي يقام لها بها شهد ذلك اما بأنه من مادتها أو بأن التناسب
الذي كان في أصل الابداع وبرزخ العلم فضى بذلك كله وما أوتيتم من العلم الا قليلا
وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت أن السحر حق مع حظره
ليكن حسبا من العلم ما علماء (ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوبة من
الاسئلة) * بارتيباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحايلون
علمه من الكائنات المستقبلية وانما هي شبه المعاينة والمسائل السائلة ولهم في ذلك
كلام كثير من أدعية وأعجبه زايحة العالم السبق وقد تقدم ذكرها ونين هنا ما ذكره
في كيفية العمل بتلك الزايحة بداترتها وجدوا لها المكتوب حولها ثم نكشف عن
الحق فيها وأنها ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مسئلة وجوابها في الافادة فقط
وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة الا
أنا تحريرا أصح النسخ منها في ظاهر الامر والله الموفق بمنه وهي هذه

يقول سيبتي ويحمد ربه * مصل على هادي الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الأنبياء * ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الاهذه زايحة العالم الذي * تراممهم وبالعقل قد حلا
فن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة * ويدرك للتقوى وللإكل حصلا

ومن أحكم التصريف يحكم سره * ويعقل نفسه وصره الولا
وفي عالم الامر تراه محققا * وهذا مقام من بالاذكار كلا
فهذه سرائر عليكم بكتبتها * ألقها دوائر اولياء عدلا
فطاه لها عرش وفيه نقوشنا * بنظم ونثر قد تراه مجدولا
ونسب دوائر كنسبة فلدها * وارسم كواكبا لدرجها العلا
وأخرج لاوتار وارسم حروفها * وكود بمنله على حدة من خلا
أقم شاكل زيرهم وسويونه * وحقق بهمهم ونورهم جلا
وحصل علوما للطباع مهندسا * وعلم الموسيقى والادباع مثلا
وسئلوا سبقي وعلم حروفهم * وعلم بالآلات فحقق وحصلا
وسودوائر ونسب حروفها * وعالمها أطلق والاقليم جدولا
أم سبر لنا فهو نهاية دولة * زناية آبت وحكم لها خلا
وقطر لاندلس فابن لهودهم * وجاء بنونصر وظفرهم تلا
ملوك وفرسان واهلى الحكمة * فان شئت نصهم وقطرهم حلا
ومهدى توحيد بتونس حكمهم * ملوك وبالشرف بالاوقاف نزلا
واقسم على القطر وكن متقددا * فان شئت للروم فبالجزر شكلا
فقدش وبرشمنون الرءاء حرفهم * وفرنسهم دال وبالطاء كلا
ملوك ككناوة ودلونقافهم * واعراب قومنا بتريق اءلا
فهذه دجباثي وسند فهرمس * وفرس ططاري وما بعدهم طلا
فقيصرهم حا ويرد جردهم * اكاف وقبطهم بلامه طولا
وعباس كلهم شريف معظم * ولا كن تركي بذ الفعل عطلا
فان شئت تدقيق الملوك وكلهم * نغم بيوتهم نسب ووجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها * وعلم طبائعها واكله مثلا
فنسب علم العلوم يعلم علمنا * ويعلم أسرار الوجودوا كلا
فيرسخ علمه ويعرف ربه * وعلم ملاحيم بحماميم فصلا
وحيث أتى اسم والعروض يشقه * فحكم الحكيم فيه قطعاً يقتلا
وتأنيك أحرف فسولضربها * وأحرف سيبويه تأنيك فصلا
فكن بتكثير وقابل وعوضن * بترنيمك الغالى للاجزاء خللا
وفي العقد والحزور يعرف غالباً * وزد لمج وصفيه في العقل فعلا
واخذ ترطلع وسوبه رتبة * واهكس يجذره وبالدور عدلا

[illegible]

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتهما وقاير المقابيل منها وقوة الدرجة المتبعة

بالنسبة الى موضع المعاق من امتزاج طبائع وعلم طب اوصافه الكيميائية

أَيُّهَا الطَّالِبُ اللَّطِيبُ مَعَ عِلْمِ جَابِرٍ * وَعَالِمِ مَقْدَارِ الْمَقَادِيرِ بِالْوَلَا
إِذَا شِئْتَ عِلْمَ الطَّبِّ لِابْتِدَئِ نَسَبَهُ * لِأَحْكَامِ مِيزَانِ تَصَادُفِ مَنَهَلِهِ
فَيُتَنَفَّسُ عَلَيْكُمْ وَالْأَكْسِيرُ مُحْكَمٌ * وَأَمْرٌ أَجَّزُ وَضَعُكُمْ بِتَصْصِيمِ انْجِلَالِهِ

(الطب الروحاني)

وشتت ایلاوش ۵۶۵ ودهنه بجلا • لهرام برجیس وسبعه کلا
لتحلیـل أوجاع البـواردهموا • كذلك والتركيب حیث تنقلا
کد منع مهم ۳۰۵ وحم ۶ صـح لهای ولح ۱۱ آ وحم وی سکره لال ح
ممت ۴۴۴ ع ع می مزح ۲۲۴ ل ک عاعر

(مطابق الشعارات في وائيد الملوك وبنيم)

سنيته ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهي
بغزلة واحد ألف وبغزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي فاستحق البيت من
الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم فاختصر وامن
الجدول بيوتاً خالية فتي كانت أصول الادوار زائدة على أربعة حسبت في العدد
في طول الجدول وان لم ترد على أربعة لم يحسب الا العامر منها * (والعمل في
السؤال ينظر الى سبعة أصول) عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها
اثني عشر اثني عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة في الناقص أبداً ومعرفة درج
الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد أبداً وما يخرج من اضافة
الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واضافة
سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضروبة في أربعة تكون
اثني عشر دوراً ونسبة هذه الثلاثة الادوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية كل
نشأة لها ابتداء ثم انما تضرب ادواراً رباعية أيضاً ثلاثية ثم انما من ضرب ستة في اثنين
فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل ويتبع هذه الادوار الاثني عشر نتائج وهي في
الادوار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سؤالاً اعنى الزايرة
هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس انشاء حروف الاوتار ثم حروف
السؤال فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء وثالثه وتر رأس
الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه حروف السؤال ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية
وثمانين وأكثر ما تكون ستة وتسعين وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سؤالنا ثلاثة
وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بأن يسقط جميع ادوار الاثني
عشرية ويحفظ ما خرج منها وما بقي فكانت في سؤالنا سبعة ادواراً بالباقي تسعة اثنتا
في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم اثبت
أعدادها أيضاً ان زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع
وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الاكبر وهو واحد وأجمع ما بين الطالع
والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية
وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع
والدور الاكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من
أسفل الجدول صاعداً وان زاد على اثني عشر طرح ادواراً وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية
وتعلم على منتهى العدد والنسبة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع في ضلع
السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعدمتوا بالباقي ادواراً وتحفظها الى أن

يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي فوق العدد في علمنا
على حرف الالف وخلف ثلاثة ادوار فضررنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد
الدور الاول فاثبتته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في
مقابلة البيوت العامة بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت
الجدول على أحد هافلا يعتبر وتسعر على ادوارك وادخل بعدد ما في الدور الاول
وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمع عا فيه وهي ثمانية مارة الى جهة
اليسار فوق على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب وانما هو اذن حرف
تاء أربعة مائة برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور
للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم
عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدريكم تدور الحروف في النظم الطبيعي
وذلك أن تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة
عشر أضفها بمثلها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا
السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة
وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي
للوحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين اطرح ذلك الواحد
أولاً ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب
الطالع والدور في السلطان تكون سبعة عشر الباقي خمسة فاضع في ضلع ثمانية
بخمسة من حيث انتهت في الدور الاول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة
عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرون فوجدنا حرف تاء خمسمائة وانما
هونون لان دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة بخمسين لان دورها
سبعة عشر فلم تكن سبعة عشر لكانت مئتين فاثبت فونانم ادخل بخمسة أيضاً
من أوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجدوا حد افقه عدد واحد يقع على
خمس أضف لها واحد السطح تكون ستة أثبت واواو علم عليها من بيت القصيد
أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني
عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو الدور الثاني
قد خلتنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوق العدد على واحد أثبت الالف وعلم عليها
من بيت القصيد وأسقط من حروف الاوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور
الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة الى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحد
انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه

العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الاوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل بمائلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد فخذ ما يلي حرف سين من الاوتار فكان ب أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف اليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الاوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ما قبله من السطح واضعه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت للجهة سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في الالمطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخر من بيت القصيد فالتابع حرف راء فأثبتناه وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قبلها من السطح ~~يكون~~ ج قهقر العدد واحد ويكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتناه وعلم عليه وعلم بمائلي الثاني تسعة يكون ألف أيضا أثبتناه وعلم عليه واضرب على حرف من الاوتار واضع تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتناه وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وادخل بثمانية عشر في حروف الاوتار تقف على س أثبتناه وعلم عليها اثنين وأصاف اثنين الى تسعة تكون أحد عشر ادخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتناه وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار واضع خمسة بمثلها وأصافها الى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ب أثبتناه وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على ق أثبتناه وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبتناه وعلم عليه أربعة وخسين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد فتبين اذ ذلك أن دور النظم من خمسة وعشرين فإن الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد

فاضرب خمسة في خمسة تسكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت فانتقل الدور في ضلع ثمانية وواحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لانه دور ثان من نشأة تركيبية ثانية بل أضفنا الاربعة التي من أربعة وخسين الخارجة على حروف ب من بيت القصيد الى الواحد تكون خمسة تضعف خمسة الى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في صدر الجدول وخذ ما قبلها من السطح وهو ألف أثبتناه وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الاوتار ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال فمخرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخل في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال فمخرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء أثبتناه وعلم عليها من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء المخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحد تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيد به بعد الى اثني عشر دورا اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة وانما هي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتناه وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخسين وأسقط من اثنين وخسين اثنين وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون فادخل بها في حروف الاوتار تقف على واحد أثبتناه وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجد واحدا فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف الاخيرة الميزاني وأخرى على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة ادخل في ضلع ثمانية وخسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقف على عشرين بسبعين أثبتناه وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قبلها من السطح وذلك واحد أثبتناه وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحدا من ثمانية وأربعين للاس الثاني وأصاف اليها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء أثبتناه وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين فانتقل الامر من ستة وتسعين الى الابداء وهو أربعة وعشرون فأضف الى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحدا تكون الجملة ثمانية

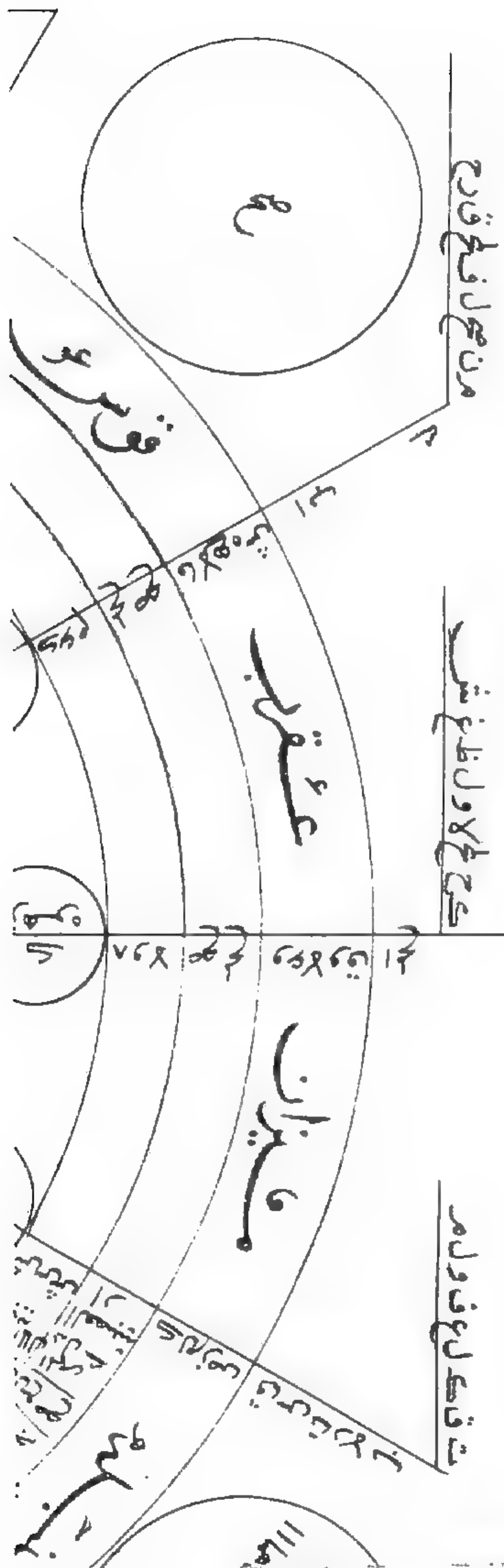
وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيدة تقف على ثمانية أثبت ٢ وعلم عليها
 وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وابست
 نسبة العمل هنا كنسبتهم في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية
 ولانه أول النشأة الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات فاضرب
 ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون
 ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وانما هي مئينية لتجاوزها في
 العدد عن مرتبة الاحاد والعشرات فاثبت ما تين راء وعلم عليها من بيت القصيدة ثمانية
 وأربعين وأضف الى ثلاثة عشر الدور واحد الاس وادخل بأربعة عشر في بيت القصيدة
 تبلغ ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب
 على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام أثبت وعلم عليه من البيت
 وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية
 بتسعة تكون خلافا صعد تسعة ثمانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في
 أربعة لصعودنا بتسعين وانما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول ستة وثلاثين
 تقف على أربعة زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقله الادوار فاثبت حرف دال
 وان أضفت الى ستة وثلاثين واحد الاس كان حدها من بيت القصيدة فعلم عليها ولو
 دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية
 أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولودخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة
 في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري فاطرح منه اثنين تكرر التسعة الباقي
 ثمانية نصفها المطلوب ولودخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة
 لوقعت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيدة وأثبت
 ما خرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط
 واحد وادخل في صدر الجدول ستة وعشرين وأثبت ما خرج وهو مائتان بحرف
 راء وعلم عليه من بيت القصيدة ستة وتسعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
 الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر
 عليه المشي في الدور الأول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال فخذ ما هابل
 من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيدة تسكن سين أثبت وعلم عليه أربعة
 ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لا ثبتنا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر
 بمثلها وأسقط واحدا وأضعفها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين ادخل بها في
 الاوتار تقف على ستة أثبتا وعلم عليها وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على

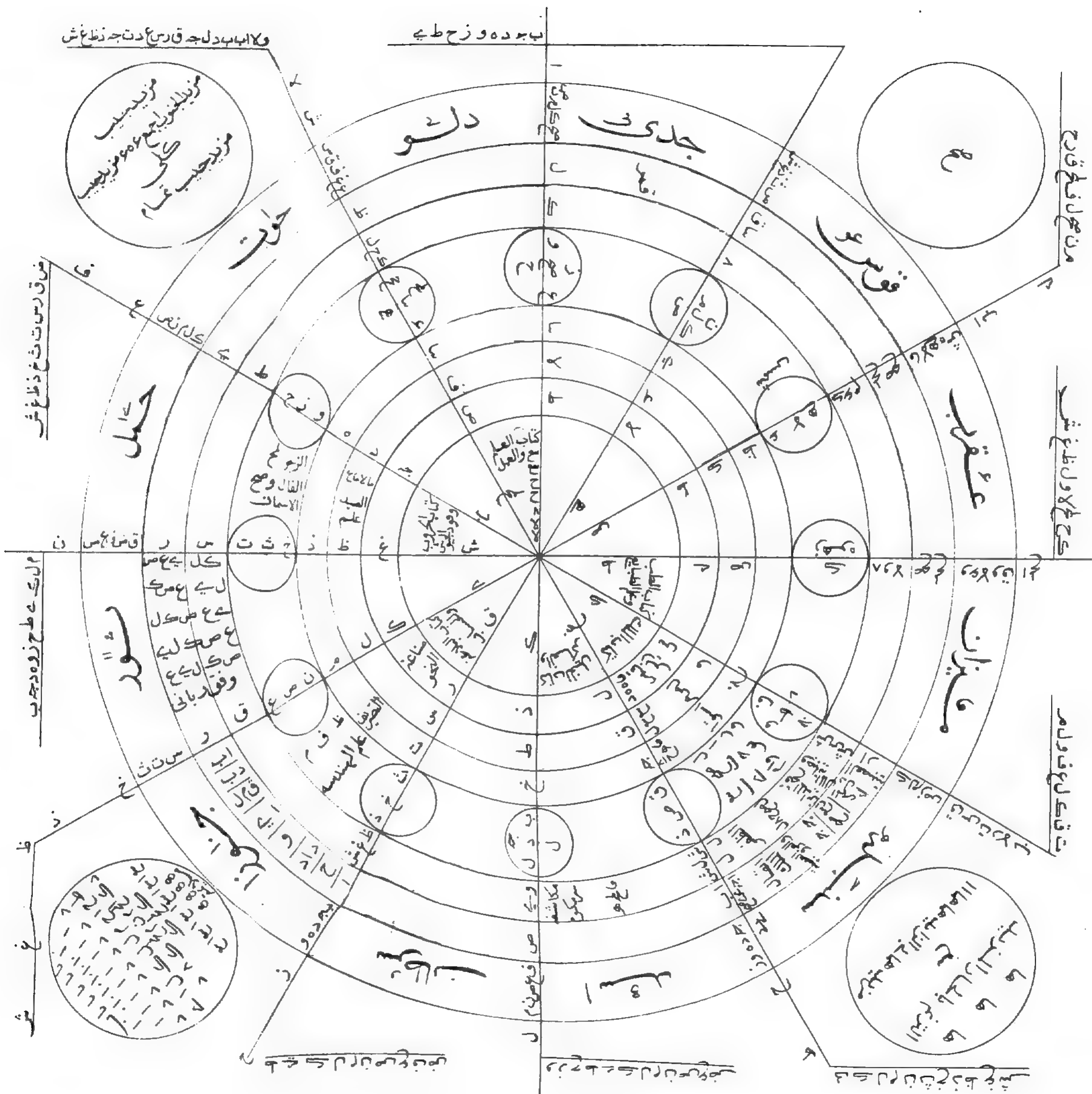
لام أثبتا وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثاني عشر وله
 ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور آخر الادوار وآخر
 الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد في صدر الجدول
 يقع على ثمانين زمامية وانما هي آحاد ثمانية وليس معنا من الادوار الا واحد فلوزاد
 عن أربعة من مربعات اثنين عشر أو ثلاثة من مثلثات اثنين عشر لكات ح وانما هي
 د فاثبتا وعلم عليها من بيت القصيدة أربعة وسبعين ثم انظر ما تناسبها من السطح تكن
 خمسة أضعفها بمثلها للاس تبلغ عشرة أثبت ي وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت
 وجدناها في الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد
 الحرفي فكانت ف اثبتا وأضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في
 الاوتار تبلغ من أثبتا وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور
 فانها آخر مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين ادخل بها في بيت القصيدة
 وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامة مائة وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في
 الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها تسعة
 وهذا العدد يناسب أبدأ الباقي من حروف الاوتار بعد طرحها أدوارا وذلك تسعة
 فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الاوتار وأضف لها واحدا
 الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها في حروف الاوتار تبلغ
 ألف اثنته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعين
 في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر
 كان كذلك واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين
 زمامية واضرب تسعة فيما تناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عدد
 الاوتار الحرفية واطرح واحدا الباقي من دور اثنين عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها
 في البيت تبلغ خمسة فاثبتا وأضف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر
 وخذ ما في السطح وهو واحد ادخل به في حروف الاوتار تبلغ م أثبت وعلم عليه
 واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة
 فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر
 أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وادخل بستة عشر في بيت
 التصيد تبلغ ت اثبتا وعلم عليه أربعة وستين وأضف الى خمسة الثلاثة الزائدة على
 تسعين وزدوا واحدا الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة ادخل بها في صدر الجدول
 تبلغ ثلاثين زمامية وانظر ما في السطح فجدوا واحدا أثبتا وعلم عليه من بيت القصيدة

وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي
عشرات فثبت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد
فانقل في ضلع ثمانية بواحد وأضف الى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد
الباقي من الدور الثاني عشر نبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها
في حروف الاوتار تكن لاما اثبتنا فهذا آخر العمل * والمثال في هذا السؤال السابق
أردنا أن نعلم أن هذه الزايرة علم محدث أو قديم بطالع أول درجة من القوس
أثبتنا حروف الاوتار ثم حروف السؤال ثم الاصول وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون
أدوارها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الاكبر
واحد درج الطالع مع الدور اثنان شرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية اضافة
السلطان للطالع خمسة بيت المقصد

سؤال عظيم الخلق حزن فغن اذن * غرائب شئ ضبطه الجده مثلا

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ل ه م ص ص و ن ب ه س ا
ن ل م ن ص ع ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف
ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر
و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي
* (حروف السؤال) * ال ز ا ي ر ج ه ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م
الدور الاول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩
الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩
الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣
الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الاولى ٩
النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١





هذا آخر الكلام في استخراج الاجوبة من زاي رجة العالم منظومة والقوم طرائق
أخرى من غير الزاي رجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة وعندهم أن
السري في استخراج الجواب منظومة من الزاي رجة انما هو من جهيم بيت مالك بن وهيب
وهو * سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الأخرى
فيخرج الجواب غير منظوم فمن طرائقهم في استخراج الاجوبة ما نقله عن بعض
المحققين منهم

(فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارباب طائفة الحرفية)

اعلم أرشدنا الله وبالله أن هذه الحروف أصل الاسئلة في كل قضية وانما تنتج
الاجوبة على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفا كما ترى والله علام الغيوب
اول اع ظ س ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن
غ ش ال ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا
وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مستند من حرفين وسماه القطب
فقال سؤال عظيم الخلق حزن فصن اذن * غرائب شذ ضبطة الجد مثلا
فاذا أودت استنحاح المسئلة فاحذف ما تكررت من حروفها وأثبت ما فضل منه
ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفا بمائه وأثبت
ما فضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالاول من فضله والثاني من فضل
المسئلة وهكذا الى أن يتم الفضلان أو يتفد أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على
ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل
الحذف فالعمل صحيح فحينئذ تضيف اليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية
وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفا فتعمر بها جدولاً مريعاً يكون آخر ما في السطر
الاول أول ما في السطر الثاني وتنقل البقية على حالها وهكذا الى أن تتم عبارة
الجدول ويعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم
تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الورقة مقابل الحرفه
ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها
الروحانية وغرائزها النفسانية وأسسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه
صورته

١	القوى	الموازين	الغرائز	الاسوس	و	ط	الموازين	الغرائز	القوى	ك
ب	٢٨ هـ	١٥ د	١٤ ح	١٣ ص	ح					
ج	٢٩ ذ	١٦ ج	١٥ لا	١٤ هـ	ح					
د	٣٠ ط	١٧ س	١٦ سع	١٥ ك	ح					
هـ	٣١ ط	١٨ لا	١٧ و	١٦ ع	س					
و			١٨ ح	١٧ هـ	هـ					
ز			١٩ ك	١٨ ع	هـ					

١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
٥ ٤ ٣ ٢ ١
٤ ٣ ٢ ١
٣ ٢ ١
٢ ١
١

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الاربعة واحذر ما يلي الاوتاد وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضة للمدد الكونية فتعمل عليه بعض المجرّدات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الأفق الاعلى فتعمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصل يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب بمجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدا في رابع مرتبة السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجرّدة فتقسم على الأفق الاعلى يخرج الجزء الاول وينقسم المنكسر على الأفق الاوسط يخرج الجزء الثاني وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا في الرابع وان شئت أكثر من الرابع فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الاوافق بهذا الحروف والله يرشدنا وياك وكذلك اذا قسم عالم التجربة على أول رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين ومن طريقهم أيضا في استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم أيّدنا الله وياك بروح منه أن علم الحروف جايل يتوصل العالم به الى ما يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم والعمل به شرائط تلزم وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرار الطبيعة قطاع بذلك على تيجتي الفلسفة أعني السيميا وأختها ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بأرض المغرب عن اتصال بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كما أن الخرق والمجته رأس الحرمان فأقول اذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف انفايطوس أعني أبجد الى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد قتلك الدرجة التي هي مناسبة للحرف هي قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله فتخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب لمعان باقى عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا في العالم

العلوى أعني الكرسي ومنها المتحرّك والساكن والعلوى والسفلى كما هو مرقوم في أما كنه من الجدول الموضوع في الزيارج واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام الاول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم في خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الاجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة في النفس بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والرطوبة فهذه اسرار العدد اليماني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ح ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الالتهات الاول أعني الطبائع الاربعة المنفردة ففي أردت استخراج مجهول من مسئلة ما فحق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق حروف أوتادها الاربعة الاول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج اعداد القوى والوتاد كما سنين واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح اللفظ أو بالمعنى وكذلك في كل مسئلة تقع لك سيانه اذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع اعدادها بالمثل الكبير فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعة الميزان عاشره الجدى وهو أقوى هذه الوتاد فأسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد المنطقة الموضوع في دائرتها واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كما هو أثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الوتاد والقوى والقرائن سطرا متمترجا وكسروا ضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثاله افرض ان الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فلحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثمن د ب ا الميم لها من العدد اربعون لها النصف والربع والثمن والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ل ي ه

اعل هذه عبارة
بعض المشاركة لان
هذا ترتيب المشاركة
لاترتيب المغاربة
الذي قدمه قاله
نصر الله مصححه

د اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلاثون والثلاث والخمسة والستون
والعشر **ك** ي و ه ج وهكذا تفعل بباثر حروف المثلة والاسم من كل
لفظ يقع لك وأما استخراج الاوتاد فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد
له مثاله حرف د له من الاعداد أربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء
يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع **ك** كل وتر مقابل الحرفه ثم تستخرج
النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق واما قاعدة تطرد في استخراجها من
طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف
الاصطلاح والله أعلم

(فصل في الاستدلال على ما في الضمان الخفية بالقوانين الجزئية)

وذلك لوسأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علمته وما الموافق لبرئته منه فوالسائل
أن يسمى ما شاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم
استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة أن أردت التدقيق
في المسئلة والاختصار على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما بينت فأقول مثلا سمي
السائل فرسا فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة بيانه أن للقائم العدد
ثمانين ولها م ك ي ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق ن ل ي
ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك فالواو عدد تام له د ج ب
والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصرين
متساويين فاحكم ل ك ن ه ما حروفا بالغلبة على الآخر ثم اجل عدد حروف
عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالع واحكم ل ك ن ه
والا قوى بالغلبة

وصفة قوى استفراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة والبيوسة طبع السوداء فتحكم على المريض
بالسوداء فاذا ألف من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريية خرج موضع
الوجع في الحلق ويوافق من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليمون هذا ما خرج
من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر وأما استخراج قوى العناصر

بیاض بالاصل

من الاسماء العلمية فهو أن تسمى مثلاً بمحمد اقرسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر
الأربعة على ترتيب القالب يوضح لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

ناری	ترای	هوائی	مائ
۱۱۱	ببب	ججججج	ددددد
ووو	ززززز	ححححح	ططططط
یییی	ننننن	صصصصص	ففففف
تتتتت	ثثثثث	خخخخخ	ششششش
ظظظظظ	غغغغغ		

فتمجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لأن عدد حروفه عشرون حرفاً جعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ تضاف إلى أواخرها والوتر المنسوب للطالع في الزايرة أول وتر البيت المنسوب لما لائن وهب الذي جعله قاعدة لمزج الاستلثة وهو هذا

سؤال عظیم الخلق حزت فصن اذن * غرائب شک ضبطه الجدملا

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعا مختزجا بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكريس وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت ثلاثة وأربعون حرفا لان كل حرف مشتمل من حرفين ثم تصذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا بمائله وثبت الفضلين سطرا مختزجا بعضه ببعض الحروف الاقل من فضله القطب والثاني من فضله السؤال حتى يتم الفضل ثمانية فافتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مرجت جدول امر يعايبكون آخر ما في السطر الاول أول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسسها

الاصليّة من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الاول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقت فحسن والا فاستخرج بين الحرفين نسبة وينسج هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسمية ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أو تاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلي الاوتاد وكذلك السواطات لان نسبتها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضة للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجزئات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلية يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدأ في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل تبقى العوالم المجزأة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل في التامة وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزياج الحرفية والصنعة الالهية والنيرجات الفلسفية والله الملمهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

(علم الكيمياء)

٢٤

وهو علم يتطرق في المادّة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفّحون المكونات كلها بعد معرفة أجزائها وقواها لعلمهم يعثرون على المادّة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعدرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها تلك المادّة من القوّة الى الفعل مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير ووجد الذائب منها بالتكليس وامهات الصلب بالفهر والصلابة وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الاكسبرو أنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص

والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهبا ابريزا ويكون من ذلك الاكسبر اذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقاب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا وربما يعزى الكلام فيها الى من ليس من أهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى انهم يخصونها به فيسمونه علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعموا أنه لا يفتح مقفلها الا من أحاط علما بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسئلة المجر بطي من حكماء الاندلس كآب الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريئنا لكتابة الاخر في الصحر والظلمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما تقيمتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقدة ثمر العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغاية تعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولابن المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجي في الشعر ملفوفة كلها لغز الا حاجي والمعاينة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغز الى رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطا ما يذهبون اليه حتى يتخلله وربا نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالد بن الحليل العربي والبدعوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأجزائها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه بآبهم فممكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لابي السمع في هذه الصناعة وكلامها من تليد مسئلة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقة من التأمل قال ابن بشرون بعد صدور من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها أهل الفلاسفة من معرفة تكوين المعادن وتخليق الاحجار والجواهر وطباع البقاع والاماكن فنحننا اشتهارها من ذكرها وانمكن أيمن لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فتبدأ بعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا ثلاث خصال أولها اهل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة

وأحكامها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكوّنهما فقد كفيينا كما بعثنا به اليك من الاكسير وأما من أي شيء تكون فانما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا من كل شيء بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليه ترجع انتهاء ولكن من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتي يمكن تفصيلها تعالج ولا تدبر لانها بالقوة فقط وانما يمكن تفصيلها والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها بالفعل فقط وانما يمكن تفصيلها لا تدبر الا بعض طبائعهما في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفنك الله ان تعرف اوفق الاجرار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الخل والعقد والتقية والتكليس والتشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التي هي عماد هذه الصناعة لم ينجح ولم يظفر بخير ابدا وينبغي لك ان تعلم هل يمكن ان يستعان عليه بغيره او يكتفى به وحده وهل هو واحد في الابتداء او شاركه غيره فصارت في التدبير واحد افعلى حجرا وينبغي لك ان تعلم كيفية عمله وكيفية وزانه وازمانه وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلا يعلو وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فانهم * واعلم ان الفلاسفة كلهم امدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركيبه على الغذاء والعناء وقوامه وتغامه بالنفس الحية النورية التي بها يفعل العظام والاشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وانما يفعل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكان خالدا باقيا فسمان مدبر الاشياء تعالى * واعلم ان الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضيه محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد ان تستحيل الى ما منه تركيب كما قلناه انفا في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزمت بعضها بعضا وصارت شيا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسمته بعد ان كانت طبائع مفردة بأعيانها فاعلم ان الطبائع ان القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتتمامها فلذلك قلت قوى وضعيف وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاقل للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق

* وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم اراد بقوله حياة وبقاء من وجه من العدم الى الوجود لانه مادام على تركيبه الاقل فهو فان لاحالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك انه لا وزن له فيه وسرى ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغي لك ان تعلم ان اختلاط الاطيف باللطيف أهون من اختلاط القليظ بالغليظ وانما ارى بذلك التشبه كل في الارواح والاجساد لان الاشياء تتصل بأشكالها وذكر لك ذلك لتعلم ان العمل اوفق وأيسر من الطبائع اللطيفة الروحية منها من الغليظة الجسمية وقد يتصور في العقل ان الاجرار اقوى وأصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الارواح فأقول ان الاجساد قد كانت ارواحا في بدنها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجسادا لرجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها الا فراط غلظتها وتلججها فاذا أفرطت النار عليها صيرتها ارواحا كما كانت أول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة اذا أصابتها النار أبت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك ان تعلم ما صير الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه * أقول انما أبت تلك الارواح لاشتعالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لانها هوائية نشاكل النار ولا تزال تغتذي بها الى ان تنفنى وكذلك الاجساد اذا أحست بوصول النار اليها لقلتها وتلججها وغلظتها وانما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من ارض وما صابر على النار لطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المارح للاشياء وذلك ان كل متلاش انما يتلاشى بالنار لفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصارت ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا تمازجة فسهل بذلك افتراقهما كالما والدهن وما أشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلهما فاذا علمت ذلك علمنا انما فقد أخذت حظك منها وينبغي لك ان تعلم ان الاختلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة لبعضها البعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد تدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزم منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف انك اذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريبا فقد أحكمت ما أردت احكامه وقوامه اذا الطبيعة واحدة لا غريب فيها فن أدخل عليها غريبا فقد راع عنها ووقع

في الخطأ * واعلم ان هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسط فيه وجرت معه حيثما جرى لان الاجساد مادامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاحج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم هذا الله هذا القول واعلم هذا الله ان هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يصحح ولا ينتقض وهو الذي يقرب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألوانا وأزهارا عجيبه وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافق ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتقلب الطبائع عن حالاتها الى ماله ان تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه * واعلم ان البارد من الطبائع هو يبس الاشياء ويعتد رطوبتها والحر منها يظهر رطوبتها ويعتد يبسها وانما أفردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما صاحبه تحدث الاجسام وتتكون وان كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحر هو عملة الحركة ومتى ضعفت عمله الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما أنه اذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برداً حرقته وأهلكته فن أجل هذه العلة احتيج الى البارد في هذه الاعمال ايقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء الا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانساف واخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتهما وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فانما علمهم انما هو مع التمارق واليه يصير آخر اقل ذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء انما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه الا قهرته الآفة وأهلكته واعلم ان الحكماء كلها ذكروا ترداد الارواح على الاجساد مرارا ليكون ألزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هي باشرت عند الالفه أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه * ولنقل الآن على الجذر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست بحاجة الى استقصائها ومناظرة أهلها عليهم لان الكلام بطول جدا وقد قلت فيما تقدم ان العمل يكون في كل شيء بالقوة لان الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فتريد ان تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقص الى ما قاله الحراني ان الصبغ

كله أحد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الابيض حتى يحول فيه وهو مضاعف منتقض التركيب والصبغ الثاني تقيب الجوهر من جوهر نفسه الى جوهر غيره ولونه كتقلب الشجر بل التراب الى نفسه وقلب الحيوان والنبات الى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا ولا يكون الا بالروح الحى واليك ان الفاعل الذي له توليد الاجرام وقلب الاعمى فاذا كان هذا هكذا فنقول ان العمل لا بد ان يكون اما في الحيوان واما في النبات وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتعامهما فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه واما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك ان المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شيء هو اظف منه الا ان يعكس راجعا الى الغلظ وأنه أيضا لا يوجد في العالم شيء تتعاقب به الروح الحية غيره والروح اظف ما في العالم ولم تتلق الروح بالحيوان الا بمساكنها فاما الروح التي في النبات فانها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة اظف من الروح الكامنة كثيرا وذلك ان المتحرك كونهما قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري اذا قيست بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل اذا عرف ذلك ان يجرب ما كان سهلا ويترك ما يصحش فيه عسرا * واعلم ان الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الالتهات التي هي الطبائع والحديشة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساما حية وأقساما ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وسموا ذلك في جميع الاشياء وفي الاجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطيرو ويشتعل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فاما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعة حيا وما لم يتفصل سموه ميتا ثم انقسم طلبوا جميع الاقسام الحية فلم يجدوا الوفاق هذه الصناعة مما يتفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الجذر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخططها ثم تفصل بعد ذلك فاما النبات فنه ما يتفصل ببعض هذه الفصول مثل الاشنان واما المعادن ففيها أجساد وارواح وانفاس اذا مزجت ودبرت كان منها ماله تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع

وتدبيره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده
 أنا بيننا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو أرفع منه كالنبات من
 الأرض وإنما كان النبات أرفع من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي
 وجده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقّة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات
 في التراب وبالمثل فإنه ليس في الحيوان شيء يفصل طبائع أربعاء غيره فافهم هذا القول
 فإنه لا يكاد يخفى الأمل جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر
 وأعلمت جنسه وأنا بينك وجوه تدابير حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من
 الانصاف أن شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) هذا الحجر الكريم فاودعه القرعة
 والانبى وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد
 والروح والنفس والصبيغ فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارتفع كل
 واحد في أناته على حدة وخذ الهابط أسفل الاناء وهو الثقل فأغسله بالنار الحارة حتى
 تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفافه ويبيضه تبيضا محكما وطير عنه فضول
 الرطوبات المستحثة فيه فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم
 اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها ايضا من السواد والتضاد وكرّر عليها
 الغسل والتصعيد حتى تطف وتترق وتصفو فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فأبدأ
 بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين
 فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التسمية والحقق حتى
 يختلط بعضه ببعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء
 فعند ذلك يقوى الغليظ على امسالك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصلب
 عايمها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديب فيها وإنما وجد ذلك بعد
 التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح ما زجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في
 بعض لتساكها فصار شيئا واحدا ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح
 والفساد والبقاء والنبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا
 امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤه بهما بجميع أجزائه
 الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة
 الجزء الكلي الذي سلت طبائعه وانفقت أجزاؤه فإذا بقي هذا المركب الجسد المحمول
 وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن
 شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فإذا أرادت النار التعلق بهما منعهما من
 الاتحاد بالنفس مما زجه الماء لها فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا وكذلك

الماء من شأنه النور فاذا ألححت عليه النار وأرادت تطهيره حسبته الجسد
 الملبس الممازج له في جوفه فذعه من الطيران فكان الجسد علة لامس الماء والماء
 علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبيغ والصبيغ علة لظهور الدهن واطهار
 الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا
 يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سميتها الحكمة بيضة وأياها
 يعنون لا بيضة الدجاج * واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها
 ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوما وليس عنده غيري فقلت لها أيها الحكماء القاضل أخبرني
 لأي شيء سميت الحكماء مركب الحيوان بيضة أختاروا منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه
 فقال بل لمعنى غامض فقلت أيها الحكماء وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال
 على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتهما من المركب فكفر فيه
 فإنه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مضكرا لا أقدر على الوصول إلى معناه فلما رأى
 ما مني من الفكر وان نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي
 يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال
 ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوى عقلي على فهمه فنهضت شاكر الله عليه
 إلى منزلي وأتت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعه لك
 في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب إذا تم وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى
 ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة
 من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الأخريان الأرض والماء فأقول إن كل شيئين
 متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل اسطح البيضة هزوح
 فإذا أردنا ذلك فأننا أخذنا قل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة ونضيف اليها مثالا
 من طبيعة الرطوبة ونذكرهما حتى تشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل
 قوتها وكان في هذا الكلام رمز ولكن لا يخفى عليك ثم تحمل عايمها جميعا مثلها
 من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من
 طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة
 بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطية بسطح المركب
 طبيعتين فتجعل أول الضلعين المحيطين بسطح طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما
 ضلعا ح د وسطح أ ب يحد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء
 والهواء ضلعا ه ز و فاقول إن سطح أ ب يحد يشبه سطح ه ز و طبيعة الهواء التي تسمى
 نفسا وكذلك ب ج من سطح المركب والحكماء لم تسم شيئا باسم شيء إلا لشبهه به

والكلمات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة وهي المتقدمة من الطائع العلوية
والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم جرب الزاج حتى صار
نحاسيا والمغنيب ما جبرهم الذي تجدد فيه الأرواح وتخرج الطبيعة العلوية التي
تستجيب فيها الأرواح لتقابل عاينها الذوار والفرقة لون أحمر فان يحدثه الكيان والرماس
حجره ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية
نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أعظم من
الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز
الأرض ثقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيط بها سما وأماسا
الباقية فتبدع ومخترة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها
* فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك مفسرا وزجوا بتوفيق الله أن تبلغ
أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة الجربيطي شيخ الأندلس
في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده * وأنت ترى كيف
صرف ألقاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والالغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف
وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذي يجب أن يعتد في أمر الكيمياء
وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصر فيهما في
عالم الطبيعة أما من نوع الكرامة أن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر أن كانت
النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان
تحقيقه بقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع
فعله السحري فيها كتحليل بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة
من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصى وكما ينقل عن
سحرة السودان والهنود في قاصبة الجنوب والترك في قاصبة الشمال أنهم يسحرون
الجول للمطار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخلق للذهب في غير مادته الخاصة به
كان من قبيل السحر والمتكاملون فيه من اعلام الحكمة مثل جابر ومسلمة ومن كان
قبلهم من حكماء الامم انما نحو هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه الغارازا حذرا
عليهم من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو
رأى من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمي مسلمة كاتبة فيها رتبة الحكيم
وسمي كاتبة في السحر والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية
وخصوص موضوع هذه لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من
مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في القين يبين ما قلناه ونحن نبين

فما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية والله العالم الخبير

٢٥ (فصل في ابطال الفلاسفة ونسبهم)

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها
في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قوما
من عقلاء النوع الانساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك
ذواته وأحواله بأسبابها وعلاها بالانظار الفكرية والاقبسة العقلية وأن تصحيح
العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانهم بعض من مدارك العقل وهو لا
يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فيمنعوا عن ذلك
وشمروا له وحوموا على أصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يهتدى به العقل في نظره
إلى التمييز بين الحق والباطل ومحموه بالمنطق وحصل ذلك أن النظر الذي يقيد تمييز
الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجترد
منها أولا صوراً منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي
ترسمها في طاب أو شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل ثم تجترد
من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معاني أخرى وقد تميزت عنها في
الذهن فتجترد منها معاني أخرى وهي التي اشتهرت بها ثم تجترد ثانياً ان شأركها غير
وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني
والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الاجناس العلية وهذه المجردات
كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها
تسمى المعقولات النوانى فاذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطالب تصور
الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها إلى بعض ونقي بعضها عن بعض بالبرهان
العقلي اليقيني ليحصل تصوراً للوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً اذا كان ذلك بقانون صحيح
كما مر وصنف التصديق الذي هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف
التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لأن التصور التام عندهم
هو غاية الطلب الادراك وانما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من
تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو
مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون أن السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس
وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين * وحاصل مداركهم في الوجود على
الجملة وما آلت اليه وهو الذي فرغوا عليه قضايا انظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم

السقلى بجمهم الشهود والحس ثم ترق ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقطوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كالألوان ثم انهوا ذلك نهاية عدد الاحاد وهى العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أقل مفرد وهو العاشر ويرغمون أن السعادة فى ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخليتها بالفضائل وان ذلك ممكن للانسان ولولم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى الحمودة بها واجتنابه للمذموم بقطرته وان ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمضى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة الى خبط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذى حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الاحقاب هو ارسطو المقدونى من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندرو ويسمونه المعلم الاقل على الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو أقل من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن فى ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم فى الالهيات ثم كان من بعده فى الاسلام من اخذ تلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا فى القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى الى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضل الله من متخلى العلوم وجادلوا عنها واختلفوا فى مسائل من تقاربها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى فى المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو على بن سينا فى المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه باصبيان وغيرهما * واعلم أن هذا رأى الذى ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه فأما أسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاقل واكتفاءهم به فى الترقى الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خالق الله فالوجود أوسع نطاقا من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكانهم فى اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم فى حكمة الله شئ وأما البراهين التى يزعمونها على مدعياتهم فى الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافية بالغرض أما ما كان منها فى الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعى فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية

التي تستخرج بالحدود والاقبسة كما فى زعمهم وبين ما فى الخارج غير يقينى لان تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بما وادها ولعل فى المواد ما يمنع من مطابقة الذهنى الكلى للخارجى الشخصى اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لان تلك البراهين فأين اليقين الذى يجذونه فيما وراء ما يكون تصرف الذهن أيضا فى المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لافى المعقولات الثوانى التى تجردها فى الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينا بمثابة المحسوسات اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم فى ذلك الا أنه ينبغى لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم ما لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمنا فى ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها * وأما ما كان منها فى الموجودات التى وراء الحس وهى الروحانيات ويسمونه العلم الالهى وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة رأسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نتجردهم منها ما هيئات أخرى بحجاب الحس يتناوب بينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا فى اثبات وجودها على الجملة الا ما نبجده بين جنسين من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصا فى الرؤيا التى هى وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقته واصفاتها فأمر غامض لا سبيل الى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرهم افلاطون ان الالهيات لا يوصل فيها الى يقين وانما يقال فيها بالاحق والاولى بمعنى الظن واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فكيف لنا الظن الذى كان أولا فإى فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنايتها بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هى غاية الافكار الانسانية عندهم وأما قولهم ان السعادة فى ادراك الموجودات على ما هى عليه تلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره أن الانسان مركب من جزأين أحدهما جسمانى والاخر روحانى فمتزج به ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فىهما واحد وهو الجزء الروحانى يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية الا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك قلها يحتاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي فى أقل مداركه الجسمانية التى هى بواسطة كيف يتتبع بما يصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك أن الابتاهج بالادراك الذى للنفس من

ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية إذا شعرت بأدراكها الذي لها من
ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم
وانما يحصل بالكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا
ما يعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة إمامة
القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها
من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها
وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير وافي بمقصودهم فأما قولهم ان
البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما
رأيتهم إذا البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من
الخيال والفكر والذكرون نحن أول شئ نغني به في تحصيل هذا الإدراك إمامة هذه القوى
الدماغية كلها لانها منازعة له قاذرة فيه وتجدد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء
والإشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد للنفس من تأليف أرسطو وغيره يغير أوراقها
ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من
الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينتقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من
حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظ من هذه السعادة
والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة يتكشف عنها الحس من رتب الروحانيات
ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلي وقد رأيت فساد وانما يعنى
أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك الإدراك النفس الذي لها من ذاتها بغير
واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس وأما قولهم ان البهجة الناشئة عن هذا
الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضا لاننا نمتصين لنا بما قرروه أن وراء
الحس مدرك آخر للنفس من غير واسطة وانما يتبعها بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا
وذلك لا يعنى لسانه عين السعادة الاخرية ولا يتبدل هي من جملة الملائكة لتلك
السعادة وأما قولهم ان السعادة في ادراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل
مبنى على ما كفاه مناه في أصل التوحيد من الأوهام والاعلاط في أن الوجود عند
كل مدرك منحصر في مداركه ويناقض ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به
أو يستوفى ادراكه بجملة روحانياً وجسمانياً والذي يحصل من جميع ما قررناه من
مذاهبهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى الجسمانية أدرك ادراكا ذاتيا له مختصا
بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعمام الإدراك في
الموجودات كلها اذ لم تنحصر وانه يتبع بذلك النجوم من الإدراك ابتهاجا شديدا كما

يتبع الصبي بمداركه الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بأدراك جميع الموجودات
أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيئات المأثرون
وأما قولهم ان الانسان مستقل بتذيق نفسه واصلاحها بما لبسه المحمود من الخلق
ومجانبة المذموم فأمر مبنى على أن ابتهاج النفس بأدراكها الذي لها من ذاتها هو عين
السعادة الموعود بها لان الراتل عائدة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من
الملكات الجسمانية والوانها وقد بينا ان أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات
الجسمانية والروحانية فهذا التذيق الذي توصلوا الى معرفته انما تنفعه في البهجة
الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك
من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والاخلاق
فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب
المبدل والمعاد ما معناه ان المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية
والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما
المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد
بسطه لنا الشريعة الحقة المحمدية فليتنظر فيها ولترجع في أحواله اليها فهذا العلم كما
رأيتهم غير وافي بمقاصدهم التي حوتموا عليها مع ما فيه من مخافة الشرائع وظواهرها
وليس له فيما علمنا الاثرة واحدة وهي شخص الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل
ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك ان نظم المقاييس وتركيبها على وجه
الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية
وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكيمة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها
فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب
في الحجج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من
قوانين الانتظار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم
ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظره من ينظر فيها
بعيد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكتفي أحد عليها وهو
خوف من الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي
اليه وما كنا نبتدى لولا أن هذا الله

(فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها ونماذجها)

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها

من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ما يحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلية والخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها الواجتماع عن تحصيله اذا التجربة انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طوي بل الزمن فيحتاج تكرره الى آما دواحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضاه منهم الى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحى وهو رأى فائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الادلة فيه أن تعلم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الآن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك انابهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لان فعل النيران وأثرهما في العنصر يات ظاهرا لا يسع أحد اجده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمر جنتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القضاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الاولى التعليل بلن نقول ذلك عنه من أئمة الصناعة الا أنه غير مقنع للنفس الشائبة الحسد والتجربة بقياس كل واحد منها الى النيران الاعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فنظروا هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفناهما مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا الى النيران الاعظم واذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهمي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات وتخلق به النطف والبذر فتصير حال البدن المتصكون عنها والنفس المتعلقة به القاضية عليه المكتسبة لما هان منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لان كفيات البزرة والنطفة كفيات لما يتولد منهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظنى وليس من اليقين في شئ وليس هو أيضا من القضاء الالهى يعنى القدر انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن والقضاء الالهى سابق على كل شئ هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن

أو الظن به انما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرره انما هي فاعله فقط والجزء العنصرى هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملة قابل هناك قوى أخرى فاعله معها في الجزء المادى مثل قوة التوليد للاب والنوع التى في النطفة وقوى الخاصة التى تميزها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا حصل كمالها وحصل العلم فيها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم انه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها من يد حسد وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحسد والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فاذا فقد هذا الحسد والتخمين رجعت ادراجها عن الظن الى الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداد ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لادليل عليه ومدرك بطليموس في اثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها والنقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها فادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد أن لافاعل الا الله بطريق استدلالى كما رأيت واجتله أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الاسباب الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضى به فيما يظهر يادى الرأى من التأثير فلعل استدلاله على غير ضرورة التأثير المتعارف والقدرة الالهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع برذ الخواص كلها الى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك فمثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوحه كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الانسانى بما تعث في عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها في بعض الاحايين اتفقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلهم بذلك من لا معرفة له ويطن اطراد الصدق في سائر احكامها وليس كذلك فيقع في رذ الاشياء الى غير خالفها ثم ما ينشأ عنها كثيرا

في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيبتغي السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وان كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحد من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظرها ناظر وظن الا حاطة بهم اقبه في غاية القصور في نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الاقل وأقل من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتهم في كسريته متتراعن الناس وتحت ربة الجهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتناصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت ما خذوه من الكتاب والسنة وعكف الجهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المداينة وكثرة المجالس وتعدد ما انما يحذف فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والاحيال فكيف يعلم بمجور الشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم ~~م~~ تقوم عن الجهور صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لاصوله وفروعه الى مزيد حدس وتحنين يكتنفان به من الناظر فآين التحصيل والخذ في مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبيه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفرق بين أهل الملة وقلة جلته فاعتبر ذلك تبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عند ما غلب العرب عياكر السلطان أي الحسن وحاصروهم بالقيروان وكثرا وجاف الفريقين الاولياء والاعداء وقال في ذلك أبو القاسم الرواحي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين * قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسى * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنيا * يحدتها الهرج والوباء
والناس في مريبة وحرب * وما عسى يتقع المرء
فاحمدى ترى عليا * حل به الهلك والتواء
وأخر قال سوف يأتي * به اليكم صبارخاء

والله من فوق ذار هذا * يقضى لعبديه ما يشاء
ياراصد الخفس الجوارى * ما فعلت هذه السماء
مطلتنا وناوقد زعمتم * أنكم اليوم أملياء
مترجيس على خيس * وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثمان * وثالث ضمه القضاء
ولا ترى غير زور قول * أذاك جهل أم ازدراء
انا الى الله قد علمنا * أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي الهيا * حسبكم البدر أوكاء
ما هذه الانجم السوارى * الا عباد يدأ واماء
يقضى عليها وليس تقضى * ومالها في الورى اقتضا
ضلت عقول ترى قديما * ما شأنه الحرم والفتاء
وحكمت في الوجود طبعها * يحده الماء والهواء
لم تر حبالوا ازاء مر * تغذوه موترة وماء
الله ربي وليست أدري * ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهبول التي تنادى * مالى عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام * ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدري ما الكسب الا * ما جلب البيع والشراء
وانما مذهبي وديني * ما كان والناس اولياء
اذلا فصول ولا أصول * ولا جدال ولا ارتيا
ماتبع الصدر واقفيننا * يا حبيذا كان الاقتفاء
كانوا كما يعلمون منهم * ولم يكن ذلك الهذاء
يا أشعري الزمان انى * أشعري الصيف والشتاء
أنا أجرى بالشر شرا * والخير عن مثله جزاء
وانى ان أكن مطيعا * فرب أعصى ولى رجا
وانى تحت حكم بار * أطاعه العرش والبراء
ليس باستطاركم وكن * أناحه الحكم والقضاء
لو حدثت الاشعري عن * له الى رأيه انتماء
فقال أخبرهم بأنى * مما يقولونه براء

٢٧ (فصل في انكار ثمة الكيمياء استعمال دواءها وما ينشأ من المفاسد عن استعمالها)

اعلم ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم يحملهم المطامع على اتحال هذه الصنائع ويرون انها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الاموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخر اذا ظهر على خيبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وانما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيها ولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون أنهم من تمكثات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج السحابة عندهم بالجر المكرم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تعي بالفهر على حجر صلد أملس وتسمى أثناء امهاتها بالماء بعد أن يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكسر لاستخراج ماؤها أو ترابها فإذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعة حصل من ذلك ككل تراب أو مائع يسعونه الا كسروا يزعمون أنه اذا ألقى على الفضة المحمأة بالنار عادت ذهباً والنحاس المحمى بالنار عادت فضة على حسب ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم أن ذلك الاكبر مادة مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومن اجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالجيرة للخير تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعا الى الغذاء وكذا اكبر الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه اليها ويقلبه الى صورتها هذا يحصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يتغنون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لا تفي الصنعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها ذهبي في الاكثر تشبه المعنى كآليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة الجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي والمغبري في قصائده العريضة في اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعده هذا كله بطائل منها * فاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلغيني كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده الى وقال لي وأنا الضامن له

أن لا يعود الى بيته الا بالخبية ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطها على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة أو الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد فيجىء جسمها معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الاعلى النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلتهم هذه سكة يسرونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهها على الجمهور بالخلاص وهو لا أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أشتر من السارق ومعظم هذا الصنف لا دين بالمغرب من طلبه البربر المنتبذين باطراف البقاع ومساكن الانغمار بأوون الى ما جدد البادية ويعتقون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مواعنة بحمها والاستهلاك في طلبها فيفصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة الى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفترقون الى موضع آخر ويستجدون حالا أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلمهم الا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهر واعلى شأنهم لان فيه افساد اللسكة التي تعم بها البلوى وهي مقول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من اتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استكشف عنها وزنه نفسه عن افساد سكة المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والتزديرا الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالاكسيرا الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع اننا لانعلم أن أحدا من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية انما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها وتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستمائها والمفاوضة فيها ولا يستغيثون في تصديقها شأن الكافين المغربيين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعابة أنكروه وقالوا انما سمعنا ولم نره كذا انما نهم في كل عصر وجيل واعلم أن اتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم تلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الامر في نفسه منقول ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة

المنظرة وهي الذهب والفضة والرماس والقزدير والنحاس والحديد والخارصين
هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو أنها مختلفة بخواص من
الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه
عليه حكاه الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة
واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها
أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكاه المشرق
أنها مختلفة بالفصول وأنما أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته
له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالأنواع
امكان انقلاب بعضها إلى بعض لا مكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة
فإن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبني أبو علي ابن سينا
على مذهبه في اختلافها بالأنواع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن
الفصل لا يسيل بالصناعة اليه وإنما يخلق خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل
والفصول مجتمعة للحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه
الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج
ليس في تخلق الفصل وابداعه وإنما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي
من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يقض النور على الأجسام بالقل والامهات
ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفة قال وإذا كان قد عثرنا على تخلق بعض
الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتن ومثل الحيات المتكونة
من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل
البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الطلق وتصديره سكرًا بحشو القرون بالعسل
بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة
فتتخذ مادة تصيرها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب
والفضة ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام
الطغرائي بعينه وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه
الصناعة مأخذ آخر تبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي
ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة
بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ومحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة
في الجسم المعدني حتى أحالة ذهبا أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعله لئلا يتم في
زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن

الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا
تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على
ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة من اجية لتلك المادة تصيرها كالخبرة
فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في حالته وذلك هو الأيسر على ما تقدم *
واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على
نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب
على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة
لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين
من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلاقة ثم
المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته ونسب الأجزاء
في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والالكان الطور بعينه الأول هو الآخر
وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر إلى الذهب
ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال
فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه
إلى أن يتم ومن شرط الصناعة أبدأ تصور ما يقصد إليه بالصنعة في الأمثال السائرة
للمحكم أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه
الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحارة
الغريزية عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى
المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعدل بعض
المواد صورة من اجية تكون كصورة الخبرة للخبر وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها
ومقاديرها وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما
حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعى بالصنعة تخلق إنسان
من المني ونحن إذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحم
وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخلق هذا الإنسان
وأني له ذلك * ولنتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة
الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي
ومحاذاة لها إلى أن يتم ككون الجسم المعدني أو تخلق مادة بقوى وأفعال وصورة
من اجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه إلى صورته وأفعال الفعل الصناعي
مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها ومحاذاة أفعالها

المادة ذات القوى فيها تصور مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لانهاية لها
والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بمادونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان
أو حيوان أو نبات هذا المحصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه
من جهة الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها
وما ذكره ابن سينا بعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن
حكمة الله في الجبرين وندورهما انهما قيم لمكاسب الناس ومقولاتهم فلو حصل عليهم ما
بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما
على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو ان الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في أفعالها
وترتكب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح
وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معديها وأقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها
الذي سلكته في كون النضة والذهب وتخليقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما
عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فامر صحيح
في هذه أدنى اليه العثور كما زعم * وأما الكيمياء فلم يقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها
ولا على طريقها وما زال متحلوها يخبطون فيها خبط عشواء الى هلم جرا ولا ينظفرون
الابالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده وتلميذه وأصحابه
وتنقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى أن يتشروا يبلغ السنا أو الى
غيرنا وأما قولهم ان الاكسير بمثابة الخمرة وانه مركب يحيل ما يحصل فيه
ويقلبه الى ذلك فاعلم أن الخمرة انما تلبس العجين وتعد لهضم وهو فساد والفساد في
المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى
ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا
يقاس الاكسير بالخمرة وتحقيق الامر في ذلك أن الكيمياء ان صح وجودها كما تزعم
الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست
من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بامر صناعي وليس كلامهم فيها من مني
الطبيعات انما هو من مني كلامهم في الامور الخيرية وسائر الخوارق وما كان من
ذلك للعلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة
الحكيم من هذا المنهى وهذا كلام جابر في رسالته ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة
بنا الى شرحه وبالجمله فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما
لا يتدبر مامنه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشب أو حيوانا فيمعدا محجرا تخليقه
كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا برفاد عما

وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله
وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نيلها ان كان صحيحا فهو واقع
بما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف
الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء الخارقة للمادة أو مثل تخليق الطير ونحوها
من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير اذني فتنفخ فيها فتكون
طيرا يا ذني وعلى ذلك فسيل نسييرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما أوتيتها الصالح
ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيتها الصالح ولا يملك ايتاءها فلا تتم في يد غيره
ومن هذا الباب يكون عملها هريا فقد تبين أنها انما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق
العادة اما معجزة أو كرامة أو سحرا ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغار لا ينظر
بحقيقة الامن خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة
وأمر خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط
وأكثر ما يحصل على التماس هذه الصناعة واتحاليها هو كما قلناه العجز عن الطرق
الطبيعية للمعاش واستغاؤه من غير وجودها الطبيعية كالقلاحة والتجارة والصناعة
فبستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه
غير طبيعية من الكيمياء وغيرها وأكثر من يعني بذلك الفقراء من أهل العمران حتى
في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان
عليه الوزر ان كان من أهل الغنى والثروة والقار الى القائل بامكانها كان من أهل
الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه وهذه تهمه ظاهرة في انظار النفوس
المولعة بطرقها واتحاليها والله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه

٢٨ (فصل في ان كثرة التأليف في العلوم مانعة عن التحصيل)

(اعلم) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف
واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعبد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار
ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها
ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور
ولا بد دون رتبة التحصيل ويعمل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب
المدونة مثلا وما كتب عليه من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللحني
وابن بشير والتنبهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العينية وكذلك كتاب ابن
الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تغيير الطريقة القير وانية من القرطبية

والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحيتئذ يسلم له منصب انشأ وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقض في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعليم على المسائل المذهبية فقط لكان الامر بدون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا وما أخذه قريبا ولكن عدا لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيدي به وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقض عمره دونه ولا يطعم أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل ما وصل اليه بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيدي به وابن جني وأهل طبقة العظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيما مع ما قد مناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله بؤيته من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والافالظاها أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يني له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

٢٩ (فصل في ان كثرة الاختصار است الموافقة في العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم ولعلهم يولعون به او يدقنون منها برناجما مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعالي الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالابلاغة وعسرا على الفهم وربما عدوا الى الكتب الاتهامات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها وتقريب الحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلاخل بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطا على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتبع الفاظ الاختصار العويصة للنهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لان ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حفظ صالح

عن الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المقيدين لحصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فارتكبوا بهم مع ما يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتذكروا ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ (فصل في وجوب الصواب في تعليم العلوم وطريق انفاذ)

(اعلم) أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا أنها جريئة وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فيجود ملكته ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويضا ولا مهما ولا متعلقا الا وضح وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم واذا رته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقلدة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراعاة على التعليم وصوابا فيه ويكافونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعداقهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حيثئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتغادى في هجرته وانما

أنى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو متنبهاً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل اغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينقدق غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما فى علم من العلوم استعديها لقبول ما يلقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويترس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدى من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم فى الفن الواحد بتقريب المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبية للنيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات انما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلغلان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخلية وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر عليه فربما كان ذلك أجدر بنحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

(فصل) واعلم أيها المتعلم أنى أتحدثك بفائدة فى تعلمك فان تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك فى فهمها وذلك ان الفكر الانسانى طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو وجدان حركة النفس فى البطن الاوسط من الدماغ تارة يكون مبدأً للأفعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأً لعلم ما لم يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد تصور طريقه ويروم نفيه أو اثباته فيلوح له الوسط الذى يجمع بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحداً وينتقل إلى تحصيل آخر ان كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التى تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هى كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لأنها وان كان الصواب لها ذاتياً الا أنه قد يعرض لها الخطأ فى الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهم من اشتباه الهيئات فى نظم القضايا وترتيبها للنساج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد

إذا عرض فالمنطق إذا أمر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمر اصناعياً استغنى عنه فى الأكثر ولذلك تجد كثيراً من خول النظر فى الخليفة يحصلون على المطالب فى العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فان ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضى بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الالفاظ ودلائلها على المعانى الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر فى مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المقولة وهى أخفها ثم دلالة الالفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالها المعروفة فى صناعة المنطق ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر اشتراطاً يقتضيهما المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب فى التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن فى حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر فى اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكدي تخصص من تلك الغمرة الا قليلاً ممن هداه الله فاذا التبت بمنزل ذلك وعرض لك ارتباطك فى فهمك أو تشعب بالشبهات فى ذهنك فاطرح ذلك واتبذ حجب الالفاظ وعوائق الشبهات واترك الأمر الصناعى بجملة واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعى الذى فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه لافوص على مرامل منه واضعها حيث وضعها أكبر النظائر بملك مستعرض الفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمة وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فاذا فعت ذلك أشرق عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الامام الوسط الذى جعله الله من مقتضيات هذا الفكر ونظيره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به إلى قوال الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعى ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان * وأما ان وقفت عند المناقشة والشبهة فى الأدلة الصناعية وتحميص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وضعية تستوى جهاتها المتعددة وتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تميز جهة الحق منها أذ جهة الحق انما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتباب وتسدد الحجب على المطلوب وتبعد الناظر عن تحصيله وهذا شأن الأكثرين من النظائر والمتأخرين سيما من سبق له عجمة فى لسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب

له فاعتقد أنه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع في الخيرة بين شبه الادلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى درك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعي كما قلناه انما اجرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رجة الله تعالى وأما المنطق فانما هو واصف افعل هذا الفكر فيساووقه لذلك في الاكثر فاعتبر ذلك واستمطر رجة الله تعالى متى أعوز لفهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادي الى رجه وما العلم الا من عنده

٣١ (فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الا نظار ولا تفرع المسائل)

(اعلم) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والانهيآت من الفلسفة وعلوم هي آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكانطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل واستكشاف الادلة والانظار فان ذلك يزيد طاعتها في ملكته وايضا حلالها منها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغيرة فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك يخرج لها عن المقصود اذا المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها الغوامع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا عما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النجوم وصناعة المنطق وأصول الفقه لانهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي ايضا مضررة بالمعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فهي يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستجروا في شأنها وينهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عندهم فنزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليبرق له ما شاء من المراتى صعبا وسهلا وكل ميسر لما خلق له

٣٢ (فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الاصهار الاسلامية في طرق)

(اعلم) أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من روح الايمان ويقائمه من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه واختلاف طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلاف فهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المداينة بالرسم ومسائله واختلاف جهة القرآن فيه لا يحدون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لامن حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذف فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مذاكرة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الاندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تقتصر عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شذبا بعض الشيء في العربية وأشعروا بالبصر بها وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم وأما أهل افرقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان آياته ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواهم وعنايتهم بالخط تسبغ لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الاندلس لان سند طريقهم في ذلك متصل بشيخة الاندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على

نشق الاندلس واستقر واتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك وأما أهل المشرق
فيخلطون في التعليم كذلك على ما يلغوا ولا أدري بم عنيتهم منها والذي ينقل انسان
عنيتهم بدراسة القرآن وحفظ العلم وقوانينه في زمن الشيعة ولا يخلطون بتعليم الخط
بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلوم له على انفراد كما تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها
في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الاواح فخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط
فعلى قدر ما ينسخ له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويتقيه من أهل صنعة فأما أهل
افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان بجملة وذلك
أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم
مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بهما وليس لهم ملكة في غير
أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقلة
التصرف في الكلام وربما كان أهل افريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما
يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من
التصرف ومحاذاة المثل بالمثل الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر
محفوظهم عبارات العلوم انما زلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله وأما أهل الاندلس
فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارس العربية من أول
العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم ابعدهم
عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل حظ
وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب
القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته الى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد
في ذلك وأبدأ وأقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الاندلس
قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد
اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس
القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال وباعفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي
بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه ثم قال ينظر في
أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط في
التعليم علما الآن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه
القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي
أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن اشارة للتبرك
والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم

فيفوته القرآن لانه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة
القهر فربما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة فيفتنون في زمان الحجر
وربة الحكم تحصيل القرآن لتلايذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب
العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب
والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه

٣٣ (فصل في ان الشدة على المتعلمين مضر بهم)

وذلك أن اوهاف الحدة في التعليم مضر بالتعلم سيما في أصغر الولد لانه من سوء الملكة
ومن كان مربيا بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطايه القهر وضيق
على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاها الى الكسل وحمل على الكذب
والخبيث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعمله
المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا فسدت معاني الانسانية التي له من
حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيا الا على غيره في
ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجليل فانقبضت عن غايتها
ومدى انسايتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في
قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة
الكافلة له رفيقة به وتجذب ذلك فيهم استقراء وانظروا في اليهود وما حصل بذلك فيهم من
خلق السوء حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح
المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده
أن لا يستبدوا عليهم في التأديب وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم
المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على
ثلاثة أسواط شيئا ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصا على
صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماء بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملاك
له فانه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد للمعلم ولده محمد
الامين فقال يا أحرار أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمر قلبه فمير يدك عليه
مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعزقه
الاخبار وروقه الاشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدنه وامنع من
الضحك الا في أوقانه وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس
القواد اذا حضر واجلسه ولا تترن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيدها بها من غير

أن تحزنه فتمت ذهنه ولا تعنى في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت
بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشد والغلظة انتهى

٣٤ (فصل في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء الشيخ مريد كمال في التعلم)

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون بحرفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب
والفضائل تارة علما وتعلما وانقاء وتارة محاسبة وتلقينا بالمباشرة الآن حصول
الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكا ما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ
يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلفة على
التعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزم من العلم ولا يدفع عنه ذلك المباشرة
لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز
الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجوز العلم عنها ويعلم أنها انحاء تعليم
وطرق توصيل وتنهض قواء الى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصح معارفه
ويعجزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند
تعدد ههم وتنوعهم وهذا من يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في
طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من
يشاء الى صراط مستقيم

٣٥ (فصل في ان العلماء من ين البصر بعد عن البيات ومذاهبها)

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني واتزانها من
المحسوسات وتجربتها في الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص
مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبّقون من بعد ذلك الكلي
على الخارجيات وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس
الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ
من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يفرّغ ما في الخارج عما في الذهن
من ذلك كالأحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة
فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الانظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها
مطابقة ما في الخارج فهم معتادون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والانظار
الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها
من الأحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من الخافها بشبه أو مثال
ويتأني الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من أحوال العمران على

الآخر

الآخر إذ كما اشتبه في أمر واحد فلعلمهما اختلاف في أمور فكون العلماء لاجل
ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضهم على بعض إذا نظروا في السياسة
أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن
عليهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بشقوب
أذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في
الغلط والعامى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده
ايه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الأحوال والانحصاص على ما يختص
به ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة
ولا يجاوزها في ذهنه كالسائح لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر
فلا توهلن اذا ما سبحت * فان السلامة في الساحل

فيكون مأموئنا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملته أبناء جنسه فيحسن
معاشه وتزدفع آفاته ومضارته باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا يتبين
أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبمدها عن المحسوس
فانها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمنع تلك الأحكام وينافيها عند
مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الاول وهي التي تجردها قريب
فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤدنة بتصديق انطباقه والله
سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٦ (فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم)

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم لامن العلوم
الشرعية ولامن العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبته
فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيجته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي
والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لغتضي أحوال السذاجة
والبداءة وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها
في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع
وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا
اليه ولا دعته اليه حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون
المختصين بجمع ذلك وتعلمه القراء أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أئمة لان الأئمة
يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرفا بقليل لجملة القرآن يومئذ قراء إشارة الى

هذا فهم قراء الكتاب الله والسنة الماثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية
الامنه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره وشرح قال صلى الله عليه وسلم
زكت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن
دولة الرشيد فبعد احتيج الى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه
ثم احتيج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقين للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم
كثر استخراج احكام الوقائع من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك الانسان فاحتيج
الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات
والاستخراج والتتطير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة
قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة
الكثيرة لبدع والاحاد فصارت هذه العلوم كلها علوم اذات ملكات محتاجة الى التعاليم
فاندرجت في جملة الصنائع وقد كانت من ان الصنائع من متجمل الحضرة وأن العرب
أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر
لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأغل الحواضر الذين هم يومئذ
تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لانهم أقوم على ذلك للحضارة
الرايحة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحوسيبويه والفارسي من
بعده والزجاج من بعدهما وكنهم عجم في أنسابهم وانما روي في اللسان العربي
فاكتسبوه بالمرى ومخالطة العرب وصبروه قواني ونال من بعدهم وكذا جملة الحديث
الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء
أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف وكذا جملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يبق
يحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم
بأكاف السماء لزاله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة
وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه
من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى
سياساتهم ما يلحقهم من الانفة عن اتعمال العلم حيث نبصا من جملة الصنائع
والرؤساء أبدأ يستكفون عن الصنائع والمهن وما يجزأها ودفعوا ذلك الي من قام به
من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون
حلتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الامر من العرب بجملة وصار للعجم صارت العلوم
الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتن حلتها
بما يرون أنهم بعداء عنهم مستغلين بما لا يعني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما

ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن جملة الشريعة
أو عامة من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة الا بعد أن تميز جملة العلم
وموافقه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن
اتعمالها فلم يحملها الا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في
الامصار مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما
خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع
ذهب العلم من العجم جملة لما تعلمهم من البداوة واختص العلم بالامصار الموفرة
الحضارة ولا أفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وايران الاسلام وينبوع
العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء انهر لما هنالك من الحضارة بالدولة التي
فيها فلم يبق بذلك حصه من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم
في ناليف وصلت اليها الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم
فلم يزلهم من بعد الامام بن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلا ما يعول على نهايته في
الاصابة فاعتبر بذلك وتأمله ترجع في أحوال الخليفة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل
والحمد لله

٣٧ (فصل في علوم اللسان العربي)

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفة ضرورية على أهل الشريعة
اذما أخذوا احكام الشريعة كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من
الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتهم من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم
المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتفاوت في التأكيديتفاوت مراتبها في
التوفيق بمقصود الكلام حسب ما يتبين في الكلام عليها فافنا والذي يتحصل أن الاهم
المقدم منها هو النحو اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول
والمبتدأ من الخبر ولولا جهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولأن أكثر
الاضاع باقية في موضوعاتهم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند
والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة اذ في جهله
الاخلال بالنقاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم النحو)

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا

بدأ أن تصير ملكة متفتررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجزور أعني المضاف ومثل الحروف التي تقضي بالافعال الى الذوات من غير تكلف الفاظ أخرى وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من الفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول مما نقتدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم أو تيت جوامع الكلام واختصر لي الكلام اختصارا فصار للعروف في لغتهم والحركات والهيات أي الاوضاع اعتبارا في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه اصناعة يستفيدون ذلك منها انما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياته لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الجاهل طلب الملك الذي كان في أيدي الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعارفين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتبار السمع وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فيخلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكلمات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الاشياء بالاشياء مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدا مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم ففقدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة على رضى الله عنه لانه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها فنزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرة ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن انتهت الى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أخرج ما كان الناس اليها المذهب تلك الملكة من العرب فذهب الصناعة وكل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فأكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار اما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتابا مختصرة للمتعلمين يحدون فيها حذوا الامام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القديين للعرب وكثرت الادلة والججاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف

في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بعداهم في الاختصار فاقتصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له ووربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطى في الارجوزة الالفيه وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل اليها بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين ابن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الاعراب بحجته ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغنى في الاعراب وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقضنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكانه ينحوي طريقته منحة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأقن من ذلك بشي عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء

(علم اللغة)

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحوي بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استقر ذلك الفساد على لغة العجم ومخالطتهم حتى تأذى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجته المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبه في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فخص فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرابعي والخامسي وهو غاية ما انتهى اليه التركيب في اللسان العربي وتأنى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاسرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع

الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم
 بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين
 فتكون سبعة وعشرين كلمة شائبة ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم
 الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا
 فتكون كلها اعداد على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي
 بالعمل المعروف عند اهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثاني لان التقديم
 والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثلاثيات وتخرج
 الثلاثيات من ضرب عدد الثلاثيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل
 شائبة يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثلاثية بمنزلة الحرف الواحد مع كل
 واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثلاثية فتجمع من واحد الى
 ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثلاثيات ثم تضرب الخارج في
 ستة جملة قلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك
 في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف
 المعجم بالترتيب المتعارف واعتقد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الخلق ثم ما بعده من
 حروف الخلق ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف
 الهوائية وبدأ من حروف الخلق بالعين لانه الاقصى منها فلذلك سمى كتابه بالعين لان
 المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من
 الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي
 أكثر اقله استعمال العرب له لثقله ولحق به الثاني لقله دورانه وكان الاستعمال في
 الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وذهبن الخليل ذلك كله في كتاب العين
 واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد
 بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل
 كله وكثيرا من شواهد المستعمل ونحسه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهرى
 من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها
 بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس
 في الاكتر الى أواخر الكلام وحصر الالة اقصد بمحصر الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين
 ابن سيده من أهل دانية في دولة على بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنهج من
 الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم
 وتصاريفها فاجاز من أحسن الدواوين ونحسه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر

من ملوك الدولة الحفصية تونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبارا وآخر
 الكلام وبناء التراجم عليها فكانوا يسمونهم وسلي أبي رجم وسلي أبي رجم هذه أصول كتب اللغة فيما
 علمناه وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلام ومستوعبة لبعض الابواب
 أولها الآن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب
 كما رأيت ومن الكتب الموضوعة أيضا في اللغة كتاب الزمخشري في المجازين فيه
 كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف
 الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة
 ألقاظا أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج الى فقه في
 اللغة عزيز المأخذ كما وضع الايض بالوضع العام لكل ما فيه يياض ثم اختص ما فيه
 يياض من الخليل بالاشتبه ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاعلم حتى صار استعمال
 الايض في هذه كلها الخناوخر وجاعن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنهج
 الثعالبى وأقرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكدم ما يأخذ به اللغوي نفسه أن
 يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاوّل بكاف في التركيب
 حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب في فن نظم
 ونثره حذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد
 من اللحن في الاعراب وأخف وكذلك ألف بعض المتأخرين في الالفاظ المشتركة
 وتكفل بمصرها وان لم تبلغ الى النهاية في ذلك فهو مستوعب لا أكثر وأما المختصرات
 الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلات لحفظها
 على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والقصص للعلب وغيرهما وبعضها
 أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الالفاظ على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم
 لأرب سواه

(علم البيان)

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق
 بالالفاظ وما تفيد ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الامور التي يقصد
 المتكلم بها افادة السامع من كلامه هي اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ويقضي
 بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال والحروف وأما
 غير المسندات من المسند اليها والازمنة ويندل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب
 وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحويين من الامور المكتشفة بالواقعات

المحتاج للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج
إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في
كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فإن كلامهم واسع
واكمل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد
جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فن قال
جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالجحي قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد
أن اهتمامه بالشخص قبل الجحي المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام
من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وإن
زيد قائم وإن زيد القائم متغيرة كلها في الدلالة وإن استوت من طريق الاعراب فإن
الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الحالى الذهب والثاني المؤكد يان يفيد المتردد
والثالث يفيد المنكرف هي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه
جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم
الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا وإنشائية وهي التي
لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قديت عن ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل
من الاعراب فيشترط بذلك منزلة السابع المفرد نعمتا وتوكيداً وبدلاً بلا عطف أو يتعين
العطف إذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضي المحل الاطناب والايجاز فيورد
الكلام عليهما ثم قديت باللفظ ولا يريد منطوقه ويريد لازمه أن كان مفرداً كما تقول زيد
أسد فلا ترى حقيقة الاسد المنطوقة وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد
وتسمى هذه استعارة وقد تزد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير
الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما
فهى دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وإنما هي
هيات وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليهما أحوال وهيات في الالفاظ كل
بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات
التي للهيات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الأول يبحث
فيه عن هذه الهيات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى
علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي
الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان وألحقوا به ما صنفاً آخر وهو النظر
في ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من التتميق أما سجع يفصله أو تجنيس يشابه بين
ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه

لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع وأطلق على الأصناف
الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الاقدمين أول
ما تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى
والجاحظ وقدامة وأمثالهم أملاآت غير واقية فيها ثم تزل مسائل الفن تصكمل
شيئاً فشيئاً إلى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه
أنفاس من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا
الفن من بعض أجزائه وأخذ المتأخرون من كتابه ونحوه وأمنه أتمته هي المتداولة
لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين
القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الايضاح والعناية به لهذا
العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمنشأ على
هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية والصنائع
الكلمية توجد في العمران والمشرق وأفرع عمرانا من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية
العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله
وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جله علوم الادب
الشعرية وقرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً وزعموا أنهم أحصوها من
لسان العرب وإنما جعلهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ
وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقة انظارهما ونحو من معانيه ما تعجفوا
عنهما وعن ألف في البديع من أهل افرريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور ورجى
كثير من أهل افرريقية والاندلس على منعهما واعلم أن غرة هذا الفن انما هي في فهم
الاعجاز من القرآن لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال
منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في اتقانها
وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وإنما يدرك
بعض الشيء منه من كان له ذوق بخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من
اعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً
في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذنه والذوق عندهم موجوداً وفر ما يكون وأصح
وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر
جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما
يبدى البعض من اعجازه فانقره بهذا الفضل على جميع التفاسير لولائه أنه يؤيد عقائد
أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتعاهه كثير من

أهل السنة مع وفور بضائته من البلاغة فن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للتفريش من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

(علم الادب)

هذا العلم لاموضوع له يتطرق في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان غرضه وهي الاجادة في فن المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجملون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شاعر على الطبقة وجميع متساوي في الاجادة ومساائل من اللغة والنحو مشوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شئ من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم اسمهم اذا أرادوا هذا الفن قالوا الادب وهو حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسائهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها ومعنا من شيوخنا في مجالس التلميم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة تتبع لها فروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن اتقاه فادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغانى جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشد فاستنوعت فيه ذلك أتم استيعابا وواقفا واعمرى

أنه ديوان العرب وجامع أشعار النحاسين التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وأنها لهم او نحن الان نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

٣٨ (فصل في ان اللغة ملكة صناعية)

(اعلم) أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فالتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم ويقتضيه تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كآخذهم هكذا صيرت اللسان واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الاولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انما فسدت هذه الملكة لمضر بمخاطبتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتشفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني عيم وأما من بعد عنهم من ربيعة ونظم وجذام وغسان وايدوقضاعة وعرب اليمن الجحازيين لأم القيس والروم والحيرة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخاطبة الاعاجم وعلى نسبة

بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ ﴿ فصل في لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مفسر ومحرر ﴾

وذلك انما تجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها الادلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لأن الالفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال في تأدية المقصود لانها صفة فاته وتلك الاحوال في جميع الالسن أكثر ما يدل عليها بالالفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فأنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة اعراب وقديدها بالحروف غير المستقلة ولذلك تساوت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قد تنافى كان الكلام العربي لذلك أو جزوا أقل ألفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكي عن عيسى بن عمرو وقد قال لبعض النحاة اني أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا قائم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول لفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فأذكره والثالث لمن عرف بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولاتلتفتن في ذلك الى خرفثة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أو آخر الكلام من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم والافئتن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المطلق على أساليب لغتهم والمذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان

المدون الاحرصات الاعراب في أو آخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهية معروفة وهو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان واعا وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخاطبتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فاقبلت لغة أخرى وكان القرآن مثزلا به والحديث النبوي منقول بلغته وهما أصلا الدين والملة تخشى تناسيمها وانغلاق الافهام عنهم ما يفقدان اللسان الذي تترلا به فاحتجج الى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما اذا فصول وأبواب ومفصلات ومساائل سماه أهلها بعلم النحو وصناعة العربية فأصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وبوسلما الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأقبا واعلنا لواعيننا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمر أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها واعلمها تكون في أو آخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجازا ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الجبري بهذه المشابهة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الجبري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانتقال الموجود لدينا خلافا لمن يعمله القصور على أنهم ما لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الجبرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الجبري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة جبر لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لهذا العهد نامع لغة مضر الا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شأنهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربية انه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الاعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشار كهم فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرب والاتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بهم وعندهم أنه انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنهم اللغة مضر بعينها فان هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن

عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ومنهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسراجليل منهم في النطق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة لم يندعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد طعن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح وأهل الجيل أيضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وأنها الخاصة التي يتميز بها العربي من النجسين والحضري قفهم ذلك والله الهادي المبين

٤٠ (فصل في ان لغة أهل الحضرة والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة سمر)

اعلم أن عرف الخطاب في الامصار وبين الحضري بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعدد عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فاما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغير الذي بعد عند صناعة أهل النحولنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلهذا أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الاندلس معهم وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما أنها أبعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلا أن البعد عن اللسان انما هو بمخالطة الجمجمة فن خالط الجمجمة أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلى أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للجمجمة فعلى مقدار ما سمعونه من الجمجمة ويربون عليه يعدون عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق اما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من الجمجمة فوورعراهم ولم يكديخلوهم منهم مصر ولا جيل فقلبت الجمجمة فيها على اللسان العربي لذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والجمجمة فيها أغلب لما ذكرناه في عن اللسان الاول أبعد

وكذا

وكذا المشرق ما أغلب العرب على أنهم من فارس والترنخ الطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرو والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظن انرا واضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى وكذا أهل الاندلس مع عجم الخلافة والافرنجة وصار أهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضا بعضهم بعضا كما نذكره وكانها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما يشاء ويقدر

٤١ (فصل في تعليم اللسان المضرى)

اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل كلهم مغيرة للغة مضر التي نزل بها القرآن وانما هي لغة أخرى من امتزاج الجمجمة كما قدمناه الا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ككاشان سائر الملكات ووجه التعليم لمن يتلقى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أحوالهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم حتى يتزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم واقتن العبادرة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كتاباتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويرداد بكثرتهم ما رسوخا وقوة ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكييب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم في ما كما نذكر وعلى قدر الحفظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

٤٢ (فصل في ان ملكة اللغة العربية غير مناعة العربية ومستفنية عنها في التعليم)

والسبب في ذلك أن صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو وعلم بكيفية لانفس كيفية فابست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم للملكة في التعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرقة ثم يغرزها في لفق الثوب فجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردّها الى حيث

ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الاول بطرح ما بين التبيين الاولين ثم يتبادى على ذلك الى آخر العمل ويعطى صورة الحبك والتبنيث والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو اذا طوبل أن يعمل ذلك يده لا يحكم منه شيئا وكذا لو سئل عالم بالحجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالة تلك تمسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه ينشكروا أطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مررت عليه ذاهبة وجاية الى أن ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طوبل بهذا العمل أو شئ منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفس ما فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويحيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنما مستغنية عنها بالجله وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاق وأكثر ما يقع للمخاطبين لكتاب سيديوه فإنه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فبعد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أمأكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الافادة ومن هؤلاء المخاطبين لكتاب سيديوه من يغفل عن التقطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخاطبون لكتب المتأخرين العارضة عن ذلك الامن القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلوها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم فتقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب واغربيته وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحما وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب

الان أمر بواشاهدا أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لامن جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقابية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك الا لعدو لهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبهم وتميز أساليبه وغفلت عن المران في ذلك للتعلم فهو أحسن ما تفيد هذه الملكة في اللسان وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصدوها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسخ هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالف عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الامور كلها والله أعلم بالغيب

٤٣ فصل في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه

وبيان انما يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعننون بقنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقدمت تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة ذلك فالتراكيب بلسان العرب والبليغ فيه يتعزى الهيئة المقيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يخوفه غير مفتي البلاغة التي للعرب وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنهج مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاد من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فلك الملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن

التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولورام صاحب هذه الملكة
 حيداعن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه
 لانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراحة عنده واذا عرض عليه الكلام
 حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس
 من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يجزع عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل
 القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة
 بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم
 ومثاله لو فرضنا صبيانا من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن
 الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القافى في شيء وانما هو
 يحصل هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجليل بحفظ
 كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمدامعة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد
 ممن نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بعزل عن هذا واستعير له هذه الملكة عندما
 ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان وانما هو موضوع
 لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما
 هو محل لادراك الطعوم استعير له الاسم وأيضا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم
 محسوسة له فليل له ذوق واذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين في اللسان
 العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك
 بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة
 التي قرروا أمرها الآن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى الى اللسان
 وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاوراة من مفرد ومركب لما
 يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الامصار وبعدها عنها كما تقدم وانما
 لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة
 من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل أحكامها
 كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتقاد والتكرار لكلام العرب فان
 عرض لك ما سمعته من أن سيمويه والفسارسي والزمخشري وأما الهيم من فرسان
 الكلام كانوا أعجما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم
 انما كانوا عجماء في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من
 العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكانهم في أول
 نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها

فهم وان كانوا عجماء في النسب فليسوا بأعجماء في اللغة والكلام لانهم أدركوا اللغة في
 عنقوانهم والغة في شبايحهم ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الامصار ثم عكفوا على
 الممارسة والمداولة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم
 اذا خالط أهل اللسان العربي بالامصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان
 العربي بمخية الآثار ويجده ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكته اللسان
 العربي ثم اذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمداولة
 والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة اذا سبقتها ملكة
 أخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة وان فرضنا عجماء في النسب سلم من مخالطة
 اللسان العجمي بالكلية وذهب الى تعلم هذه الملكة بالمداولة فربما يحصل له ذلك لكنه
 من السدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرره وربما يدعي كثير من ينظر في هذه القوانين
 البيانية حصول هذا الذوق لهم وهو غلط أو مغالطة وانما حصلت له الملكة ان
 حصلت في تلك القوانين البيانية وايسر من ملكة لعبارة في شيء والله يهدي من يشاء
 الى صراط مستقيم

٤٤ فصل في ان أهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تنقاد
 بالتعليم ومن كان منهم بعد عن اللسان العربي كان محو لاهل الامصار

والسبب في ذلك ما سبق الى المتعلم من حصول ملكة مناقية للملكة المطلوبة بما
 سبق اليه من اللسان الحضري الذي أفادته العبارة حتى نزل بها اللسان عن ملكته
 الاولى الى ملكة أخرى هي لغة الحضرة لهذا العهد ولهذا تجد العجماء يذهبون الى
 المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة صناعة لهم وليس كذلك
 وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب فم صناعة النحاة أقرب الى
 مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الامصار أعرق في العبارة وأبعد عن لسان مضر
 قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضربية وحصول ملكتها التمكن المناقاة حيث قد واعتبر
 ذلك في أهل الامصار فأهل افريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العبارة وأبعد عن
 اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم واقد نقل ابن الرقيق
 أن بعض كتاب القبروان كتب الى صاحب ليا أني ومن لاعدمت فقد علمت أني أبو سعيد
 كلاما لك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتيأ لنا الخروج
 وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا
 وكذا اليك وأما مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري

شبه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد واهذا ما كان باقر بقة من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبة قمتهم في البلاغة حتى الآن ما تلة الى القصور وأهل الاندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلأ منهم من المحفوظات اللغوية نظاما ونثر وكان فيهم ابن حيان المؤرخ امام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحجار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مشين من السنين حتى كان الانقراض والجلالة أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كما افقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تليد الطبقة الاشيليين بسببة وكاب دولة ابن الاجر في أولها وألقت الاندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلالة الى العدو وعدو الاشيلية الى سببة ومن شرق الاندلس الى اقر بقة ولم يلبثوا الى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعدم قبول العدو لها وصعوبتها عليهم بعروج السندهم ورسوخهم في العجة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشر بن وابن جابر وابن الجباب وطبة قمتهم ثم ابراهيم الساحلي الطاريجي وطبقة وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيد اسعابة أعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تليد بعده وبالجملة فشان هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست بعجمتهم أصلا للغة أهل الاندلس والبربر في هذه العدو وهم أهلها ولسانهم لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ووطانهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الاموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس في تمام هذه الملكة واجادتها بعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخاطبتهم الا في القليل فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وابامهم وملكهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغنائهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب أوعب منه لاحوال

العرب وبقي أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ من سواهم ممن كان في الجاهلية كما ذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الامر للاعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسجوقية وخاطوا أهل الامصار والخواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم متصرعا عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فن المنظوم والمنثور وان كانوا أكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٤٥ (فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر)

(اعلم) أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ودعناه الذي تكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فنه المدح والهجاء والثناء وأما النثر فنه السجع الذي يوتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وإن كان من المنشور لأنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسل مطلقاً ولا سجعاً بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذابت أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للعلبة فيها كالجم للثرب ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد ذلك الحق برجحان ما قلناه واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهلها لا تصلح للآخر ولا تستعمل فيه مثل السبب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعملت المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية ونقص السبب بيزيدى الاغراض وصار هذا المنشور اذا تأمته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن واسقتر

المأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في الخطابات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كما على هذا الفن الذي ارتضوه وخطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه رخصوا أهل المشرق وصارت الخطابات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنشور المقتضى أدخله المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه الخطابات السلطانية عنه إذا سلب الشعر فيها اللوزعية وخطب الجذب بالهزل والاطناب في الأوصاف ونسب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضا من اللوزعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويماينه والمحمود في الخطابات السلطانية التمدل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تجميع الألفي الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له ثم أعطاه الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من اطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة وأما اجراء الخطابات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أغل العصر الاستيلاء العجبة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فمحذور وعن الكلام المرسل بعد أدبه في البلاغة وانفساح خطوبه وواعوا به هذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع واللقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ به هذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعر أوهلهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالأعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا ينجحون معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الأعراب ويفسدون بنية الكلمة عما احتضن من التجنيس فتأمل ذلك بما قد مناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بحسنه وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ (فصل في ان لا تتفق الابداع في فن المنظوم والمنثور مع الالفاظ)

والسبب في ذلك أنه كما ينادى ملكة في اللسان فإذا نسبت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحمل عن تمام الملكة اللاحقة لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على النمط

الاولى أسهل وأيسر وإذا تقدمت ملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة اقبالة وعائقة عن سرعة القبول فوَقعت المناقاة وتعدرت التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق وقد برهننا عليه في موضعه فهو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من العجبة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فالأعجمي الذي سبق له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والأفريقي قل أن تجد أحدا منهم محكم الملكة اللسان العربي وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طام به بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى إلا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدهم وإن من سبق له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خلقكم وما تعلمون

٤٧ (فصل في صناعات الشعر ووجوب تعلمها)

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات إلا أنا الآن انما نتكلم في الشعر الذي للعرب فإن أمكن أن نجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم والأفانكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل قطعاً قطعا متساوية في الوزن مقهدة في الحرف الأخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياء وقافية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بإفادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاما في بابيه في مدح أو تشييب أو رثاء فيمحص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستدل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني ويعيد الكلام من التنافر كما يستطرد من التشييب إلى المدح ومن وصف البداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجيع والعزاء في الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرا من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقد ينجح ذلك من أجل المقاربة

على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وانما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر مجزأة يعني انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظاما * واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطأهم وأصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانيات كلها انما كانت تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد ان يكتسب ملكة بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن يقرردون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يشرع الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم يبيت ويستكمل الفنون الواقية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاته بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منجها وغرابة فقه كان محكما للقرايح في استجداء أساليبهم لتحذ الافكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكتفي فيه بملكية الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تداف ومحاولة في رعاية الاساليب التي اختصها العرب بها واستعمالها وان ذكر هنا أسلوب الاسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في اطلاقهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينفج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة تنزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء في القالب أو انما ساج في المنوال حتى يتبع القالب بحصول التراكيب الواقية بمقصود الكلام ويوقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة فسؤال الطول في الشعر يكون بخطاب الطول كقوله

* يادارية بالعلماء فالسند * ويكون باستدعاء الصخب للوقوف والسؤال كقوله * قفان آل الدار التي خف أهلها * أو باستدعاء الصخب على الطلل كقوله * قفانك من ذكرى حبيب ومنزل * أو بالاستفهام عن الجواب مخاطب غير معين كقوله * ألم تسأل قصيرك الرسوم * ومثل تحية الطاول بالامر لمخاطب غير معين ببعثها كقوله * حي الديار بجانب الغزل * أو بالدعاء لها بالسقا كقوله

اسقي طلوعهم أجش هذيم * وغدت عليهم نظرة وزعيم
أوسواله السقي الهامن البرق كقوله

يا برق طالع منزلا بالبرق * واحد السحاب لها حذاء الانيق
أو مثل التفجيع في الجزع باستدعاء البكا كقوله

كذا فليجل الخطب وليقدح الامر * وليس اعين لم يقض ماؤها عذر
أو باستعظام الحادث كقوله * أرايت من جلاوا على الاعواد * أو بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لاحام ولا راع * مضى الردى بطويل الرمح والباع
أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

أي اشجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
أو بهتشة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن زرار * أودى الردى بفريقك المغوار

وأما ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنظم التراكيب فيه بالجل وغير الجل انشائية وخبرية احمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصلة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفن فيه مائتة فقده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو ككاتبه أو النساخ والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في بناءه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقولن ان معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لانا نقول قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس على صحيح مطر دكا هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شئ انما هي هيئة ترسخ في النفوس من تتبع التراكيب في شعر العرب

لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها في تقديمها العمل على مثالها والاحتذاء
بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من
العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وايس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه
العلمية استعمالها وانما العمل عندهم من ذلك انحاء معروفة بطلع عليها الحافظون
لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظرت في شعر العرب على
هذا النحو وبهذا الاساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظرا في المستعمل من
تراكيهم لا يما يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما
هو حفظ اشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في
المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفعلا في النوعين
ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي
المنثور باعتبار الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقديماً يدونه بالاسجاع وقد
يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو
الذي بيني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في
ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قال بكي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما
يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان من تأليف الكلام منفردا
عن نظرائه النحوي والبياني والعروضي نعم ان مراعاة قوائين هذه العلوم شرط فيه
لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اخذت بنوع من النظر لطيف
في هذه القوالب التي يسمونها اساليب ولا يفيد الا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً
واذا اقررت معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حذو او رسم الشعر به تفهم حقيقة
على صعوبة هذا الغرض فاننا لم نقف عليه لاحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول
العرويين في حذو انه الكلام الموزون المقتضى ليس بجذلهذا الشعر الذي نخر بصدده
ولارسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن
والقوالب الخاصة فلا جرم ان حذوهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا
حقيقته من هذه الحقيقة فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة
والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في
غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به فقولنا
الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والوصاف فصل عما يحلوه من هذه
فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي فصل له عن
الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه

ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أيبانه الا كذلك ولم ينصل
به شيء وقولنا الجاري على الاساليب المخصوصة به فصل له عما يجرمه على اساليب
العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعراً انما هو كلام منظوم لان الشعر له اساليب
تخصه لا تكون للمنثور وكذا اساليب المنثور لا تكون للشعر فاما كان من الكلام
منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعراً وبهذا الاعتبار كان الكثير من
اقيانه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من
الشعر في شيء لانهم لم يجريا على اساليب العرب من الامم عندهم يرون ان الشعر يوجد
للعرب وغيرهم ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج الى ذلك ويقول مكانه الجاري على
الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام
في كيفية عمله فنقول * اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطاً اولها الحفظ من
جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة يسهج على مثوالها ويتغير
المحفوظ من الحزالتقى الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر
شاعر من النحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجري واثي نواس
وحبيب والبهتري والرضي واثي فراس وأكثره شعر كتاب الاغاني لانه جع شعر أهل
الطبقة الا لامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه
قاصر ردي ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا ثمة المحفوظ فن قل حفظه أو عدم لم
يكن له شعر وانما هو نظم ماقط واجتناب الشعر أولى من لم يكن له محفوظ ثم بعد
الامتلاء من الحفظ وشهد القرينة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثر منه
تستحكم ملكته وترسخ ويرى يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ اتضح رسومه
الحرفية الظاهرة اذهى صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكسفت النفس بها
انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى
ضرورة ثم لا بد له من الخلقة واستجداء المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا
المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بلاذا السرور ثم مع هذا كله فشرطه
أن يكون على جسام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال
الذي في حفظه قالوا وخيرا الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ
المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجسام ويرى قالوا ان من بواعثه العشق والانتشاء ذكر
ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد به هذه الصناعة واعطاء حقها
ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه
الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونمجه

بعض ما وبنى الكلام عليه الى آخره لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقلة واذا صح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه الى موضعه الا ليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يبق الا المناسبة فليختبرها كما يشاء ولا يرجع شعره بعد الخلاص منه بالنقيح والنقد ولا يضمن به على الترتل اذ لم يلغ الاجادة فان الانسان مقتون بشعره اذ هو نبات ففكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من الترا كيب والخالص من الضرورات اللسانية فليجربها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حذر أئمة اللسان عن ايراد تركاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المنلى من الملكة ويحتجب أيضا المعقد من الترا كيب جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت ألفاظه طبعا على معانيه أو وفي فان كانت المعاني كثيرة كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عليها فنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعرا أبي بكر بن خلفا شاعرا شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعرا المتنبي والمعري بعدم النج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليحتجب الشاعر أيضا الخوشى من الالفاظ والمقصر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقترب من عدم الافادة قولهم النار حارة والسما فوقنا وبقدر ما يقترب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعراء في الربايات والنبويات قليل الاجادة في الغالب ولا يحدق فيه الا الفحول وفي القليل على العشر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فان التريجة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجب الترتل والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في امر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن احسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ما ذا * من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلا للسامعين مينا

ويرون المحال معنى صحيحا * وخسيس الكلام شيئا غنيا
يجهلون الصواب منه ولا يد * روى للجهل انهم يجهلون
فهم عند من سوانا بالامو * ن وفي الحق عندنا يهذرون
انما الشعر ما يناسب في النظر * وان كان في الصفات فنونا
فأقرب بعضه بشا كل بعضا * وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أذاك منه على ما * تمني ولم يكن أو يكسونا
فتناهي من البيان الى أن * كاد - - - نايين لنا نظرينا
فكان الالفاظ منه وجوه * والمعاني ركن فيها عيونا
ان ما في المرام حسب الاماني * يتحلى بحسنه المتشدونا
فاذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المشتينا
فجعلت التسبب سهلا قريبا * وجهت المديح صدقا مينا
وتعليت ما يهجن في السم * وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرضته بهجاء * عبت فيه مذاهب المرقينا
فجعلت التصريح منه دواء * وجعلت التعريض داء دينا
واذا ما بكيت فيه على العا * دين يوما للبين والظاعينا
حات دون الاسى وذات ما كا * ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتبا جئت بالوع * د وعيدا وبالعهوبة اينا
فتركت الذي عبت عليه * حذرا آمناء زرامينا
وأصح القريض ما قارب النظر * وان كان واضحا مستينا
فاذا قبل أطمع الناس طرا * واذا ريم أعجز المجزينا
ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت ربع صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأيت بالاطناب شعب صدوعه * وفقت بالايجاز عور عيونه
وجعت بين قريته وبعيده * وجعت بين محبه ومعيته
واذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيت به بالشكر حق ديونه
أصفية به بتقش ورضيته * وخصصته بخطيره وغنيته
فيكون جزلا في مساق صنوفه * ويكون سهلا في اتفاق فنونه
واذا بكيت به الديار وأهلها * أجريت للعزوزن ما مشؤونه
واذا أردت كناية عن رية * باينت بين ظهوره وبطونه

فجعات سامعه يشوب شكوكه * بنبوتة وظنونته يبينه

٤٨ (فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني)

(اعلم) ان صناعة الكلام نظاما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تتبع لها وهي اصل فاصانع الذي يحايل ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحايلها في الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويخاص من العجة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلبس لغتهم كما يلقن الصبي حتى يصير كانه واحد منهم في لسانهم وذلك اننا قد علمنا ان لسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في النظم وأما المعاني موجودة عند كل واحد في طوع وكل فكر منها ما يشاء ويرضى فله يحتاج الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو عبارة القوال للمعاني فكما ان الاواني التي يعترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام وأسايبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمشابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ (فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودها بمجودة المحفوظ)

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ ان يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للمحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الريات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاما ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعرا بن سهل من المتأخرين أو ابن النبية أو رسل اليبسائي أو العماد الاصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى متدارج جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من

الكلام

الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنفقوى الملكة بتغذيتها وذلك ان النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكفيها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها انما تحصل على التدريب كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاجماع والترسيل والعلمية بمخاطبة العلوم والادراكات والابحاث والانظار والفقهية بمخاطبة الفقه وتنظيم المسائل وتفريغها وتخرج الفروع على الاصول والتصوفية الربانية بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس انظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وريحه وينقلب ربانيا وكذا سائرها ولله نفس في كل واحد منها لونه تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فلكل البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقة من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلي به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثرتا وتاوت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهـ كذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلي من حفظ النقي الحزن من كلام العرب (أخبرني) صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المربنية قال ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهد فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك قال من قوله ما الفرق اذهي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له الله أبوك انه ابن النحوي * وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخبرهم في محفوظهم ومخاطبتهم كلام العرب وأسايبهم في الترسيل واتقائهم له الجيد من الكلام * ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير المولك بالاندلس من بني الاحر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجدا استصعبا باعلى في نظم الشعر حتى رمت به مع بصرى به

وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب في النقة والاصول وجل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلا محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالحنو والجليل من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القرية عن بلوغها فنظر الى ساعة مجيئها ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الامثلك * و يظهر لك من هذا الفصل وما تقر فيه سراخروها عطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب اهل طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم فانما نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبنو نزار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الادوية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسلهم ومحاوراتهم للامم ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كثوم وزهير وعائقة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين أدركوا الاسلام هموا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما **ك**ونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها فنومهم فنضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصنى رونقا من أولئك وأرصف مبنى وأهدل تقيقا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة * ولقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسببته عن جماعة من مشيختنا من تلاميذ الشلوين واستجرت في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته بما ما بال العرب الاسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما أدري نقلت أعرض عليك شيئا ظهر لي في ذلك واهله السبب فيه وذكرته هذا الذي كتبت فسكت مجيئا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعده ايوثر محلي وبصيح في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

٥٠ (فصل في ترفع اهل المراتب عن اتحال اشهر)

(اعلم) أن الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤا العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على خول الشان وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع جهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعائقة بن عبدة والاعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بهم من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتهم بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بمشاغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه فأخروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والثرزما نأثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملل ولم ينزل الوحى في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجهوا حينئذ الى دينهم منه وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قرين لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيرة وتقرب اليهم العرب بأشعارهم يمدحونهم بها ويجهزون الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجوده في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استمداد أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدر من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للاصمعي في باب الشعر والشعراء نجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بالتحال والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محفوظه منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفيهم فقط لاسوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبهزرى والمتنبى وابن هاني ومن بعدهم الى هلم جتراف صار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين كما ذكرناه آنفا وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجعة في الرياسة ومدمة لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ (فصل في اشعار العرب واهل الامصار لسنة العهد)

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت

عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطوف في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر واثنى عليه وكان في حير أيضاً شعراء. تتقدمون ولم يفسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من منصرف في الاعراب بجهة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضرة أهل الامصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الارضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجبل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الاتفاق فلاهل الشرق وأما صاره لغة غير لغة أهل المغرب وأما صاره وتخالفتها أيضاً لغة أهل الاندلس وأما صاره ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحرركات والسواكن وتنبأ بلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بقدر ان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا يقولون وفسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جبل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في اتحاله ووصف بنائه على مذهب كلامهم فأما العرب أهل هذا الجبل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيمقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من التسيب والمدح والرتاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه الحاناً بسيطة لعل في طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية وما كنهم الى هذا العهد وإلهم في آخر كثير التداول في نظمهم يجهون به معصبا على أربعة أجزأ يخالف آخرها الثلاثة في رويته ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والخمسة الذي أحدثه المتأخرون من المولدين والهاولاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المتحليين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم الإنسان يستنكر هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويعجب نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما يباع عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت

له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه بلاغتها ان كان سليمان من الآفات في فطرته ونظيره والافالاعراب لا مدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولتقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع والاعلى الفاعل والنصب والاعلى المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة واذا طبقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في أواخر الكلم فان غالب كلماتهم موقوفة الاخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب فن أشعارهم على لسان الشريف بن هشام يكي الجازية بنت سرحان ويذكر طعنهم مع قومها الى المغرب

قال الشريف بن هشام علي * ترى كبدي حراشكت من زفيرها
يعز للاعلام اين مارأت خاطري * يرذاعلام البدوي يلقى عصيرها
وماذا شكات الروح مما طرأ لها * عذاب ودائع تلف الله خيرها
بحسن قطاع عامري ضميرها * طوى وهند جاني ذكيرها
وعادت كما خوار في يد غاسل * على مثل شوك الطلح عقدوا بديرها
تجابدوها اثنين والى بينهم * على شول لعه والمعافى جريها
وباتت دموع العين ذارقات لسانها * شبيه دوار السواني بديرها
تدارك منها الجثم حذر اورادها * مروان يجي مترا بكما من صيرها
اصب من القيعان من جانب الصفا * عيون ولحان البرق في غديرها
ها أيقنى منى سنابات غدوة * بغداد اناحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدوا * وعرج غاربها على مستعيرها
وشد لها الادهم دياب بن غانم * على يد ماضى وليد مقرب مبيرها
وقال لهم حسن بن سرحان غزبوا * وسوقوا التجوع ان كان ناهو غيرها
ويد لص وسده سها بالتسامح * وباليمن لا يجعدوا في صفيرها
غدرني زمان السفح من عابس الوغى * وما كان يرمى من حير و مبيرها
غدرني وهو زعماصديقي وصاحبي * وناليسه ما من دري ما يديرها
ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * خير البلاد المعطشة ما يخيرها
حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائد له من بديرها
فصدق دري من بلاد ابن هاشم * على الشمس او حول الغمام من هجيرها

وبانت نيران العذارى قوادح * فجزوا بجرحان فيبروا أسيرها
ومن قولهم في رثاء أمير زنادة أبي سعدى البقرى مقارعهم بافريقية وأرض الزاب
ورثاؤهم له على جهة التهكم

تقول فتاة الحى سعدى وهاضها * ولها فى طعون الباكين هويل
أيا سائل عن قبر الزناني خليفة * خذ العنت منى لا تكون هبيل
تراء العالى الواردات وفوقه * من الربط عيساوى بناء طويل
وله عييل الفـور من سائر النقا * به الواد شرقا والبراع دلييل
أيا لهف كبدى على الزناني خليفة * قد كان لاهقاب الجياد سليل
قتيل فقى الهيجا دياب بن غانم * جراحه كفواء المزاد تسيل
باجارنا مات الزناني خليفة * لا ترحل الآن يريد رحيل
وبالامر رحلت الثلاثين مرة * وعشرا وستا فى النهار قليل
ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضى بن مقرب
تبتلى ماضى الجياد وقال لى * أيا شكر ما احناشى عليك رضاش
أيا شكر عدى مابق وديننا * ورا ناعرب عرابا لاسين غماش
نحن عدينا فاصادقوا ما قضى لنا * كما ضاقت طم الزناد طشاش
يا هدينا يا شكر عدى لبر سلامه * لتجد ومن عمر بلاده عاش
ان كانت بنت سيدهم بأرضهم * هى العرب ما ردنا لهن طياش

ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب وغلبهم زنادة عليه

وأى جميل ضاع لى فى الشريف بن هاشم * وأى جميل ضاع قبل جيلها
أنا كنت انا وياه فى زهو بيتنا * عنانى لجه ما عنانى دليها
وعدت كفى شارب من مدامة * من الخرقهوة ما قدر من عيها
أو مثل شطامات مضبون كبدها * غريبا وهى متوخه عن قبيلها
أناها زمان السوء حتى ادوخمت * وهى بين عرب غافلا عن نزيها
كذلك أنا لما لحانى من الوحى * شاكى بكبد باديامن عيها
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا * وقوا واشتداد الحوايا جيلها
قعدنا سبعة أيام محبوس فجعنا * والبد وما ترفع عمود يقيلها
تظل على احداث الثنايا سوارى * يضل الحرف فوق التصاوى نصيلها
ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزاودة أحد بطون رباح وأهل الرياسة فيهم
يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حنص أول ملوك افريقية

من الموحدين

يقول وفى نوح الدجا بعد ذهبة * حرام على أجنان عبي منامها
أيا من لقي حالف الوجد والاسى * وروحها على طال ما فى مقامها
جهازية بدويه عريسة * عداوية ولها بعيد امرامها
مولعة بالبدو لا تألف القرى * سوا عابيل الوعدا بوالى خيامها
عمان ومشتها بها كل سرية * محونة بها ولها صحيج غرامها
ومرباعها عشب الاراضى من الحيا * لوانى من الحور الحلايا حسامها
تسوق بسوق العين مما تداركت * عليها من السحب السوارى غمامها
وماذا بكت بالما وماذا تبلطت * عيون عذارى المزن عذابا جامها
كان عروس البكر لا تحت ثيابها * عليها ومن نور الاقاحى حزامها
فلاة ودهنا واتساع ومنه * ومرعى سوى ما فى مراعى نعامها
ومشروبها من مخض ألبان شولها * عليهم ومن لحم الحواري طعامها
تعاب على الابواب والموقف الذى * يشيب الفقى مما يقامى زحامها
سقى الله ذا الوادى المشجر بالحيا * وبلا ويحيى ما بلى من رمامها
فكافأتم بالود منى وليتقى * ظفرت بأيام مضت فى ركامها
ليالى أقواس الصبا فى سوا عدى * اذا قت لا تقطلى من اينى سهامها
وفرسى عديدا تحت سرجى مسافة * زمان الصبا سرجا ويدي لحامها
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى * من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
وكم غيرها من كعب مرجحة * مطرزة الاجفان باهى وشامها
وصفت من وجدى عليها طريجة * بكفى ولم ينسى جداها ذمامها
ونار يخطب الوجد توهج فى الحشى * وتوجج لا يطفأ من الماذن رامها
أيا من وعدنى الوعد هذا الى متى * فى العمر فى دار عافى ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * ويغنى عليها ثم يسرى غمامها
بنود ورايات من السعد أقبلت * البنا بعون الله يهفو علامها
أرى فى القلايا العين أظعان عزوتى * ورعى على كفى وسرى امامها
يجرعا عناق النوق من عود شامس * أحب بلاد الله عندى حشامها
الى منزل بالمعفرية للذى * مقيم بها ما لذ عندى مقامها
وتلقى سراة من هلال بن عامر * يزيل الصدا والغل عنى سلامها
بهم تضرب الامثال شرقا وغربا * اذا قاتلوا قوماس ريع انهم رامها

عليهم ومن هوى حماهم تحية * من الدهر ما غنى بقية جامها
فدع ذاولا تأسف على سائق معنى * ترى الدنيا مادامت لاحد دواها
ومن أعمار المتأخرين منهم قول خالد بن حزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أمي الليل
بعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويحبب شاعرهم شبل بن مسكانه بن مهلهل عن أبيات نحر
عليهم فيها بقومه

يقول وذاقول المصاب الذي نشأ * قوارع قيعان يعانى صعلها
يرجح بها حادى المصاب اذا اتقى * فنونا من أنشاد القوافى عرابها
محسرة مختارة من نشادنا * تحدى بها تام الوشاملتها
مغربة عن ناقد فى غضوننا * محكمة القيعان دابى ودابها
وهيض تذكارى لها ياذوى الندى * قوارع من شبل وهذى جوابها
اشبل جنينا من حال طرائفنا * فراح يريح الموجهين الغناها
نحرت ولم تقصروا أنت عادى * سوى قلت فى جهورها ما أعابها
أقولك فى أم المتين بن حزة * وحامى حماها عاديا فى حرابها
أما تعلم انه قامها بعد مالى * رصاص بن يحيى وعلاق دابها
شهابا من أهل الامرياشبل خارق * وهل ريت من جلال غنى واصطلى بها
شواهد طفاشا أضمرت بعد طغيه * وأثنا طفها حاسر الأهاها
واضرم بعد الطفيتين التى صحت * نعا الى بيت المتابعة ندى بها
كما كان هو يطالب على داجنبت * رجال بن كعب الذى يتقى بها
ومنها فى العتاب

وليد اتعابتوا أنا أغنى لاني * غنيت بعلاق الثنا واغتصابها
على ونادى بها كل مبضع * بالاسيا فى نتاش العدا من رقابها
فان كانت الاملا لبت عرابس * علينا باطراف القنا اختصابها
ولانقرها الارهاق ودبل * وزرق السبايا والمطايا ركاها
بنى عنما ما نرتضى الدل علة * تسير كالسنة الخناش انسلابها
وهى عالا بان النايا ثقيلها * بلا شك والديا سرى بقلابها
ومنها فى وصف الطعائن

بظعن قطوع البى لا تحشى العدا * فتوفى بحروب مخوف جنابها
ترى العيز فيها قل لشبل عراف * وكل مهارة محطتها ربابها
ترى أهلها غرض الصباح أن يثلمها * بكل حلوب الجوف مستدبابها

لها كل يوم فى الارامى قتائل * ورا القناجر المزوج عفو اصباها
ومن قوايد فى الامثال الحكمية

وطلبك فى الممنوع منك سفاهة * وصداك عن صدعك صواب
اذا ريت ناسا يغلقوا عنك بابهم * ظهور المطايا يفتح الله باب
ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم

فشايب وشباب من أولاد برجم * جميع البرايا تشكى من ضهادها
ومن قوله يعاتب اخوانه فى موالاة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة
السلطان بتونس على سلطانهم مكفولة أبي الحق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما
قرب من عصرنا

يقول بلا جهل فتى الجود خالد * مقالة قوال وقال صواب
مقالة حيران بذهن ولم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهب
تسجت معناها بالالحاجة * ولا هرج ينقاد منه معاب
وليت بها كبدى وهى نعم صاحبه * حزينه ففكر والحزين بصاب
تفوت بادية شرحها عن ما ركب * جرت من رجال فى القبيل فراب
بنى كعب أدنى الاقر بين لدمنا * بنى عتم منهم شايب وشباب
جرى عند فتح لوطننا بعضهم * مصافاة ودوانع جناب
وبعضهم ملنا له عن خصمه * كما بعلموا قولى يقينه صاب
وبعضهم موهوب من بعض ملوكنا * ضرابا وفى حر الظهير كذب
وبعضهم موجانا جريحنا سمحت * خواطر من التزبدل وهاب
وبعضهم نظار فينا بسوة * نقهنا حتى ما عنا به ساب
رجع ينتهى محاسنها فيجده * مرارا وفى بعض المرار رباب
وبعضهم وشاكي من اوعاد قادر * غلق عنه فى احكام السقاى باب
فصمنا عنه واقتضى منه مورد * على كره مولى الباقي وديان
ونحن على دافى المدا نطلب العلا * لهم ما حططنا له فجور نقاب
وحزننا حى وطن يترشش بعدما * نفقنا عليها سبعا ورقاب
ومهد من الاملا لما كان خارج * على احكام والى أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا * بنى كعب لاواها الزريم وطاب
جرينا بهم عن كل تاليف فى العدا * وقتالهم عن كل قيد مناب
الى ان عاد من لا كان فيهم مهمة * ربيها وخيراته عليه نصاب

وركبوا السبابا الممثلة من أهلها * ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشر الانسواله * جاهدوا ما يغلبونها بجلاب
وكسبوا من أصناف السعيا ذخائر * فقام لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظير البرمكين قبل دا * والا هلالا في زمان دياب
وصكوا النادر على كل مهمة * الى أن بان من نار العدو شهاب
خلوا الدار في جنح الظلام ولا انقوا * ملامه ولادار الكرام عتاب
كسوا الحى جلباب البهم لستره * وهم لودروا لبسوا قبيح جباب
لذلك منهم حابس مادار القنا * ذهل حلى ان كان عقله غاب
يظن ظنونا ليس نحن بأهلها * تنى يكن له في السماح شعاب
خطاهو ومن واتاه في سوطه * بالاثبات من ظن القبايح عاب
فواعزوق ان الفتى بو محمد * وهوب لا لاف يغير حباب
وبرحت الاوغاد منه ويحسبوا * بروحه ما يصي بروح صحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرايع * لقوا كل ما يستاملوه سراب
وهو لوعطى ما كان لا راي عارف * ولا كان في قله عطاء صواب
وان نحن ما نستاملوا عنه راحة * وانه باسهم التلاف مصاب
وان ما وطا ترشيش يضيق وسعها * عليه ويعشى بالفزوع لزاب
وانه منها عن قريب مفاصل * خنوج عناز هو الهاوقباب
وعن فائنات الطرف يبيض غوايج * ربوا خلف استار وخلف حجاب
يتيه اذا تاهوا ويصبوا اذا صبوا * بحسن قوانين وصوت رباب
يضلوه من عدم اليقين وربما * يطارح حتى ما كاته شاب
بهم حازه زقه وطوع أوامر * ولذة ما كول وطيب شراب
حرام على ابن تافرا كين ماضى * من الود الا مابل بحراب
وان كان له عقل رجح وفطنة * يلجج في اليم الغريق غراب
واما البدا لا بد لها من فياعل * كبار الى أن تبقى الرجال كباب
ويجعى بهما سوق عليم اسلاعه * ويحمار موصوف القنا وجعاب
وعيسى غلام طالب ربح ملكا * ندوما ولا يمسى صحح بناب
أياوا كلين الخبز تبغوا ادا مه * غلظتوا أدمتوا في السموم لباب
ومن شعر علي بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة
بعاتب بني عمه المتطاولين الى ربامته

محبرة كالدرة في يد صانع * اذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ماضى * وشاء تبارك والضعون تسام
غدامته لام الحى حين وانشطت * عصاها ولا صبا عليه حكام
ولكن ضميرى يوم بان بهم الينا * تبرم على شوك القتاد برام
والا كأبراص النهای قوادح * وبين عواج الكائنات نرام
والا لكان القلب في يد قابض * أناهسم بمنشار القطيع غشام
لما قلت سممن شقا الين زارنى * اذا كان ينادى بالفراق وخام
ألا يا ربوع كان بالامس عامر * يبعي وحده والقطين لدم
وغيد تدانى للخطافى ملاعب * دجى الليل فيهم ساهرونيام
ونعم بشوف المناظرين التحامها * لنا ما بدامن مهرق وكظام
وهو ودبامها اليه دعولسربها * واطلاق من شرب المها ونعام
واليوم ما فيها سوى اليوم حوالها * ينوح على اطلال لها وخيام
وقفنا بها طور اطويلا نسالها * بعين ضعيفا والدموع مجام
ولا صحت منها سوى وحش خاطرى * وسقمتى من أسباب ان عرفت او هام
ومن بعد ذاتى لمنصور بو على * سلام ومن بعد السلام سلام
وقولوا له يا ابو الوفا كلج رأيكم * دخاتم بحور غامقات دهام
زواخر ما تنقاس بالعود انما * لها سيلات على الفضاوا كام
ولا قسمو فيها قياسا يدكم * وليس الجور الطامبات تعام
وعانوا على هلكاتكم في ورودها * من الناس عذمان العقول لثام
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم * قرار ولا دنيا له قوام
الا عناهم ولو ترى كيف رأيهم * مثل سرور فلاه ماله من تمام
خلوا القنا ويقوا في مرقب العلا * مواضع ما هيا لهم بمقام
وحق النبي والبيت واركانه الذي * وما زارها في كل دهر و عام
لبر اليبانى فيه ان طالت الحيا * يذوقون من خط الكساع مدام
ولا برتها تبقى البوادي عواكف * بكل ردينى مطرب وحمام
وكل مسافه كالسد اياه عابر * عليها من اولاد الكرام غلام
وكل كيت يكتمص عض بابه * يظل يصارع في العثمان لحام
وتحمل بنا الارض العقيمة مدة * وتولدا من كل ضيق كظام
بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لها وقت وجعات البدور زحام

أَتَجِدُنِي وَأَنَا عَقِيدٌ نَفُودَهَا * وَفِي سَنٍ رَمَحِي لِلْحُرُوبِ عِلَامُ
وَنَحْنُ كَأُضْرَاسِ الْمَوَافِي نَجْعُكُمْ * حَتَّى يَقَاضُوا مِنْ دِيُونِ غِرَامِ
مَتَى كَانَ يَوْمُ الْقَيْطِ يَا مِيرَا بُو عَلِي * يَلْقَى سَعَايَا صَايِرِينَ قَدَامِ
كَذَلِكَ بُو حَوَالِي الْيَسْرَابَعَةِ * وَخَلَى الْجِيَادَ الْعَالِيَاتِ تَسَامِ
وَخَلَى رَجَالًا لَا يَرَى الضِّمِيمَ جَارَهُمْ * وَلَا يَجْمَعُونَ أَبْدَهُ الْعَدُوِّ زَمَامِ
الْإِيْقِيمُوهَا وَعَقْدُ بُو سَهْمِ * وَهَمُّ عَذْرَوْنَةٍ دَائِمًا وَدَوَامِ
وَكَمْ ثَارَ طَعْنُهَا عَلَى الْبَدْوِ سَابِقِ * مَا بَيْنَ صَحَابِجٍ وَمَا بَيْنَ حَسَامِ
فَتَى ثَارَ قَطَارُ الصَّوِيِّ يَوْمَ نَاعَلِي * لَنَا أَرْضُ تَرْكِ الطَّاعِنِينَ زَمَامِ
وَكَمْ ذَا يَجْبِيوُ الرِّهَامَ مِنْ غَنِيمَةٍ * حَلِيفُ النَّبَا سَمَاعِ كُلِّ غِيَامِ
وَأَنْ جَافَأَ حَفْوُهُ الْمُلُوكَ وَوَسَّعُوا * غَدَا طَبْعُهُ يَجْدِي عَلَيْهِ قِيَامِ
عَلَيْكُمْ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ لَسَنِ قَاهِمِ * مَا غَنَتِ الْوَرْقَا وَنَاحَ حِمَامِ
وَمَنْ شَعَرَ بِعَرَبٍ غَرِبُوا حِوَارَانِ لَا مَرَأَةَ قَتَلَ زَوْجَهَا فَبَعَثَتْ إِلَى أَحِلَافِهِ مِنْ قَيْسِ
تَغْرِبُهُمْ يَطْلُبُ نَارَهُ يَقُولُ

تَقُولُ فَتَاةُ الْحَيِّ أُمُّ سَلَامَةٍ * بَعِينَ أَرَاعَ اللَّهُ مِنْ لَارِئِي لَهَا
تَبَيَّتْ بِطُولِ اللَّيْلِ مَا تَأْلَفُ الْكُرَى * مَوْجَعَةٌ كَانَ انْشِقَافِي بِجَالِهَا
عَلَى مَا جَرَى فِي دَارِهَا وَبُوعِيَا لَهَا * بِالْحَفْظَةِ بَيْنَ الْبَيْنِ غَيْرَ حَالِهَا
فَقَدْ نَارِي شَهَابُ الدِّينِ يَا قَيْسَ كَابِهِمْ * وَغَمَّوْا عَنْ أَخَذِ التَّارِ مَا ذَامِقَا لَهَا
أَنَا قَلْتُ إِذَا وَرَدَ الْكَتَابُ يَسْرَتْنِي * وَيَبْرُدُ مِنْ نِيرَانِ قَلْبِي ذِبَالِهَا
أَيَّا حِينَ تَسْرِخُ الذَّوَابُ وَاللَّحَى * وَيَبِضُّ الْعَذَارَى مَا حِينَ تَوَاجَلِهَا

❖ الموشحات والأزجال للاندلس ❖

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي فُطْرِهِمْ وَتَهَذَّبَتْ مَنَاحِيهِمْ وَفَنُونُهُ وَبَاغُ الْخَبَرِ فِيهِ
الْغَايَةُ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ فَنَامَنَهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظُمُونَ أَهْمَاطًا - بِمَاطَا وَأَغْصَانًا
أَغْصَانًا يَكْتُرُونَ مِنْهَا وَمِنْ أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَيَسْمُونَ الْمُتَعَدِّدَةً مِنْهَا بَيْتًا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ
عِنْدَ قَوَائِمِ تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْرَاقِهَا مَتْنًا يَا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ وَأَكْثَرُ مَا تَنْتَهِي
عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عِدَّةٍ بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ
وَالْمَذَاهِبِ وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيُدْحُونَ كَمَا يَفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ وَتَجَارُوا فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ
وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جَلَّةُ الْخَاصَةِ وَالْكَافَّةِ السَّهْوَةِ تَنَاوَلَهُ وَقَرَّبَ طَرِيقَهُ وَكَانَ الْخُتَرُ
لَهَا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مُقَدِّمٌ مِنْ مَعَاظِرِ الْفَرَبْرِ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ

وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعُقُودِ لَمْ يَطْهَرِ لَهُ مَعَ
الْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرُ وَكُسِدَتْ مَوْشَحَاتُهُمْ مَا فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقَرَارِ
شَاعِرُ الْمُعْتَصِمِ بْنِ صَمَّادِ حَ صَاحِبِ الْمَرْيَةِ وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّ وَسَمِعَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ بْنُ
زُهَيْرٍ يَقُولُ كُلُّ الْوُشَاحِينَ عِيَالٌ عَلَى عِبَادَةِ الْقَرَارِ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ
بَدْرَتُمْ * شَمْسُكُمْ * غَصْنُكُمْ * مَسَلَتْكُمْ
مَا أْتُمْ * مَا أَوْضَحَكُمْ * مَا أَوْزَقَكُمْ * مَا أُنْجَمَكُمْ
لَا جَرَمَ * مِنْ لَحْمَا * قَدْ عَشَقْنَا * قَدْ حَرَمَكُمْ
وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ عِبَادَةُ وَشَاحَ مِنْ مَعَادِمِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَاتِفِ * وَجَاءَ
مَصْلِيًا خَلْفَهُ مِنْهُمْ ابْنُ أَرْفَعِ رَاسِ شَاعِرِ الْمَأْمُونِ ابْنِ ذِي النُّونِ صَاحِبِ طَلِيعَةِ الْقَوْلِ
وَقَدْ أَحْسَنَ فِي أَبْدَائِهِ فِي مَوْشَحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ يَقُولُ
الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمَ * بِأَبْدَعِ تَلْحِينِ * وَسَقَتْ الْمَذَانِبُ * رِيَاضُ الْبَاتِينِ
وَفِي أَنْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ

تَخْطُرُ وَلَا تَسْلُمُ * عَسَا لِي الْمَأْمُونُ * مَرْقُوعُ الْكَتَائِبِ * يَحْيَى بْنُ ذِي النُّونِ
ثُمَّ جَاءَتْ الْحَلْبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي دَوْلَةِ الْمُلُوكِ فَظَهَرَتْ لَهُمْ الْبِدَائِعُ وَسَابِقُ فَرَسَانِ حَلْبَتِهِمْ
الْأَعْمَى الطَّلِيعِيُّ نَحْيِي ابْنَ بَقِيٍّ وَطَلِيعُ طَلِيٍّ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ الْمَهْذُوبَةِ قَوْلُهُ
كَيْفَ السَّيْلِ إِلَى * صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانِ
وَالرَّكْبُ فِي وَسْطِ الْفَلَا * بِالْخُرْ وَالنَّوَاعِمِ قَدِيَانِ
وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ
الْوُشَاحِينَ احْتَمَوْا فِي مَجْلِسٍ بِأَسْبِيلِيَّةٍ فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اصْطَنَعَ مَوْشَحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا
فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى الطَّلِيعِيُّ لِأَنَّ شَادَ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ

ضَا حَلَاكَ عَنْ بَهَانِ * سَافِرٍ عَنْ دَرٍّ * ضَا قَعْنَهُ الزَّمَانُ * وَحَوَاهُ صَدْرِي
صَرَفَ ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّ وَسَمِعَ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ
مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ الْإِبْرَاهِيمِ بْنِ حِينَ وَقَعَ لَهُ
أَمَا تَرَى أَحْمَدَ * فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يَلْقَى * أَطْلَعَهُ الْغَرْبُ * فَأَرَانَا مُلْهُ يَامُ شَرْقِ
وَكَانَ فِي عَصْرِ هَمَّا عَلَى الْمَوْشَحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْإِيضُ وَكَانَ فِي عَصْرِ هَمَّا أَيْضًا
الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ
بِمَجْلِسٍ مَخْدُومُهُ ابْنُ تَيْفَلَوَيْتٍ صَاحِبُ سِرْقِطَةٍ فَالْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَانِهِ مَوْشَحَتَهُ
جَزْرًا لَذِيلِ أَيْمَاجِرٍ * وَصَلَ الشُّكْرُ مِنْكَ بِالشُّكْرِ
فَطَرِبَ الْمَدُوحُ لِذَلِكَ فَلَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ

عقد الله راية النصر * لامير العلاءي بكر

فلما طرق ذلك التلحين جمع ابن تيفلويت صاح والطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما خفت ولف بالايمن المغلظة لايشي ابن باجة الى داره الاعلى الذهب نخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتمل بأن جعل ذهباً في نهله وشي عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهران أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهير ذكر أبي بكر الايض الوشاح المتقدم الذكر فقص منه بعض الحانسر بن فقال كيف تفحص عن يقول

مالذي شرب راح * على رياض الاتاح * لولا هضم الوشاح * اذا أسي في الصباح
أوفي الاصيل * أضفى يقول * ما للشبول * لطمت خدي
ولشمس ال * هبت فالي * غصن اعتدال * ضمه بردي
عما أباد القلوبا * يمشي لنا مستريبا * بالخطه ردتوبا * وبالماء الشنبا
برد غليل * صب غليل * لا يستحيل * فيه عن عهدى
ولا يزال * في كل حال * يرجو الوصال * وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال الحسن بن دويده رأيت حاتم بن سعيد على هذا الاقتنا شمس قارت بدرا * راح ونديم
وابن بهرودس الذي له * باليلة الوصل والعود * بالله هودي
وابن موهل الذي له * ما العبد في حلة وطاق * وشم طيب

وانما العبد في التلاقي * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول انه دخل على ابن زهير وقد أسن وعليه زى البادية اذ كان يسكن بحصن استيه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرى المحاضرة فأنشد نفسه موشحة وقع فيها

كل الدجى يجرى * من فله الفجر * على الصباح

ومعصم النهر * في حلال خضر * من البطاح

فتحرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختر قال ومن تكون فعرفته فقال ارتفع قواله ما عرفت قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد عمرت موشحاته وغربت قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهير لو قيل لك ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول

مالموله * من سكره لا يفيق * ياله سكرانا

من غير خمر * مالمالكيب المشوق * يندب الاوطانا

هل تستعاد * أيامنا بالخليج * وليالينا

أوتستفاد * من التسم الاريج * منك دارينا

واد يكاد * حسن المكان البهيج * أن يحيننا

ونهر ظله * دوح عليه أيق * مورك فينان

والماء يجرى * وعام وغريق * من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله

تفوق بينهم كل حين * بما سبب من يدوعين

ويشتد في القصيد

علفت ملج علمت راى * فليس يحل ساع من قتال

وبعمل بنى العينين منامى * ما يعمل فينا بنى النبال

واشتهر معهم ما يوسد بغرناطة المهر بن الفرس قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهير قوله

لله ما كان من يوم بهيج * بنهر حص على تلك المروج

ثم انعطفتنا على فم الخليج * نفص في حانه منك الختام

عن عصب زانه صافي المدام * ورد الاصيل نهم كف الظلام

قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف * أخبر ابن سعيد عن

والده أن مطرفاً هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن

الفرس كيف لا أقوم لمن يقول

قلوب مصائب * بألحاظ أصيب * فقل كيف يبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن جرمون بمرسية * ذكر ابن الراسين أن يحيى الخزرجي دخل عليه

في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشح موشح حتى يكون

عار يلهن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولي

ياها جرى هل الى الوصال * منك سبيـل

أوهل ترى عن هو السالى * قلب العليـل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة * قال ابن سعيد كان والذي يعجب بقوله

ان سبيل الصباح في الشرق * عاد بجوراني أجمع الافق * فتداعت نوادب الورق

أتراها خافت من الفرق * فبكت سحرة على الورق

واشتهر بأبييلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل

ابن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

واحسرتنا لزمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضى * وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الخلول * وألثم بالوهم تلك الرسوم
قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ الحسن الزجاج موشحاته غير ماهرة
فما يعتد بقول له لله ذلك الأفي قوله

قسما باللهوى لذي حجر * ماليل المشوق من فجر
خذ الصبح ليس يطارد * ماليلي فيما أظن غد * صبح يا ليل انك لا بد
أوقطعت قوادم النسر * فتجوم السماء لا تسرى
ومن موشحات ابن الصابوني قوله

ما حل صب ذي ضنى واكتئاب * أمرضه يار يلته الطيب
عامله محبوبة باجتئاب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفوني النوم لكفى * لم أبكه إلا لفقا لخيال
وذا الوصال اليوم قد غزنى * منه كاشاء رساء الوصال
فأست باللائم من صـ * بصورة الحق ولا بالمثل
واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المشهورة
بدا الصباح قد قدحت * زناد الانوار * في مجامر الزهر
وابن هزرا الجعاني وله من موشحة

نغر الزمان موافق * حيانته منه باتسام
ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر اشيلية وسبقة من بعدها
فمنها قوله

هل درى ظبي الحى أن قد حذى * قلب صب حلد عن مكس
فهو في نار وضيق مثل ما * لعبت ربح الصبا بالقبس
وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب
لعمري وقد مر ذكره فقال

جادك الغيث اذا الغيث هما * يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصالك الاحلى * في الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقول الدهر أسباب المنى * تنقل الخطو على مازسم
زمر ابن زفر رادى وثى * مثل ما يدعوا الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سما * فسما الازهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما * كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلا * يزدهى منه بأهسى ملبس

في ليل كتمت سرا هوى * بالدجى لولائوس القدر
مال نجسم الكاس فيها هوى * مستقيم السير سعد الاثر
وطرما فيه من عيب سوى * انه مر ككلج البصر
حين لذ النوم منا أو كما * هجم الصبح فجوم الحرس
غارث الشهب بنا أو ربما * أثرت فينا عيون الترس
أى شئ لا مرئ قد خلاصا * فيكون الروض قد كن فيه
تهب الازهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تنقيه
فاذا الماء تناجى والحصا * وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورود غيرة بدما * يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس ليبيافه سما * يسرق الدمع بأدنى فرس
يا أهيل الحى من وادى الغضى * وبقلي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب القضا * لا أبالي شرقه من غربه
فأعبد واعهد أنس قد مذنى * تنقذوا عائلكم من كربه
واتقوا الله وأحبوا مفرما * يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عابكم كرما * أفترضون خراب الحبس
وبقلى فيكم ومقرب * باحاديث المني وهو بعيد
قمر اطالع منه المغرب * شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب * في هواه بين وعد ووعيد
ما حرام له معسول الدمى * جال في النفس مجاز النفس
سدد السهم وسمى ورمى * بفؤادى نهبة المفترس
ان يكن جارو خاب الا مل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو لولانس حبيب أول * ايس في الحب محبوب ذنوب
أمره معقل مثل * في ضلوع قد براهاوة لوب
حكم اللحظ بها فاحتمل * لم يراقب في ضعاف الانفس
ينصف المظالم من ظلمها * ويجازى السير منها والمسي
ما قلبي كلبا هبت صبا * عادة بعيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتبا * قوله أن هذا لي لشديد
جلب الهم له والوصى بها * فهو لا تنجبان في جهد جهيد
لا عجب في أضلعي قد أضرمنا * فهسى نار في هـ سيم اليس

لم تدع من مهجتي الا الذما * كبقاء الصبح بعد الغلس
سلى بانفس في حكم القضا * وامررى الوقت برجعي ومتاب
واتركى ذكرى زمان قد مضى * بين عتي قد تقضت وعتاب
واصر في القول الى المولى الرضى * ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتقى * أسد السرح وبدرا مجلس
ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحى بروح القدس
وأما المشاركة فالتكاف ظاهر على ما عانوه من الموصحات ومن أحسن ما وقع لهم
في ذلك موثقة ابن سنا الملك المصرى اشتهرت شرفا وغربا وأولها
يا حبيبي ارفع حجاب النور * عن العذار
تنظر المسك على الكافور * في جنة السار
كالى يا صعب تيجان الربى بالحلى * واجعلى سوارها منعطف الجدول
ولشاع فن التوشيح في أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتتميم كلامه وترصيع
أجزائه نصبت العاقبة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية
من غير أن يلتزموا فيها اعرابا واصحوا فنهضوا به بالزجل والتزموا النظم فيه على
مناحيهم الى هذا العهد فخوف فيه بالفرائب وانسع فيه للبلاغة بمجال بحسب لغتهم
المستحسنة * وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قرمان وان كانت
قلت قبله بالاندلس لكن لم يظهر رحلاها ولا انبكت معانيها واشتهرت رشافتها الا في
زمانه وكان لعهد الملتزمين وهو امام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيد ورايت أزجاله
مروية يغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب قال وسعت أبا الحسن بن محمد
الاشبيلي امام الزجالين في عصرنا يقول ما وقع لاحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن
قرمان شيخ الصناعة وقد خرج الى منزله مع بعض أصحابه فجلسوا تحت مرمر
وأمامهم غزال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال
وعريش قد قام على دكان * بحال رواق
وأسد قد ابتلع نعبان * في غلظ ساق
وفتح فيه بحال انان * فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح * ولقى الصباح
وكان ابن قرمان مع أنه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد الى اشبيلية ويبيت بنهرها فاتفق أن
اجتمع ذات يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقد ركبوا في النهر للترفة ومعهم غلام
جبل الصورة من مروات أهل البلد ويوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فنظروا

في وصف الحال وبدأ منهم هيسى البليدى فقال
يطمع بالخلاص قلبى وقد فاقو * وقد ضمو عشقو بسهم ما تو
تراه قد حصل مسكين جلا تو * فقلق ولذلك أمر عظيم صابا تو
توحش الجفون السكحل اذا عاقو * وذيك الجفون السكحل أبلاتو
ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الاشبيلي
نشب والهوى من ليج فيه نشب * ترى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في مالو يلعب * وخلق كئيب من ذا اللعب ما تو
ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني
نهار ملج تعجبنى أوصافو * شراب وملاح من حولي طافو
والمعلمين يقولوا بصفا فو * والنورى أخرى بعقلا تو
ثم قال أبو بكر بن مرزوق
الحق يريد حديث تعالى عاد * في الواد الجبر والمتره والصاد
تنبه حيتان ذلك الذى بصطاد * قلوب الورى هي في شديكا تو
ثم قال أبو بكر بن قرمان
اذا شمر اكما مورمها * ترى النور يرشق لذيك الجها
وليس مراد وأن يقع فيها * الا ان يقبل يديا تو
وكان في عصرهم بشرق الاندلس محلف الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله
قد كنت مشبوب واختشيت الشيب * وردنى ذا العشق لامر صعب
يقول فيه
حين تنظر الخلد الشريف البهى * تنتهى في الحسرة الى ما تنتهى
يا طالب الكيمياء فى عبقى * تنظر بها النفس ترجع ذهب
وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فن قوله
في زجله المشهور
ورذاذدق ينزل * وشعاع لشمس يضرب
فترى الواحد يقضض * وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب زيسكر * والغصون ترقص وتطرب
وتريد تحبى النساء * ثم تستحي وتهرب
ومن محاسن أزجاله قوله
لاح النيام والنجوم حيارى * فقم بنا تنزع الكسل

شربت حمزوا من قراعا * أحلى هي عندي من العسل
يا من يلين صكما تقلد * قالدك الله بما تقول
يقول بان الذنوب مولد * وأنه يفسد العقول
لارض الحجاز يكون لك اريد * اش ما ساقتك لذا الفضول
مرأت للبحر والزيارا * ودعني في الشرب منهمل
من ليس لوقدره ولا استطاعا * النية ابلغ من العمل
وظهر بعده هولا باشيلية ابن جحر الذي فضل على الرجالين في فتح ميورقة بلزل الذي
أرله هذا

من عاند التوحيد بالسيف يعحق * أنابري من يعاند الحق
قال ابن سعيد لقيته واثبت تليذه المعجم صاحب الزجل المهور الذي أوله
بالبتي ان رأيت حبيبي * أقبل اذنوب الرسيلا
ليس أخذ منق الغزير * وأسرق قم الحجيلا
ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مانك امام الادب ثم من بعدهم لهذه العصور
صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب امام النظم والثرفي الملة الاسلامية من غير
مدافع في محاسنه في هذه الطريقة
امزج الاكواس واملا لي تجدد * ما خلق المال الا أن يتدد
ومن قوله على طريقة الصوفية وينحومني الشترى منهم
بين طالع ونزول * اختلطت بالغزول * ومضى من لم يكن * وبقي من لم يزول
ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى
البعء عندك يا بني أعظم مصابي * وحين حصل لي قربك نسيت قرابي
وكان اعصر الوزراء ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش وكان
امام في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله
لاح الفيا والنجوم حيارى * بقوله

حل المجنون يا أهل الشطارا * مذحلت الشمس بالبحر
جددوا كل يوم خلاعا * لا تجعوا لواء الجماعيل
اليها يتخلعوا في سبيل * على خضرة ذاك النبات
وصل بغداد واجتياز النيل * حسن عندي في ذيك الجهات
وطاقتها أصح من اربعين ميل * ان مررت الريح عليه وجات
لم يلق الغيم سارا مارا * ولا يقدار ما يكحل

وكيف

وكيف ولا فيه موضع رقاعا * الا ويسرح فيه النحل
وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العاتة بالاندلس من الشعرو فيها نظمهم
حتى انهم استنظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العاتية ويسمون الشعرو
الزجل مثل قول شاعرهم

لي دهر بعشق جفونك وسنين * وأنت لاشقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجوع * صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشش والنار تلتهب * والمطارق من شمال ومن عين
خلق الله النصارى للفرز * وأنت تغزوني قلوب العاشقين
وكان من المجيدين لهذه الطريقة لا قول هذه المائة الاديب أبو عبد الله الألويسي وله
من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر

طل الصباح قم يا ندعي نشربوا * ونخدمك من بعد ما نطربوا
سيكة الفجر أحت شققا * في ميلق الليل وقوم قلبو
تري غبارا خالص أبيض نقي * فضه هو الكن الشفق ذهبو
وسقواء كتوا عند البشر * نور الجفون من نورها تكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعاش * عيش الفتي فيه بالله ما أطيبو
والليل نصال القبل والعناق * على سرير الوصل يتقابو
جاد الزمان من بعدما كان بخيل * واش كقلته من ربه عسرو
كما جرع مرر فيما قد مضى * يشرب سواه وياكل طيبو
قال الرقيب يا أديبا لا شذا * في الشرب والعشق ترى تحبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر * قلت يا قوم مما تنجبوا
يعشق ملج الارقيق الطباع * علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
ليس يريح الحس الاشاعر أديب * يغضب بكرو ويدع ثيبو
اما الكاس فحرام نعم هو حرام * على الذي ما يدري كيف يشربوا
ويد الذي يحسن حسابه ولم * يقدر يحسن القاظ أن يجلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون * يغفرونوبم لهذا ان أذنبوا
ظبي بهي فيها يطفي الجمر * وقلبي في جمر الغضى يلهبو
غزال بهي يتظر قلوب الاسود * وما لهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحييهم اذا ابتسم بضحكوا * ويفرحوا من بعدما يندبوا
فويم كالحاتم ونغرني * خطيب الامنة لا قبل يخطبو

جوهر و مرجان أي عقديا فلان * قد صدقته الناظم ولم يتقبوا
 وثارب الخضر يريد لاش يريد * من شبهه بالسك قد عيبوا
 يسبل دلال مثل جناح الغراب * ليالي هجرى منه يستغربوا
 على بدن أبيض بلون الحليب * ما قط راى لثغـم يعلبوا
 وزوج هندات ما علمت قبلها * ذلك الصلايا ريت ما أصلبوا
 تحت العكاكن منها خصر رقيق * من رقتو يخفى اذا نطلبوا
 أرق هو من ديني فيما تقول * جديد عنك حق ما أكذبوا
 أي دين بهالي معالي وأي عقل * من ينبعك من ذا وذا نسلبوا
 تحمل ارداف ثقال كالقرب * حين ينظر العاشق وحين يرقبوا
 ان لم ينفس غدر أو ينقشع * في طرف ديبا والبشر تطلبوا
 يصير ليك المكان حين تجي * وحين تغيب ترجع في عيني تبوا
 محاسنك مثل خصال الأمير * أو الرمل من هو الذي يحسبوا
 عماد الامصار وفصح العرب * من فصاحة لفظه يتقربوا
 يحمل العلم انفراد العمل * ومع بديع الشعر ما أكذبوا
 في المدد زلزال بالرح ما أطعنه * وفي الرقاب بالسيف ما أضربوا
 من السماء يحسد في أربع صفات * فمن يعد قلبي أو يحسبوا
 الشمس نور والقمر همتو * والغيث جود ووالجود منصوبوا
 يكب جواد الجود ويطلق عمان * الاغنيا والجند حين يركبوا
 من خلعتو يلبس كل يوم بطيب * منه بنات المعالي تطلبوا
 نعمتو تظهر على كل من يحبه * فاصد ووارد قط ما خبوا
 قد أظلم الحق وكان في حجاب * لاش بقدر الباطل بعد ما يحسبوا
 وقد بنى بالسر ركن التقى * من بعد ما كان الزمان خربوا
 تخاف حين تلقاء كما ترجيه * فمع سماحة وجهه ما أسيدوا
 يلقي الحروب ضاحكا وهي عابه * غلاب هو لاشي في الدنيا يغلبوا
 اذا جدد سيفه ما بين الردود * فليس شيء يغني من يضربوا
 وهو تسمى المصطفى والاله * لا لطفة اختاروا واستخبوا
 زام خليفة أمير المؤمنين * يقود جيوشو ويزين موكبوا
 لذي الامارة تخضع الرؤس * نعم وفي تبسيل يديه يرغبوا
 بيتهم بقدر الزمان * يطلعوا في الجند ولا يغربوا

وفي المعالي والشرف يعدو * وفي التواضع والحق يقربوا
 والله يقيهم ما دار القالك * وأشرق شمسهم ولا ح كوكبوا
 وما يغني ذا القصيدة في عروض * يا شمس خسر مالها مغربوا
 ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فضا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كلوشع
 نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم
 رجل من أهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشع ولم
 يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها

أبكاني بشاطئ النهر نوح الحمام * على الغصن في البستان قريب الصباح
 وكف السحر يحوم مداد الظلام * وماء الذي يجري بنجر الاقحاح
 باكرت الرياض والطلل فيها اقتراق * سر الجواهر في فحور الجوار
 ودمع النسوان نهرق انهرق * يحاصكي ثعابين حلفت بالثمار
 لو وابل الغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
 وأبدى الندى تحرق جيوب الكمام * ويحمل نسيم المسك عنها رياح
 وعاج الصبا يطل بمسك الغمام * وجسر النسيم ذيلو عليها وفاح
 رأيت الحمام بين الورق في القضب * قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
 تنوح مثل ذاك المستهام الغريب * قد التفت من ثوب الجسد في ردا
 ولكن بما أحمر وساق وخضب * ينظم سالك جواهر ويتقلدا
 جلس بين الأغصان جلسة المستهام * جناحا توسد والتوى في جناح
 وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام * منها ضم منقاره لصدره وصاح
 قلت يا حجام احرمت عيني الهجوع * أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
 قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع * بلا دمع نسبي طول حياتي تنوح
 على فرخ طار لي لم يكن لورجوع * ألفت البكا والحزن من عهد نوح
 كذا هو الوفاء وكذا هو الزمام * انظر جفون صارت بحال الجراح
 وانتم من بكى منكم اذا تم عام * يقول عناني ذا البكا والنواح
 قلت يا حجام لو خضت بحجر الضنى * كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
 ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا * ما كان يصير تحتك فروع الغصون
 اليوم نقاسي الهجر كم من منا * حتى لاسييل جله تراني العيون
 ومما كاسي النحول والسقام * أخفاني فحولي عن عيون اللواح
 لو جنتي المنايا كان يموت في المقام * ومن مات بعد ما قوم لقد استراح

قال لي لورقدت لاوراق الرياض * من خوفي عليه ودانقوس للفقود
وتخضبت من دمي وذال البياض * طوف العهد في عنقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديث واستفاض * باطراف البلد والجسم صار في الرماد
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الأعراب الذي ليس من
شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفعل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكارى
والمعبة والغزل واختلفت أعمارها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها فن
المزدوج ما قاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس * يهوى رجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر ما لولو لو كان صغير * ويصغر عزيز القوم أذ يقتدر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصبر * يكاد يتققع لولا الرجوع للقدور
حتى يلججى من هو في قوم كبير * لمن لأصل عند ولا للخطر
لذا ينبغي يحزن على ذى العكوس * وبصبغ عليه ثوب فراش صافيا
اللى صارت الأذنان امام الرأس * وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان * ما يدروا على من يكثر واذا العتاب
اللى صار فلان يصبح بأبوفلان * ولورايت كيف يرذا الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان * أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
بكار النفوس جدا ضعاف الاسوس * هم ناحيا والمجد في ناحيا
يروا أنهم والناس يروهم تيوس * وجوه البلد والعمدة الراسيا
ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض من دوجاته

تعب من تبع قلبه وملاح ذا الزمان * أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم ملج عاهد الاوخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العناق ويتمتعوا * ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلا ومن حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خناوعا على كل حال
ملج كان هو يتو وشت قلبي معو * وصيرت من خذى لقدمو نعال
ومهدت لومن وسط قلبي مكان * وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان * فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا على واراضيت بؤامير * فالو كان يرى حالى اذا يصرو
يرجع مثل درحولى بوجه الغدير * مرديه ويتعطس بحال النحر و

وتعلمت من ساعا بسقى الضمير * ويقهم مراد وقبل أن يذكرو
ويحتل في مطلوبه لو أن كان * عصر في الربيع أوفى الليالى يربك
وعيشى بسوق كان ولو باصهان * وايش ما يقل يحتاج يقل لويحيك
حتى أتى على آخرها * وكان منهم على بن المؤذن سلمان * وكان لهذه العصور القرية من
فحولهم بزدهون من ضواحي مكاسة رجل يعرف بالكفيف أبدع في مذاهب هذا الفن
ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحله السلطان ابى الحسن وبني مرين الى
افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان ويعزيمهم عنها ويؤنسهم بما وقع غيرهم بعد أن
عيمهم على غزاتهم الى افريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتحتها وهو
من أبدع مذاهب البلاغة في الاشعار بالمقصد في مطاع الكلام وافتاحه ويسمى
براعة الاستهلال

سبحان مالك خواطر الامرا * ونواصيا في كل حين وزمان
ان طعناه عطفهم لنا قسرا * وان عصيانه عاقب بكل هوان
الى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخص

كن مرعى قل ولا تكن راعى * فالراعى عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي * للاسلام والرضا السنى المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع * واذا كره بعدهم اذا تحب وقول
أجاجا تحلوا الصبرا * ودواسرح البلاد مع سكان
عكرفاس المنيرة الغرا * وينسارت بوعزائم السلطان
أجاجا بالنسبى الذى زرتهم * وقطعتم لوكلا كل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم * المتلوف في افريقية السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم * ويندع بريه الحجاز رغدا
قام قل للسد صادف الجزرا * ويحجز شوط بعد ما يحقان
وزف كردوم وتهب في الغبرا * أى ما زاد غزا لهم سبحان
لو كان ما بين تونس الغربا * وبلاد الغرب سد السكندر
مبني من شرقها الى غربا * طبقا بحديد او ثانيا بصقر
لا بد الطير أن تجيب نبا * أو يأتى الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وماشرا * لوتقرا كل يوم على الديوان
لحرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت الغزلان
أد رلى بعقلك الفحاص * وتفكرلى بحاطرك جمعاً

ان كان تعلم حمام ولا رقص * عن السلطان شهر وقبله سبعا
تظهر عند المهين القصاص * وعلا مات تشمر على الصفا
الاقوم عارين فلا ستر * مجهولين لا مكان ولا امكان
ما يدروا كيف يصوروا كسرا * وكيف دخلوا مدينة القبروان
امولاي ابو الحسن خطينا الباب * قضية سيرة الى تونس
فقنا كما على الجريد والزاب * واشلك في اعراب افريقيا القويس
ما بلغك من عمر فتي الخطاب * الفاروق ففتح القرى المولس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرى * وفتح من افريقيا وكان
ود ولدت لو كثره ذكرى * ونقل فيها تفرق الاخوان
هذا الفاروق مردى الاعوان * صرح في افريقيا بالتصريح
وبقت حسي الى زمن عثمان * وفتحها ابن الزبير عن تصحيح
لمن دخلت غنائمها الديوان * مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة امرا * وبني ماهولس سكوت عنوان
اذا كان ذاتي مدة البرا * اش نعمل في اواخر الازمان
واصحاب الحضرة في مكاسانا * وفي تاريخ كاتنا وكيوانا
تذكر في صحتها ايانا * شق وسطح وابن مرانا
ان مريم اذا تكفرايانا * لجدا وتونس قد سقط بنيانا
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
قال لي رايك وانا اذرى * لكن اذا جاء القدر عيت الاعيان
وبقول لك مدهى المرينيا * من حضرة فاص الى عرب دياب
اراد المولى بموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب
ثم اخذني ترحيل السلطان وجيشه الى آخر رحلته ومنتهى امره مع اعراب افريقية
واقي فيها بكل غريبة من الابداع واما اهل تونس فاستحدثوا في اللعبة ايضا على لغتهم
الحضرية الا ان اكثره ردى ولم يعلق بمحفوظي منه شي لردائه * وكان لعامة بغداد
ايضا فن من الشعر يسمونه المواليا وتجنه فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان
ومنهم مفردومته في بيتين ويسمونه دويت على الاختلافات المعتمدة عندهم في كل واحد
منها وغالبها من دوجة من اربعة اغصان وتبعهم في ذلك اهل مصر القاهرة واتوا فيها
بالغرائب وتجرافها في اساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب
ومن أعجب ما علق بمحفظي منه قول شاعرهم

هذا ابراحي طريا * والدماء تنضج
وقا تلي يا أخيا * في الفلايخ
قالوا وناخذ بئرك * قلت ذا أجمع
ولغيره

طرفت باب الخبا قالت من الطارق * فقلت مقتنون لانا هب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها يارق * رجعت حيران في بحر ادمي غارق
ولغيره

عهدي بها وهي لا تأمن على العين * وان سكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعني لها غيري غليم زين * ذكرتها العهد قالت لك على دين
ولغيره في وصف الحشيش

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي * تغني عن الخمر والخمار والساق
خبا ومن خبها تعمل على احراق * خبيتها في الحشى طلت من احداق
ولغيره

يا من وصالوا لطفال المحبة يح * ثم توجسد القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حو-و والتصبر يح * كل الوري كخ في عيني ونفص دح
ولغيره

ناديتها ومشيبي قد طواني طي * جودي على بقله في الهوى يامي
قالت وقتلي كوت داخل فوادي كي * ما هكذا القطن يحشى فم من هوحي
ولغيره

رائي ابسم سبقت سحب ادمي برقه * ما ط اللثام تبدي بدري شرقة
اسبل دجى الشعر تاه القلب في طرقة * رجع هدانا بحيط الصبح من فرقة
ولغيره

يا حادي العيس ازجر بالمطاي ازر * وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصبح في حيم-م ياسن يربد الاجر * ينضر يصلي على ميت قبيل الهجر
ولغيره

عيني التي كنت أوعا كم بها باتت * ترعى النجوم وبالتسهيذ اقاتت
وأسه-م البين صابتي ولا فاتت * وسلوتي عظم الله أكرم ماتت
ولغيره

هويت في قنطر تنكم يا ملاح الحكر * غزال يلى الاسود الضاري بالسكر

غصن اذا ما انتفى بسبي البنات البكر * وان تهال فاللبد وعند ذكر
ومن الذي يسمونه دويت

قد أقسم من أحبه بالباري * أن يبعث طيفه مع الاسحار
يانار شويقي به فأتقدي * لئلا فغصاه بهتدي بالنار
واعلم أن الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله
لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية فلا الاندلسي
بالبلاغة التي في شعراهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعراهل الاندلس
والمشرق ولا المشرق بالبلاغة التي في شعراهل الاندلس والمغرب لان اللسان
الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك للبلاغة لغته وذائق محاسن
الشعر من أهل جلده وفي خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم
آيات * وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا
الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه وقد استوفينا من مسائله
ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص
من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه
تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده
شيأ فشيأ الى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون
قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها من نصف تمام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد
ذلك وهذبتة وألحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في أوله وشرطته وما العلم الامن عند
الله العزيز الحكيم

تم طبع الجزء الاول المعروف بمقدمة ابن خلدون
وبليه الجزء الثاني أوله الكتاب الثاني في
اخبار العرب وأجيالهم ودولهم
منذ مبدأ الخليقة
الى هذا
العهد